مهرجان القراءة للجميع



الأعمال
الإبداعية

سعد مكاوى

السائرون نياما



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

السائرون نياما

السائـرون نياما

سعد مكـاوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الأبداعية)

السائرون نياما

سعد مكاوى

لوحة الغلاف :
للفنان: جمال قطب

تصميم الغلاف

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

السائرون نياماً

الفترة التاريخية التى تدور فيها أحداث هذه القصة لا تكاد تتجاوز ثلاثين سنة (١٤٦٨ ــ ١٤٩٩ م) من عمر سلطنة المماليك التى حكمت تاريخ مصر والشرق ٢٦٧ سنة .

القسم الأول

الطاووس

(١)

قال أيوب لصبيه يوسف وهو يرفع يديه عن النعش الذى كان يصقل خشبه الجديد :

- قم وتفرج ، فقد دنا الموكب .

وكان رنين الأبواق المقبلة قد أخذ يتعالى مع إيقاع الطلبخاناه ، فوثب يوسف إلى منصة دكان النجار العالية وصاح فى ابتهاج :

- عقبى له يوم يجهز له هو الآخر نعشه !

رشف صانع النعوش الثمالة المتبقية من قهوة العصر فى قاع الفنجان الفخارى قبل أن يلحق بصبيه فى مرصده العالى :

- أمسك لسانك يا ولد . . فالبصاصون أكثر من الحصى !

كان هناك صفان من العبيد السود حفاة الأقدم عراة الصدور يتقدمون فى اتجاه قلعة الجبل فى خطوات بطيئة وعلى أكتافهم وأيديهم جوارح الصيد جامدة كأنها طيور محنطة ، معقوفة المناقير متعاظمة ، والسلاسل الرفيعة رابطة بين يد كل عبد وساق طائره ، وحول خصر كل عبد مئزر قصير أصفر تلمع صفرته فى شمس آخر النهار المائلة لمعان صفحة من ذهب ، ومن وراء الطليعة الصفراء جموع من كلاب الصيد الهائجة يمسك بسلاسلها الباذدارية[١] فى

(١) الخدم الموكلون بكلاب الصيد فى قصور الأمراء .

أقبيتهم المزركشة وهم يحاولون السيطرة عليها فى نطاق الموكب ، وكوكبة من الخيل المجهدة يقودها من أعنتها المرسلة جفتاوات[1] راجلون ويحمل كل حصان منها ظبياً فى عنقه السهم أو نعامة صريعة .

همس يوسف فى أذن معلمه :

- سرحة صيد موفقة ، فما أوفر صيد السلطان الجديد ! وجعل يحصى الصيد فى انبهار ساذج :

- أكثر من عشرين ظبياً . . وست نعامات !

قال أيوب وهو يحرص على خفوت صوته :

- يا غبى ! إنه يصيد من الحيوان قدر ما يشاء . . يضرب له الجند حلقة فى الصحراء ويطلقون داخلها الظباء وبقر الوحش والنعامات وما شاء السلطان ثم يطاردها هو وأمراؤه وكلابه وطيوره وعبيده !

وارتفع قرع الطلبخاناة عندما ظهر فرسان أشهبان يركبهما اثنان من أوشاقية الاسطبل السلطانى على رأسيهما قبعتان مزركشتان وكل منهما متقمط فى قباء من حرير أصفر ، وفى يده رمح طويل تتماوج فى ذؤابته راية صغيرة صفراء ، ودوت على الطريق فجأة زغردة امرأة كأنها تفتح الطريق لصفوف الركبدارية[2] المتتابعة فى موجات بعد موجات من اللون الأصفر حبيب السلطنة . . .

- اللعنة على هذا اللون وأصحابه !

وعند هذه اللعنة التى أطلقها صوت مغمور فى زحام الناس تراءت القبة السلطانية متهادية فى أبهة ، يتقدمها العملاق حامل الدبوس رمز السلطنة ،

---

(١) السياس .
(٢) الفرسان .

وعبرت القبة التى تظل ركب السلطان بحريرها الأصفر المزركش بالذهب أمام دكان أيوب محمولة بأيدى جماعة من أمراء المائة ، ومن فوقها التمع فى وهج الشمس تمثال الطائر الفضى الضخم المطلى بالذهب ، وصلاح رجال فى الزحام لا يراهم ولا يجيب دعاءهم صوت :

- عاش مولانا السلطان ! عاش السلطان بلباى !

وجهد أيوب أن يرى لمحة من وجه الحاكم الجديد الذى تعلوه صفرة القبة ، لكن الركبدارية كانوا محدقين بها فى إحكام غيور ، فما استطاع صانع النعوش أن يرى غير العصائب السلطانية على رأس السلطان ، مطرزة الحواشى باسمه وألقابه ، ثم وجوه القضاة الأربعة تحت عمائمهم الهائلة ، وسحنة تمربغا الرومى أتابك العسكر ، والرءوس التى تعلوها الكلوتات والقواويق ، والوجوه المضناة العابسة لمقدمى الألوف وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات وكل تلك الصفوف التى لا تنتهى من أصائل الخيل ، وكل تلك الأرجال من الجراد المملوكى الذى يسد عين الشمس .

وزفر أيوب فى همسة وهو يتلفت حوله :

- كل هؤلاء السفاحين . . ولا مائة من أمثالى ولا ألف فيهم الكفاية لصنع هذه النعوش كلها . . داهية تأخذهم !

وأخذت ذيول الموكب تتوارى مخلفة وراءها فرحة يوسف الذى استطاع رغم الزحام أن يلمح شارب السلطان الجديد :

- فى وسع صقرين أن يقفا عليه بكل راحة !

وهبط أيوب صامتاً وامتدت يده إلى النعش :

- يا مغفل ! صاحب هذا الشارب آلة فى يد خيربك الدوادار ، وهذا هو ما رشحه لمنصب السلطنة !

(٢)

قبيل الغروب ابتلع باب القلعة الكبير كل ضجة الموكب ودخلت المماليك السلطانية إلى طباقها كما دخلت الخيل إلى الاسطبلات الشريفة بإشراف أمير آخور صاحب المذاود الموكل بعلف الدواب . وأدخل الصيد إلى المطبخ السلطان باشراف الأمير الجاشنكير المتولى على جميع الأسمطة ، ودخل السلطان إلى الآدر الشريفة ، حيث يسمع الحريم خرير المياه الجاريه التى ترفعها السواقى من النيل إلى القلعة .

وعبر بلباى بساتين الحريم مسرعاً دون أن يلقى نظرة على الطواويس والظباء . ومر بباب زوجته الأولى خوند الكبرى دون أن يخطر له أن يدخل قاعتها ، ولم ينظر إلى باب قاعة رمضان حيث تقيم خوند الثانية ، ولا إلى باب القاعة المظفرية حيث تعيش خوند الثالثة ، بل اندفع إلى القاعة المعلقة ، جناح زوجته الرابعة التى دخلت فى عصمته يوم تتويجه سلطاناً على البر ، منذ تسعة أيام ، فما أن رأته جلبهار داخلا عليها بوجهه اللحيم المحتقن وجرمه الضخم حتى أزاحت بيدها ستر المخدع الشفاف وطعنته بنظرة نافذة ، قائلة :

- سبع يا مولاى أم ضبع ؟!
- بل كان صيدى حمولة رتل من الخَيل ، وفوق قدرة السباغ يا سلطانى !

أدركت الحركسية المتنمرة أنه لم يفهم عنها شيئا فتمطت فى استخفاف عارضة عليه فتنة صدرها الذى انحسرت عنه غلالتها الدمشقية الباهرة :

- سبع يا مولاى أم ضبع ؟!

وضحكت فى وجهه هازئة وهى تضرب الوسائد بقبضتين دقيقتين ، ثم انكفأت على وجهها وهى ما تزال تطعنه بضحكها الساخر ، وكأن كل شىء فى القاهرة تراخى وهجع بدخول بلباى إلى القاعة المعلقة ، وكأن كل حى

داخل سور القلعة وخارجه قد علق أنفاسه ، آلاف البسطاء المحبوسين من ساعة الغروب وراء أبواب الحارات العطنة ، والقتلى والمكبلون والموسطون على أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها ، والمسجونون فى أبراج القلعة ، وما يضمه سورها العظيم من قصور خواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ودوابهم ، وطباق[١] المماليك السلطانية الاثنى عشر ، التى تتسع مساكن كل منها لألف مملوك ، والاسطبلات الشريفة مقر الخيول السلطانية ، وساحات الأغنام والطيور والحيوانات النادرة ، حتى البساتين والحمامات والأبراج والمآذن ، حتى دار الوزارة ودواوين الحكومة وبيت المال . .

لم يعكر صمت الليلة الوليدة غير دق الكوسات عند أبواب القلعة فى موعدها المألوف بعد صلاة العشاء ، ثم عاد السكون بعد إمحاء دويها النحاسى الرنان ، وطال فى هذه المرة قبل أن يمزقه صوت الأغا الرفيع الذى اندفع فى لهفة من باب القاعة المعلقة وهو يصرخ فى وجوه الحرس :

- الدوادار ! . . . هاتو الدوادار من تحت الأرض ؛ فالسلطان يريده فى الحال !

تحطم السكون تحت نعال الجند المضطربة ، لكن ضحكات هازئة كانت تجد سبيلها إلى الانطلاق من فوق تلك النعال مرددة :

- لماذا لا ينام الدوادار معها ونرتاح نحن من إيقاظه كل ليلة ودعوته !

قال الأغا وهو يدفع جلفاً منهم نحو السلم فى حركة مخنثة :

- هاتوا له الدوادار يا ناس وخلصونا !

قال الجلف الجركسى وهو يدغدغ خصر الأغا :

- أنت وسيدك فى **الهم** سواء يا طواشى القاعة المعلقة !

---

(١) الطباق : مدارس الناشئة الخاصة الملحقة بقصور الأمراء .

واندفع هابطاً فى السلم الحجرى وهو يهز ردفيه متخلعاً :

ــ حكمتك يا أحكم الحاكمين ! حتى فى مخدع السلطان لابد لخير بك أن يدس أنفه الطويل !

وهمس زميل له : « قل له !! » لكن همسته ابتلعتها زمجرة حيوان ذكر يريد أن يخمد الصيحة الشاكية فى نواح امرأة تعالى من وراء الباب المغلق ، شكوى عروس تسعة أيام تندب سوء بختها . . .

ـ حتى فى الصيد نغرس له بأيدينا السهام فى أعناق الظباء !

ـ إخرس فالبصاصون فى كل مكان !

(٣)

ـ هات لى عشرة منهم يا إيواظ ولا تقل لهم إنك تسعى بهم إلى حضرتى ، ولا ترفع عنهم قيودهم حتى يأتونى .

قال إيواظ جبار أبراج القلعة وكبير السجانين :

ـ سمعاً وطاعة يا مولاى .

لم يكن فى الحوش السلطانى فى تلك الساعة المظلمة غير حفنة صغيرة من المماليك تتطاول ظلالهم فى أضواء المشاعل القليلة المثبتة فى الجدران الحجرية العالية وهم يأتمرون بأمر سلطانهم الذى لا يجهل منهم أحد أن الوصفة السودانية التى جاءه بها الدوادار خير بك وقال إنها لا تخيب أبداً كانت نتيجتها خيبة ثقيلة جديدة .

وكان بلباى قد اتخذ مجلسه على كسوة القطيفة الحمراء فى كرسى من الأبنوس المطعم ، وتحت قدميه جلد نمر ، والسيف بين ساقيه ، ومازال فى سمعه أصداء من نواح الحسناء الكاسرة التى هبط عن فراشها منذ قليل ذليل النفس مكسور الخاطر ، فلما اندفع جلاده مع بعض جنده نحو الدهليز المعتم المؤدى إلى البرج الغربى وساد الحوش السكون زاغت نظرات السلطان من

عيون حاشيته طويلا قبل أن يرفع بصره عن جلد النمر الذى يطأه وقال شيئاً يقطع به الوقت فى انتظار المساجين :

ـ صدت اليوم وحدى أربع نعامات وعشر ظباء !

تبادلت جماعة المماليك نظرات مستخفية قبل أن يتكلم منهم من أدرك حاجة السلطان إلى تطبيب جرحه الدفين :

ـ وهل تربع على الأريكة السلطانية قبل مولانا من هو أسرع سهماً إلى الفرائس أو أحكم منه يداً !

لكن نظرة السلطان القلقة كانت قد تهاوت مرة أخرى نحو الأرض قبل أن يبغت الذين حوله بسؤال غير منتظر :

ـ من صاد هذا النمر ؟

ووقعت لحظة حرج لم يكن بلباى يتوقعها ، فجاهد نفسه حتى وسعه أن يرفع رأسه وينظر فى عيون مماليكه :

مالكم سكتم ؟ لعل صائده صاحب أمسكم الرومى خشقدم ؟

قال مملوك منهم وهو يتحسس الكلمات قبل أن تفلتها شفتاه :

ـ بل كان هدية إليه من شيخ كردفانى كانت له عنده مسألة !

ومد بلباى قدمه ليطأ رأس النمر المحنطة عندما ارتفع من فوهة دهليز البرج الغربى رنين سلاسل وظهر إيواظ فى مقدمة صف من أشباح تجر قيودها وتتراقص على الجدار فى ومضات المشاعل ظلالها الناحلة ، فلما سكنت ضجة القيود عندما لصقهم الجند بالجدار صفاً فى مواجهة السلطان توقدت الحمية فى عينيه أمام النور من طول ما ألفت الظلمة ، وجاء إيواظ فوقف راضياً عن نفسه ينتظر الأوامر بين يدى مولاه .

ـ قرب منى صاحب اللحية البيضاء ، هذا الذى يعصب رأسه بالخرقة .

صار الرجل راكعاً على ركبتيه أمام السلطان وعمامته بلون التراب ، مغلول القدمين واليدين ، وفى وجهه سكينة عجيبة .

وتأمل بلباى هزاله المفزع وسلاسله الغليظة وعجب لهدوئه بين يديه :

- هل تعرفنى يا رجل ؟

- لا !

غطت همهمة المماليك على زمجرة السلطان ، لكن بلباى لم يلبث أن أشار بيده إلى رجاله يأمرهم بالصمت ، وفى عينيه نظرة تريد أن تقول لهم إنه سعيد بهذه اللعبة التى وجدها فى ليلته التاسعة :

- لا تعرفنى ؟!

فأجابه ذلك الصوت المطمئن :

- لا أعرفك !

- ألا تعرف سلطان البلاد ؟

رفع السجين عينيه لأول مرة ورشق فى عينى السلطان نظرة فاحصة قبل أن يقول له :

- كيف لى أن أعرفك وأنا هنا منذ سنين لا أعرف عددها ؟ هل أنت عثمان بن جقمق ؟ هل أنت إينال أم ابنه السلطان أحمد ؟ أم لعلك خشقدم الرومى لاتزال متربعاً على العرش السلطانى ؟ قل لى أنت من تكون ! . . .

برطم إيواظ وهو يتحفز من وراء عنق السجين الذى لم ير لجرأته مثالا :

- يا ابن الحمقاء آكلة الخبيزة ! هذا مالك رقبتك وسيدك ومولاك بلباى !

أطرق السجين ولم يتكلم ، لكن السلطان تكلف السرور وهو يتبسط معه :

- ما اسمك يا رجل وما حكايتك ؟

- أنا الشيخ علاء الدين ، وقد قلت رأيى فى السلطان جقمق بعد صلاة

الجمعة فى صحن المسجد الأكبر فجاء بى رأيى إلى هذا المكان ، وكان ذلك فى يوم من أيام الشتاء فى سنة ١٤٣٨ وكان عمرى أربعاً وعشرين سنة ، وهذه هى حكايتى ، فما حكايتك أنت ؟

- فكر بلباى لحظة قبل أن يتكلم :

- فأنت الآن فى الرابعة والخمسين يا شيخ علاء الدين ، لكن قل لى ماذا كان رأيك فى السلطان جقمق ، هذا الذى جاء بك منذ ثلاثين سنة إلى برج القلعة ؟

وفكر السجين لحظة هو الآخر قبل أن تصغى كل الأسماع فى الحوش السلطانى إلى صوته المطمئن :

- لو أنى قلت لك رأيى الآن وأنت هذا السلطان وأنا هذا السجين لما أفدت منه شيئاً ولا أفاد منه الناس ، فما جدوى أن تعرفه ؟

- يا حرفوش ! أترى هذا السيف ؟

- وأعرف أنه على عنقى !

- ولا تفارقك السكينة ؟ أتراك تحسب أنك ماتزال فى صحن المسجد ؟

سكت السجين ومرت لحظة توقع فيها الجميع أن يأمر بلباى على عادته ببطحه أمامه على الأرض حتى يذبحه بيده كما ألف أن ينفث نقمة لياليه فى رقاب المساجين ، لكن السلطان لم يقل غير كلمة واحدة قذف بها فى وجه الرجل دون أن ينهض من كرسيه أو تمتد يده إلى سيفه المستند إلى فخذه :

- اسجد !!

والتقت عيناهما فى الحال والسجين يسأل بصوته الذى شابت هدوءه هزةخفيفة :

- ماذا تقول ؟

ـ أقول لك اسجد فتسجد !

ـ لتذبحنى ؟

ـ بل لتسجد لى !

ـ بئس تاجرك الذى جلبك وأستاذك الذى اشتراك بماله ويوم النحس الذى رفعك على الرقاب !

ماجت الساحة بمن فيها وزأر بلباى وانتفض شاهراً سيفه وبين عينيه طيف الجركسية وهى تحسر الغلالة عن عريها العصى المتحدى :

ـ ياإيواظ اطرحه لى أرضاً !

لكن الشيخ علاء الدين مال للرقاد من قبل أن تدفعه يد الجلاد الفظة . فذبحه السلطان بيده أمام مماليكه والتسعة المساجين المتفضين لصق الجدار ، ثم انقض عليهم فى نوبة هياجه وسيفه فى يده يقطر بدم الشيخ :

ـ ما أنا بضبع يا أبناء الكلاب بل سبع هذا البر إن كنتم لا تعلمون ! وسقط أحد المساجين إلى الأرض منسحقاً **بضعفة** ورعبه فوطىء السلطان وجهه بنعله فى نشوة جنونية وهو يصرخ من أعماق وجوده :

ـ يا حرفوش يا ابن الحرفوش !

وصار هياجه ملء الحوش السلطانى وهو يطعن الرقاب ويطأ الوجوه والزبد يتفجر من فمه ، ومماليكه جامدون من حوله كالأصنام وهم يرون رذاذ الدم على عباءته البيضاء دون أن يتكلموا . . .

(٤)

كان الانتهاء من إنجاز النعش فى موعده قد حكم على أيوب وصبيه أن يبلغا حارة الحمام فى بركة الحبشى متأخرين عن ميقات إغلاق بابها ، فتصدى لهما الطواف رافعاً مصباحه فى يسراه ويمناه ممدودة بغير سلام ولا كلام ، فأسقط فيها أيوب المعلوم وهو يفشخ حنكه عن ابتسامة نفاق كبيرة :

ـ مسا الخير يا زين الرجال !

ضم حارس الباب الأشقر يده على القطعة المعدنية المعهودة بعد أن فحصها بركن عينيه :

ـ أين كنتما يا أزعر حتى هذه الساعة ؟

ـ كنا أمام أحد أمرين ، إما أن يتأخر دفن أحد المسلمين إلى الغد أو أن نلوذ بشهامتك !

وارب الحارس باب الحارة الثقيل وهو يدفعه بكتفه ناقماً على صريره العالى ، ثم دفع بقبضته فى كتف صانع النعوش :

ـ ادخل دخل عليك المغسل !

ـ عاشت لنا همتك يا سيد الناس !

وانفلت يوسف فى ذيل معلمه متلقياً فى امتثال صفعة الطواف على مؤخرته ، وضحك فى ارتياح لظلام الحارة الذى تلقاهما بعطنه :

ـ جاءت سليمة يا معلمى ! . . ابن الحرام استعمل فى هذه المرة كفه كله !

وبين البيوت المتلاصقة فى الظلام كالأقزام المتساندة كانا يعرفان طريقهما المتلوى إلى البيت ، مستأنسين على مألوف العادة بطيف من ضوء أعمش يأتيهما على البعد من مقهى زين الدين الناتىء عند أول منحنيات الحارة ، حتى بعض أكوام القذارة الأزلية كانت أقدامهما تعرف بالاستشعار مكامنها لصق الجدران وتعرف كيف تتفاداها بخفة ، وكأن فى أنف المعلم وصبيه مصافى تلغى الشعور بالرائحة الزخمة وتحتجز عفونتها ، لكن يوسف أمام الكتاب المغلق انكفأ على وجهه متعثراً فى لحم سخن مشعر قابع فى التراب ، وضحك وهو ينهض من كبوته :

ـ صلاة النبى أحسن ! حمار أم الخير حلا له الليلة أن يغير مرقده ! وهفت عليهما رائحة الحشيش المحترق عند زين الدين واستقبلهما عند مصباح المنحنى الكئيب نباح الكلب «كافور» وضحة الحرافيش المقامرين من الزعر والسريحة

والمكاريين ، وتبددت دكة الشاعر فى صدر المقهى خالية حتى من حصيرتها ، وركل زين الدين كلبه بطرف البلغة وهو يبصق بلغمه على الأرض فوق ماء الجوزة الذى كان يدلقه ورد السلام فى بشاشة :

- مساء الأنس يا أمير ، تفضل عطر أنفاسك !

اعتذر أيوب وهو يمرق ساحباً ولاجئاً إلى خفة ظله المألوفة :

- خالتك ست الكل طابخة لنا الليلة خبيزة !

وبالفعل كانت رائحة التقلية تفعم الدهليز وست الكل منهمكة فى وسط الدار تشطف كوز أيوب النحاسى فى طست صغير تحت الزير :

- إيش أخر المعلم وصبيه ؟

كان وجهها الأسمر ناطقاً بالشوق وفى قلب ذقنها الموشوم نغزة ضاحكة ، فمسح أيوب بكفه على رأسها وأجابها وهو يخلع مداسه عند الحصيرة :

- جاء بختنا يا ستى فى ميت مشاكس رأسه وألف برطوشة قديمة أن يستلم نعشه الليلة أو يشكونا إلى السلطان «قل له» !

ضحكت غمازة ست الكل وشمشم يوسف الصغير بأنفه كالقط الأليف :

- الله حلوة ! رائحة طبيخك يا خالة ست الكل !

نهضت ست الكل فخطفت الطبلية المربعة التى كانت مستندة إلى ركن الجدار العارى وجاءت بها فوضعتها فى وسط الحصيرة أمام زوجها وهى تلحظ يدى الغلام بركن عينها النشيطة :

- يوسف ! اذهب فاغسل يديك فى الدهليز ونظف وجهك .

قال أيوب وهو يضحك مخفياً يديه تحت الطبلية :

- أنا يا اختى لم أعانق حمار أم الخير فى الظلام ، ويداى مثل الفل والله العظيم !

وجاءت ست الكل بطبق الخبيزة الكبير فوضعته فى وسط الطبلية وصفت حوله فروع الفجل المغسولة النضرة وأرغفة الخبز ، وناولت زوجها كوزه الكبير ووضعت كوزها فى مكانه وارتفع صوتها منادياً الغلام :

- هات كوزك معك من الطاقة يا يوسف !

والتأم شمل الأسرة الصغيرة حول طعامها ، وما أن استراح كل منهم على فخذه الأيسر حتى امتدت من كل يد ثلاثة أصابع قابضة على لقمة صغيرة غاصت فى سطح الخبيزة الأخضر ، وقال يوسف لخالته وهو يمضغ لقمته فى انشراح :

- أنا شفت السلطان الجديد يا خالة .. عليه شوارب لم ير مثلها البر !

قالت ست الكل وهى تتوجه بكلامها إلى زوجها :

- النسوان فى الحمام كن يتكلمن عنه هذا الصباح .. وامرأة جيزاوية من بلدياتنا قالت إن زوجها يقسم أن الدوادار الكبير يشخط فيه الشخطة فتسيب مفاصله !

سألها أيوب وفمه محشو برأس فجلة كبيرة :

- جيزاوية ؟ من ميت جهينة ؟

- قريبة منصور ، وزوجها يعمل سروجياً فى اسطبل السلطان .. كان ذاهباً فى أى داهية ؟

- كان راجعاً من سرحة صيد ، بالموكب والقبة والهيصة والركبدارية . بقى كنتى فى الحمام يا حلوة ؟

رمقت المرأة الغلام بنظرة تحتية قبل أن تنهر رجلها الذى استروحت اتجاه خواطره :

- إيه ؟ عجبة ؟ ألا تعرف أنى أقصد حمام السوق صباح كل ثلاثاء ؟

وأيوب لعب لها حواجبه فى مرح ومكايدة :

ـ كلَ صباحية ثلاثاء يا بنت ميت جهينة وأنت طيبة !

وارتج باب الدهليز فجأة تحت ضربات قوية بالعصا وارتفع فى الحارة صوت هادر ينادى فى إلحاح خشن :

ـ يا أهل الخبيزة ! . . يا موصدى أبوابهم فى وجوه أهل الله ، يا طعمة جهنم ! . . يا ست الكل يا عبدة أيوب يا ساكنة النعش ! . يا أيوب يا حاملا مدى العمر على كتفك نعشك ! . . افتحوا الأبواب وحضروا الخبيزة واستفتحوا بعفو الله !

تفجر الضحك حول الطبلية وشاع البشر فى الحجرة العارية :

ـ الشيخة زليخة !

اندفعت العجوز الضامرة إلى الضلع الفارغ من الطبلية وتربعت وأراحت المقرعة الغليظة على فخذيها بعد أن لمت خرقها المرقعة :

ـ بسم الله الشافى الذى لا يحب الشيخ عباس !

وكانوا يعرفون أنها ستقول ذلك ويدخرون لقولها ضحك الاستمتاع والطرب ، وتأمل يوسف رأسها الحليق بالموسى ولقمتها الهائلة قبل أن يرحب بها بالكلمة التى يعرف أنها تعجبها :

ـ أنا يوسف وأنت زليختى !

وكانت تعرف أن وجودها يسعدهم وأن هذا البيت يحبها كما تتبارك بها كل بيوت حارة الحمام ، وقالت وعيناها المتوقدتان تضيئان ركنها :

ـ شفت الملعون الجديد يا أيوب ؟

ـ الله يبارك فيك يا ستى الشيخة ! . . إن كنت تعرفين أن عندنا خبيزة من رائحتها فكيف عرفت أنى رأيت بلباى ؟ أنت رأيت الموكب ؟

ازدردت الشيخة مضغة الفجل وتجشأت :

ـ إنى رأيت ما وراء الموكب ! رأيت السجن والسجان وبلباى المجنون فى السلاسل !

تنهدت ست الكل وهى تدفع برغيف آخر أمام ضيفتها المباركة :

ـ بشرة خير يا ستى الشيخة ، ومتى نرى نحن ذلك إن شاء الله ؟

قال يوسف الصغير مسترجعاً بعض كلمات معلمه :

ـ كلما وقع عجل طلع لنا غيره ! ما الفائدة ؟

فردت زليخة اللقمة من فمها المزرور كفوهة الكيس العتيق ورفعت عقيرتها فملأت المكان كله بهديرها الرنان :

ـ « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » . . صدق الله العظيم ! .

وكما انقضت على الطعام فجأة شبعت فجأة :

ـ الحمد لله الذى لا يحب الشيخ عباس !

وقال لها أيوب وهو مستمتع باسراف الصبى فى الضحك :

ـ أنت ويوسف أشد الناس كراهية للشيخ !

فدعك الصبى ذراعه مما يلى الكوع :

ـ بعثتم بى إليه ليعلمنى القراءة والكتابة والقرآن والحساب فلم يفعل من ذلك شيئاً بل كسر لى ذراعى بعصا أغلظ من مقرعة ستنا زليخة !

وصحت على هذه الذكرى نقمة ست الكل هى الأخرى :

ـ وهل عنده وقت لتعليم أولاد الناس ؟ يكفيه تطيير الحمام على السطح ! عقبى له يوم ينكسر حقه !

قال أيوب لصاحبه الكرامات :

ـ الحق معك يا ستنا . . أهل العمامة هؤلاء أمرهم عجب . . عندما

كسر الشيخ عباس ذراع يوسف جاءنى زميله الشيخ عبد العليم فقيه كتاب بركة الحاج متشفياً ومتطوعاً بدفتر لوائح الكتاتيب السلطانية ، ومازال بى حتى حفظنى نص لائحة الضرب طالباً منى أن أضعها فى عين الشيخ عباس إذا لم يدفع لى التعويض : « على الفقيه ألا يضرب صبياً بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسم بل تكون وسطاً ، ويعتمد فى ضربه على اللوايا والأفخاذ وأسفل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة » . . . وحفظتها وزغدت الشيخ وأخرجت الولد من الكتاب ! . . .

قال يوسف وخالته ترفع الطبلية بطبقها الفارغ :

- نفسى ومنى عينى أصنع له نعشه بيدى !

ونهضت الشيخة ولفعت مقرعتها على كتفها :

- شبعت وحان خروجى إلى الله ! . . . أما الشيخ نسناس عدو الله وحبيب المماليك فهو لا يكتفى بنهب حمام البلد وقبض الأجرة منكم سكان هذا البيت ، فقد سمعت من خليل عريف الكتاب أنه بدأ يراهن فى السر على نطاح الكباش ومناقرة الديوك !

وعند الباب التفتت العجوز ذات المقرعة إلى الصبى وقالت له فى صوت خلا من خشونته الطبيعية ومسته وداعة طفولية :

- يا يوسف ! لا تنس أنى زليختك !

فتبسم لها روح الصبا البكر فى عينى الولد الجميل . . .

(٥)

عندما حميت الدعكة وصهلل المنشد وترنحت الحلقة على إيقاع الذكر العنيف ودخل السقاء عبد الجليل فى غيبوبته الروحية المعهودة انفلت منه صاحبه خليل عريف كتاب حارة الحمام واخترق صفوف الذاكرين وجموع المتحلقين حولهم ، ثم عبر ساحات المولد فى عجلة من أمره دون أن تجذب انتباهه ألاعيب المشعوذين وفنون الحواة أو تستوقفه الدعوات الملحة من محترفى

الدعاية إلى مشاهد التشخيص وتهاويل خيال الظل ، وظل منطلقاً فى الليل بخطواته الواسعة حتى اعترضته عند سبيل ست الملك زمجرة كلاب شرسة ، فلما تمهل فى خطوة ونظر رأى تكة سروال مدلاة ووجد الكلاب المتناوشة متوثبة على رمة إنسان عفنة معلقة بالسبيل بين عدد من الرؤوس البشرية المقطوعة .

وكان هدفه الذى يسعى إليه وراء السبيل بخطوات قليلة ولا مفر له من العبور بتلك الوليمة الشنيعة أو يعود فيدور دورة كاملة حول تربيعة سوق النخاسين ، ولقد رأى خليل من أهوال زمانه الكثير الذى تفتر معه صدمة كل بشاعة ، وما كانت المرة الأولى التى يقع فيها بصره على رمم المصلوبين أو أشلاء الموسطين ، كما كان من نصيبه ذات مرة أن يحضر فى عهد السلطان الأسبق تنفيذ عقوبة فى كنفانى تعرض لمملوك خطف ابنه الوسيم وانتزع منه الولد ، فخلعت أضراسه وأسنانه وسط حلقة من الناس عند سكة الخيامية لتدق فى رأسه بالشاكوش ، لكن معدته جاشت لمنظر الكلاب الناهشة فى الرمة التى تفوح منها العفونة ، وإن كان قد وسعه مع ذلك أن يرفع عصاه ويشق طريقه بين كل تلك الأنياب النشيطة التى كانت العظام تقرقع بين بعضها ، كما وسع هدفه أن يظل جاذبا له بالرغم من غثيانه وصدمته :

- لا فائدة يا كلاب ! رائح عند هاجر يعنى رائح عند هاجر . .

وبصق على الأرض وتلفت وهو يقاوم ذلك الانقباض الموجع فى معدته فخيل إليه فى الغبش المعتم الذى تلقف المشهد المقزز أنه يرى أحد الكلاب المتوثبة مطبقاً بأسنانه على طرف التكة وهو يشدها وكأنه يوشك أن يفكها . فأشاح ببصره فى انفعال وكبت مشاعره وهو يهرول نحو الباب الخفيض الذى يعرفه ، وتريث قليلاً ليسترد أنفاسه قبل أن يهبط الدرجتين وينقر على خشب الباب المدهون باللون الأحمر الفاقع ثلاث نقرات متقاربة وهو يتلفت ، نقرة منفردة قوية ، ثم نقرتين متتابعتين خفيفتين .

ومرت لحظة قصيرة قبل أن تنفتح فى الباب الموصد طاقة صغيرة ويظهر فيها قطاع من وجه أبنوسى ، عين واسعة وأنف أفطس وطرف من شارب أبيض كثيف متهدل على ركن شفة غليظة :

ـ هل انتصف الليل ؟

وكان خليل عليها بكلمة السر فأدنى أنفه من فرجة الطاقة المربعة وترنم بصوت مكبوت وهو يشم من الداخل شذى بخور نفاذ :

ـ ونامت الخنافس !

وانفرج الباب الصغير ولقف عريف الكتّاب الذى تبسم فى الدهليز المفعم بعطر فاغم تعرفه حواسه ، وربت كتف العملاق الأبنوسى فى مودة :

ـ صدق من أسماك رضوان !

وباستثناء النعل الخفيف لم يكن على جسم رضوان الهائل غير مئزر قصير أصفر ترتج فى زنقته متى مشى أمام الزبون عجيزة مثل قبة السلطان ، وصوته المخنث متعارض مع بياض الشارب وبسطه الجسم :

ـ مشى خليل وراء القبة الأبنوسية الرجراجة وقد ضربته رائحة الحشيش الكثيفة فى صميم خياشيمه الظامئة نحو ضجة مبهمة تتعالى فيها ضحكات كالعواء ولغط نزق يكاد يغطى على إيقاعات مضطربة لزمر وطنبور وطبلة ، وفى آخر الدهليز رفع رضوان بيده ستاراً بسيطاً كشف عن قاعة فقيرة يعبق فيها دخان أزرق تتبدى فيه شخوص مذكرة ومؤنثة يتوسطها جسم امرأة يتلوى فى شبه عرى ، فلما أن مرق خليل وراء الستار حتى شم أيضاً رائحة الكحول القوية المغثية ، وسمع صيحة الراقصة :

ـ كأس للشيخ خليل يا بنت !

وصوت بنت من وراء ضبابة الدخان التى تنفثها نرجيلات الحشيش من أركان القاعة :

ـ مرحباً به يا ست هاجر !

بنت فى ثياب غلام قصير ، قصيرة الشعر غلامية ، لم تلبث أن جاءت بالكأس والابتسامة :

ـ ونرجيلة من جوز الهند يا شيخ خليل ؟

لم يكد صدرها ينهد ، كأنها على حدود الجنس ، لا بنت ولا ولد ، طاقة مفتوحة على الغيبوبة . . .

ـ ما اسمك يا حلوة ؟

تأودت الغلامة ونفحته بلمسة من أناملها فى عنقه :

ـ اطلب لى كأساً وأنا أقول لك أسمى وأشياء أخرى تعجبك !

آه أشياء أخرى تعجبنى ! . . .

آه ! والجوزة أيضاً يا ولد ! وعرى هاجر يتلوى والمزمار فى الضباب ينوح ورضوان فى مئزره الأصفر بباب الغيبوبة والنسيان ! . . .

آه ! وخذ هذين الدينارين يا خليل وإياك أن تقول لأحد إن شيخك عباس يقامر فى الخفاء واذهب إلى زريبة المعلم جرجس فى كفر الطماعين وراهن على الكبش الأبيض بطل النطاح والديك الأحمر بطل المناقرة ولك المكافأة ! . . .

آه ! وكأس أخرى ! وثالثة ! . . . وأنفاس وأنفاس ! . . . هلمى يا غلامة ، وكل ما لا يعجبنى وهم من الأوهام ! . . . لم تكن هناك كلاب يقطر من أشداقها فتات اللحم ، ولم تنفك تكة سروال الرمة ولا دقت أضراس الكنفانى فى رأسه والناس شهود والشمس طالعة ! . . .

آه ! هاتى أشياء أخرى تعجبنى ! . . .

هاتى كل الغيبوبة وكل النسيان ! . . .

وبعد الرقصة الطويلة طافت هاجر بشعبها الصغير ثم جاءته وهى ماتزال تمسح عرقها وجالسته وهو فى عز سلطنته :

- أعجبتك البنت ؟

- بكم تبيعينها ؟

ضحكت ربة الماخور :

- عهدى بك تعض على الدرهم الواحد بأسنانك ؛ فمن أين لك كل هذا السخاء إن لم يكن فى هذا السؤال قلة أدب منى ؟ فيه ! .

قالها والدنيا بكل ما فيها دوارة ، فطوت المرأة كتفيه بذراعها الساخنة وهى ماتزال تضحك :

- هل سرقت شيخك على آخر الزمن ؟

ندت عنه ضحكة بالغة القصر كأنها صيحة مخنوقة ، وسكت لحظة قبل أن يقول للمرأة وهو يتأملها :

- بل سرقت رمة مصلوب على سبيل ست الملك ، أنا وكلاب الحى !

دقت بكف غير مصدقة عرى صدرها :

- قل كلاماً معقولاً ! وهل يترك الجند على أبدان المصلوبين والمشنوقين والموسطين والمخوزقين برونزة واحدة ! . . .

لكن أسطورته المختلفة بنت الضباب والغيبوبة كانت قد أعجبته :

- صدقينى يا هاجر ! كان فى عقدة تكة لباسه كنز صغير لم ينتبه إليه زبانية السلطان فأخذته فى الظلام وتركت اللحم والعظم للكلاب ! . . لكن هناك وسيلة أخرى للحصول على دارهم ودنانير كثيرة . . هل تحبين أن تعرفيها ؟ . . راهنى على الكبش الأبيض وعلى الديك الأحمر ! . . . خذى . . ها هو عنوان المعلم جرجس فى كفر الطماعين ! . . . قولى له إنك من طرف

شيخى فينفتح لك باب الرزق ! . . هذا أسهل من أن تنبشى فى ظلام الليالى عقدة تكة كل مشنوق ومصلوب ! . . .

وروعت المرأة وفلول شعبها عندما رأوه فى نهاية موعظته القصيرة ينكفىء على وجهه فوق أرض الماخور القذرة مضروباً بنوبة عنيفة من الصرع .

(٦)

عند الدرجات الحجرية القليلة وراء خميلة الريحان وجدا فى انتظارهما العباءتين ومناشف وقنانى عطور بأيدى جاريتين تلبسان على هوى الدوادار سراويل الغلمان وعمائمهم اللطيفة ، ودون أن تغض إحداهما البصر قبل أن يدخل كل من الرجلين فى العباءة المفتوحة أمامه بين يدى الجارية قالت إحداهما وهى تتكسر مستضحكة نفسها :

- وكان الدوادار يحب هذه الرياضة الصباحية وطقوسها الناعمة ، ويقول لمملوكه الاسبانى الأهيف « أحمده »وهو يسبح معه عائدين من نشاط السباحة إلى الشاطىء :

- لا يعيش فى مصر إلا من بيته على النيل !

وفى كل صباح يمشى أمامه مملوكه فى اتجاه الشاطىء متخطراً فى عباءة قصيرة وهو ينحى الطواويس بيده من طريق مولاه . والصبح فى بستان قصر الدوادار جميل ، وما أن ينزلا تلك الدرجات حتى تبل مياه النيل أقدامهما الحافية ويتخلص المملوك وأستاذه من عباءتيهما ويعانقان الماء الأسمر متجردين ضاحكين . . ويلمع جسماهما فى سمرة الماء وهما يتبعدان سابحين بقوة كسمكتين شاهقتى البياض ، وبين لحظة وأخرى يضحك «أحمده» ملء النيل ويغطس مختبئاً من صاحبه ثم يظهر له من حيث لا يتوقع فيبغته ويضحكه ويدغدغ مكامن الانتعاش فى نفسه . . ويتكلمان فى حرية . . ويذكر «أحمده» ما يتناقله المماليك عن الظاهر بيبرس الذى كان يسبح فى النيل بلباس الحرب

وهو يجر خلفه طوفاً يجلس فوقه بعض رجاله ، أو يتنهد خير بك ويزعق فجأة فى غضب والموج يجبره على جهد شديد فى المقاومة :

ــ أسبوعان مرا على طلوع ابن المجنونة للأريكة !

ويضحك المملوك الفتى وهو متعلق بذراعه فى عنق خير بك وشعره متساقط مع الماء على وجهه :

ـ ما الذى ينقص أستاذى حقاً ؟ الصنجق وقطيفة العرش ؟ لماذا تذكر دائماً ذلك المجنون الذى صنعته بيدك ؟

ـ استرجع لنفسك صورته على الأريكة السلطانية يا أحمده ! . . .

هذه أشنع فعلة فى حياتى ! . . . وضعت على البلور قرداً يسحل ! لكن المملوك الصغير يغمز خصر الدوادار :

ـ دعه هناك يتعفن واحكم كما أنت حاكم ! . . . اسمع كلامى ! الكلام المخلص !

ويبصق خير بك ما تسرب إلى فمه من الماء .

ـ إن وجوده هناك غير مبلوع ! . . . هذا شعب النكتة ومع ذلك كنا نحن الذين رفعوا أمامه على العرش بلباى الهزؤة ، نكتتنا الكبرى !

ويسترد أنفاسه قبل أن ينفض على الماء كل ما فى صدره . . أمس فقط قال له الخاسر الحقير ــ دون أن يطلب هو منه شيئاً ــ إنه مهر بالخاتم السلطانى وثيقتين إحداهما تجعل زمام إقطاع الدوادار عشر قرى من أعمال الجيزة تشكل مستطيلاً حسن الرى والصرف ويفلحها أكثر من ستة آلاف فلاح وفلاحة . . . والوثيقة الثانية تجعل لك أنت يا «أحمده» إقطاع قرية ميت جهينة ، كما ترتب لك جمكية شهرية وكسوة سنوية وراتباً منتظماً من اللحم

والخبز والتوابل والشمع والعليق والزيت . . . ولم يكتف الجبان بهذا بل سأل إن كان عند الدوادار العزيز رغبة أخرى يقولها فينالها ! . . . لا لا ! . . . إن وجوده هناك غير مبلوع ! . . . إنه لا ينزل من زور أحد ، لا الأمراء ولا الأتباع ولا الزعر ودود الأزقة . . هى غلطتى وإصلاحها واجب على . . . وأنا هناك والله أعز وأنسب ! . . .

ويشطح مخ المملوك وراء شأنه ، فما أن يسكت مالكه بعد ثرثرته العصبية لينظم لهاثه حتى ينتهز الفرصة :

ــ بلا جدال يا أستاذى ! بلا جدال ! . . . أما أنا فلا أعرف مكان ميت جهينة هذه !

ـ مجاورة لإقطاعى . . . أنا بنفسى اخترتها ! . . . فى كل مكان وفى كل شىء ستكون فى جوارى يا أحمده ! . . . أحمده أحمده !

ولا ينسى الأمير ــ وقد التف بعباءته عند شط البستان ــ أن يداعب وجنة الجارية التى امتدحت رجولته وفتحت نفسه للدنيا قبل أن ينقض مع مملوكه على خيلة الريحان حيث أعدت مائدة الصباح ، ولا ينسى «أحمده» أن يخرج للجارتين لسانه .

وعلى الطعام قالت الجارية الخفيفة وهى تصب لهما عصير الفاكهة فى كؤوس من فضة :

ـ منذ ظهر القمر غارت النجوم !

ـ يا حمقاء ليس «أحمده» شيئاً فى اليد مثلكن حتى تغرن منه ، إنه اليد اليمنى نفسها .

قالت الجارية الثانية وهى تسحب من أمام الدوادار كومة من عظام الكتاكيت المشوية :

ـ هل أنسحب من لسانى أنا الأخرى لأقول كلمتى ؟

ـ انسحبى منه إلى الأبد تكونين أجمل ! . . .

فأخرجت لسانها للمملوك المدلل قبل أن تتكلم مائلة بصدرها على كتف الدوادار :

ـ نحن لا نكره «أحمده» يا مولانا الدوادارا لكن الشىء الخطير هو أن يكرهه خشداشيته !

وغضب «أحمده» فى هذه المرة ونهر الجارية .

ـ كاذبة يا أنثى ! كاذبة ! . . زملائى يكرهوننى ؟ . . . هذا كذب . . . لولا خشية الدوادار لعبدونى ! . . . سواء منهم الذين تربوا مثلى فى أستاذينه أو الذين تجمعهم الزمالة عند سائر الأمراء إلا القليل . . أنا حبيب الكل فازدادى غيظاً وانفلقى نصفين إن شئت واخرسى ! . .

والتفت غاضباً إلى أستاذه :

ـ اصرفهن عنى واطلب لنا الشطرنج وتجهز للهزيمة مثل كل يوم ! قال الدوادار وهو فى نشوة من هذا الصراع المذكر المؤنث :

ـ هاتى الشطرنج يا جلنار واشهدى على الفتى !

لكن الحصى الملون فى ممر الخميلة كشف اقتراب قدم مسرعة ، ولم يلبث أن ظهر مملوك من حجاب الدوادار يستوقف النظر بعينيه اللوزتين وقصره الشديد وملامحه المتعاظمة وعلى رأسه طرطور مغولى من رقع صفراء وخضراء يعتلى قمتها جرس صغير حساس لطيف الثرثرة :

ــ ناظر ديوان الأحباس فى بهو الاستقبال ينتظر تشريف مولانا الأمير . قالها القزم ورقص طرطوره حتى صهلل الجرس ، ولم ينصرف قبل أن يتلقى الإشارة من الدوادار الذى تبسم وغمز « أحمده » .

ــ الأمير نادر الألفى فى هذه الأيام مشوق إلينا !

لمس « أحمده » بأطراف أصابعه شعر الجارية الرابضة على الوسائد الصغيرة عند قدميه :

ــ خذ حذرك من نعومته فما أحسبه إلا بصاصاً لصاحب سره الرومى ! بل هو أنعم من هذا ، وأنا أفهم نادر هذا وأعرف كيف ألعب معه على المكشوف . . . إنه يلعب على حبلين حتى يتبين أى الفريقين أدنى إلى الانتصار، فريقنا أم فريق تمربغا وباقى أبناء الزنا . . وهذا الذى أعرفه عنه يعرفه أيضاً بلا مراء تمربغا الرومى . . إن ناظر الأحباس مفضوح لى فلا تخف على ! . . ناظر الأحباس معروض للبيع وعلى المشترين المزايدة والله المستعان ! . . انتظرنى هنا حتى أذهب إليه **ليعجم** كل منا عود الآخر مرة أخرى ، واستمتع بوقتك وإلا قطعت عنقك يا جلنار أنت وصاحبتك هذه ذات الردف الضاحك . . ما اسمك يا بنت ؟

ـ اسمى نغم ، عبدتك .

أجابه بذلك صوت فى خفوت ضوء الشمعة ، ورشقت قلبه نظرة عطشى جعلته ينطلق نحو القصر وهو متوقد الحس كما لو كان ذاهباً لعناق حسناء لا أفعى من جب الأفاعى ، وكان الآخر هناك فى صدر البهو ينتظره ، فدخل عليه وهو فاتح ذراعيه :

ــ أهلا بمنشار الأحباس الأعظم !

وفتح الآخر ذراعيه وهو يضحك فى ثبات :

ــ يا سيدى ! إن كنت أنا آكل أوقاف المسلمين فأنت آكل البر وما حمل . . دعوا لغيركم لقمة ! . .

وجلس الأميران بعد القبلات متقابلين فلم يتريث خير بك واقتحم

الحديث من حيث انقطع فى آخر لقاء لهما :

ــ أتعرف لماذا أحبك يا أمير ؟ لأنك مثلى تلعب بمزاج !

تمهل نادر على عادته قبل أن يرد :

ــ اسمع يا خير بك ! . . أنا لا ألعب أبداً . . ليس فى طبعى اللعب . . طفولتى مطموسة . . لم أكن قط طفلا ؟

قال خير بك وهو مطرق :

ــ لست فى هذا وحدك ! . . . أنا مثلك ابن دكة المماليك ، ومثلك لا أعرف إلا اليد التى خطفتنى من أرض بعيدة !

ورفع رأسه وواجه ضيفه :

ــ وحتى فى البيع لم يكن لى مثل حظك . . . أنت اشتراك بلباى يوم لم يكن غير أمير وسط الأمراء ودفع فيك ألفا صارت جزءاً من اسمك . . وهو اليوم على الأريكة متسلطن وأنت بحمد الله فارد يدك فى خيرات الأحباس وأراضيها وجوامعها وربطها وزواياها وحوانيتها وخاناتها وحماماتها ومعاصرها وطواحينها وسائر ما هو مكتوب فى كشف موجود عندى ! . . .

وقال نادر الألفى فى بساطة هادئة :

ــ عظيم جداً . . . وفى يدنا أيضاً دفاتر لا كشوف ، وعندنا دائماً أشواق إلى أخبار سيرتك العطرة !

وضحك الأميران وربت كل منهما ركبة الآخر فى مناقرة ديوك مدربة ، ضحكة سلطانين مختصرين .

وبدأت المفاوضات . . .

(٧)

حميت الشمس واستراح بلباى فى ضجعة على الأريكة فى صدر الخيمة الصفراء الكبيرة التى ضربت فى ميدان القبق الفسيح بجهة باب اللوق ، وانتظم الفرسان أمام الخيمة صفاً على ظهور الخيل وخلف كل منهم مماليكه يحملون له قسيه وسهامه وانتظر الجميع إشارة السلطان التى ينفخ عندها فى النفير لتبدأ المباراة على القرعة الذهبية .

وكان القبق الذهبى المرفوع على قمة عمود عال من الخشب منصوب فى قلب الميدان متوهجاً فى ضوء الشمس على شكل قرعة عسلية ، وبداخله طير حمام متفزز فى محبسه الذهبى كأن فى قلبه المضطرب علماً غريزياً بأنه عما قليل سيكون هدف عشرات السهام . . .

ــ متى ينتهى من أكل العنب فإنى أشعر أن القرعة اليوم من نصيبى !

تبسم أتابك العسكر عند هذه الهمسة من جاره فى الصف والتفت إليه بوجهه الوسيم الذى يتدفق إليه الدم عند النشاط كأنه يحاول الوثوب من تحت الجلد فى وجه من يخاطبه :

ــ عندما ينظر فى فضة الطبق فلا يجد فوقها حبة عنب واحدة ، عنده فقط يعتدل فى جلسته ويتجشأ ملء الخيمة ويعطى الإشارة . . ألا تعرف يا عزيزى «بظلم» غرامة بالعنب حباً وعصيراً وخميراً ؟

التمعت عين الفارس الأعور القمىء الذى لا تخفى العباءة الفضفاضة نحوله الشديد وتقلصت شفته وهو يقذف رده فى ازدراء :

ــ أعرف يا عزيزى تمربغا أنه البطين السكير ، لكننا هنا لرمى القبق !

تمهل أتابك العسكر قبل أن يقول لصاحبه فى مكايدة :

ــ واعلم يا سيدى الوالى أنك واهم فى ظنك أنك حائز السبق ، لأن فى نيتى أن أظفر اليوم بالقرعة وبهدية السلطان !

والخيل تدق الأرض بحوافرها القلق ، ومملوك مديد القامة فى مقدمة قاووقه شارة صغيرة معدنية اندفع من خلف الصف نحو الجواد العصبى الذى يعتليه والى القاهرة ورفع إلى رئيسه ورقة مطوية معقودة من منتصفها برباط أحمر ، فتناولها ونظر فيها قبل أن يقول لمملوكه فى غضب مكبوت :

ــ الحمير ! . . . ما الفائدة من قتل لصين أو ثلاثة إذا كان قد أفلت منهم شيخ المنسر بالغنيمة !

وبإشارة من يده صرف المملوك الذى توارى فى زحمة الأتباع الراجلين خلف صف الإمارة الراكب ، والوجع المعهود فى معدة الفارس القمىء يتجاوز طاقة الاحتمال إذا امتطى صهوة جواده ، لكن ما من قوة فى الأرض يسعها أن تمنعه من الظهور بمظهر المعافى فى صف الأمراء البارزين تحت عين السلطان ، ولا كان فى القاهرة كلها من يعرف الألم الفظيع الذى يفرى أحشاءه غير جاريته عبير التى صارت كاتمة سره منذ عرفت حكاية السم الذى دس له فى كأسه وكاد يجهز على حياته . . .

ــ خيراً يا سيدى الوالى ؟ حريق أم فتنة ؟

كان فى بطن «بظلم» مثل وخز السكين ، لكن قدرته على كتمان عذابه هائلة :

ــ لا هذا ولاذاك ، بل كنز فضة طار من يدنا بغفلة من رجالى الأغبياء

ضحك تمربغا مستمتعاً بامتقاع الوجه الضئيل المجرد من كل وسامة :

ــ تقصد أنه طار من يدك أنت يا سيدى الوالى ؟!

ووسع « بظلم » أن يرسم هو الآخر على وجهه طيف ابتسامة :

ــ لا تكايدنى يا تمربغا فأنا أعلم من شأن يدك الطويلة فى شئون العسكر ما لايرضيك أن يلفظ به لسانى !

عندها التمع فى عينى الرومى وميض خبيث وهو يتظاهر بأنه يتشمم الهواء بأنفه الدقيق :

ــ أعرف يا عزيزى بظلم . . أعرف أن لك زبانية استخبار فى كل شبر من البلد ، لكن قل لى ! . . . ما هذه الرائحة الزكية التى تشمل الميدان ؟ لكأنى أشم جبلا من الحشيش !

وتلقى « بظلم » الوخزة بثباته الطبيعى ، فإذا كان صحيحاً أن من مهام منصبه مقاومة مناسر اللصوص وأوكار الفساد وكهوف الحشيش ، فما يجهل أحد فى القاهرة أن جهة باب اللوق عامرة مع ذلك بمزارع الحشيش الذى يحتمى كبار زراعه وتجاره بوالى القاهرة ويقاسمونه أرباحهم الكبيرة ، واستضحك وهو يتلفت نحو باب الخيمة :

ــ حمداً لله ! صاحبنا يداعب الآن حبات العنب !

قال أتابك العسكر فى إصرار على أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة فى موضوع الحشيش :

ــ أسأل الله ألا تكون براعتك فى قمع الزعر وأبناء البلد من نوع براعتك فى تغيير موضوع الحديث !

ونفخ فجأة فى النقير فتداعت لرنينه الحاد أبدان الخيل الذكية ودنا من ظهرها الأتباع حملة السهام ، وكأن وهج القرعة الذهبية ازداد فجأة أمام عيون الأمراء ، وبرز السلطان والعبيد يسعون بحصانه الأبيض ويهيئون لجلالته الركاب . . .

وافتتح بلباى الرمى فوارى المماليك ابتساماتهم إذ يطيش سهمه الرشيق الصنع ساعياً فى غباء إلى صفاء السماء ، وتتابعت السهام متداينة من القرعة الذهبية دون أن ترن القرعة ولو بلمسة من أحدها . . . وطير الحمام فيها ،

على ما به من خوف ، آمن من سهم يمرق من داخلها فيخرج به من طرفها البعيد ميتاً ، وتبسم « بظلم » هازئاً بسهم « تمربغاً » الخائب كما تبسم تمربغاً هازئاً بسهم بظلم ، حتى كان السهم المسدد الذى مر من داخل القرعة وخرج بطير الحمام الأبيض دامى الفؤاد ، وعندها ارتفعت صيحة عامة رجت الميدان :

ــ القرعة اليوم للدوادار ! عاش الدوادار ! . . .

ومال الأعور على جاره فى الصف لينفث غيظه :

ــ لا أنا ولا أنت ! أخذها ابن اللئيمة !

تضاحك أتابك العسكر وهو يلتقط الغمزة :

ــ يا راكب السلطان ، يا راكب القرعة !

وتأمل بظلم صاحبه تمربغا الذى يتدفق جسمه القوى بالعافية : ترى هل يعرف هذا الرجل الجميل المرح أن الدوادار وعدنى بمنصب أتابك العسكر إن صارت إليه السلطنة وماذا يكون قوله لو عرف ؟ . . أكبر الظن أنه سيقهقه ضاحكاً دون أن يفقد سكينة نفسه قائلا فى طمأنينته الهازئة : وعد لص كبير للص كبير !

وخرج من الصف حصان الدوادار الأسود وتقدم مختالا فى مشيته المستعرضة حتى وقف بفارسه إزاء حصان بلباى الأبيض ، ورفع خير بك يمناه بتحية السلطان :

ــ المجد لبلباى المجيد سلطان البلاد !

وعمامة السلطان اهتزت وكأن شواربه تحتها ترتخى :

ــ مبروك يا خير بك ! موفق هاتوا الفرس لسَيد الرماة !

وبظلم من مكانه فى الصف راشق عينه الواحدة فيها لا تفوته من شأنها لفتة : أى الحصانين ، الأبيض والأسود ، يحمل سيد البلاد ؟ وهل يسعه هو لو اختفى تمربغا من الوجود وصارت الأريكة لخير بك أن يكون فى الظاهر صاحب الجند وفى الباطن السيد الفعلى وصاحب الكلمة العليا فى أهل البلاد وفى هذا القطيع الممتاز الفارض سيادته على البلاد وأهلها ؟ . . آه ! . . . ما أبعد المسافة ، لكن ما أسهل الوثوب ! . . . هى ذى الأريكة وما على الأريكة ! . . . نظرة بين عينى رجلين ، وفى عين بلباى صاحب الصنجق والعصائب السلطانية ارتخاء وانكسار وفى عين خير بك دواداره وحاجب بابه وكاتم سره ثقة وهيبة وتسلط ، ولم يعد فى البلاد مملوك ولا حرفوش لا يسمى بلباى « السلطان قل له ! » من كثرة ما أشار إلى خير بك فى كل مسألة وقال كلمته الذائعة : « إيش كنت ! قل له ! » .

وتنهد « بظلم » إذ يرى الحياة كما رآها دائماً من خلال كل تلك السيوف ، ونفضه من احشائه الوجع :

ــ آه ! ثمالة السم القديم لا تزال فى بطنى ! . . .

وفى موقفه عند الخيمة السلطانية كانت جاريته عبير حاضرة فى أفكاره وهو متصلب فوق الحصان ، ها هى بكلامها الساحر تدنى منه العرش وتعطر له الأمانى وتقنعه بطيب الرقاد الذى ينسيه عينه العوراء وهموم القاهرة التى يحملها منذ صارت إليه ولايتها ، ها هى تمرضه ، ها هى ترقص بين يديه فى عريها العنبرى ، ها هو مطاع ومهاب ومحبوب ، وها هو النفير يدوى معلناً ساعة الانصراف من اللعب وبظلم يتنهد مرة أخرى وهو يغمز بطن الحصان بمهمازه ويتحسس مقبض **سيفه** ، شاعراً أن الشقة بعيدة وإن تكن قبضته على السيف قوية .

(٨)

– ربنا يا معلم يجعل استفتاحك لبنا ! يا صباح الخيرات !

دفس شنوده أنفه فى أوراق القضايا المفتوحة أمامه دون أن يزيد رده عن همهمة كالزمجرة قاطعة الطريق على كل استطراد ، وغمز عمر الحانوتى صديقه صانع النعوش :

– ينطق حجر الطاحون ولا ينطق هذا العجل !

وقال أيوب وهو ينحشر مع صديقه بين بائع بخور شاب وسقاء شيخ يحمل فى قمة ظهره حدبة فى حجم القربة :

– ربنا يلطف بعيسى الغلبان ويحنن عليه قلب القاضى !

كان الهم الذى جاء بهما مبكرين أخطر من أن يشغلهما معه فى ذلك الصباح شأن آخر من شئون الحياة والموت ، ولم يكن فى دار القضاء عندما دخلاها غير عدد قليل من الباعة وأشباه المعدمين والشطار ، وشنوده كاتب المجلس ومحرر الدعاوى والأحكام .. وفى انتظار ظهور القاضى من الباب الداخلى الذى يقف عنده الحاجب متصلباً كان كاتب المجلس على عادته منكباً بوجهه السمين فوق تلال الأوراق التى يحتمى بها من فضول المتقاضين الذين لا تنتهى لهم أسئلة ولا تفرغ لهم تحية ، وكانت حدبة السقاء قد تكورت وهو ينكمش مفسحاً بعض المكان ، فالتفت إليه عمر بوجهه الودود وحياه فى أذنه :

– شد حيلك يا عم جمعة .. خير إن شاء الله ؟

تهللت الأخاديد فى وجه السقاء للكلمة الطيبة وقال وهو يهرش فى الخرقة القذرة المحبوكة حول شعره الأبيض القليل :

الأمر لله يا ابنى ! والله أنا ما ضربت حصان المملوك على كفله إلا بعد

ما رفس الحصان جنبى وأنا رجل كباره ولا أستحمل زقة !

وتدخل أيوب فى الكلام مائلاً بوجهه أمام صدر صديقه الحانوتى حتى يضمن وصول همسته إلى سمع السقاء الضعيف :

– سمعت يا عم جمعة أنك لما رفست الحصان بعزم ما فيك انقلب المملوك بوجهه على الأرض فانعوج منخاره ؟

فرفع السقاء يديه أمام وجهه مفتوحتين على السماء ؟

– ربنا أعلم ! .. هل أقدر أنا على قلب قطة على وجهها ! .. الولد المملوك هو المعتاد على هذا الانقلاب ، وأنا يا جدعان ما لى دعوة ! .. ضجت المحكمة بضحك عام وأدته صيحة هادرة من الحاجب الواقف على باب القاضى :

– اخرس يا حرفوش يا ابن الحرفوش أنت وهو .. اخرسوا ! هذه محكمة لا غرزة ! ...

وصفق بيديه فى عظمة :

– يا أعوان ! إسكتوا الحشاشة !

وكان شنودة وأوراق الدعاوى بين يديه قد رفع رأسه قليلا وشمل الجمع بنظرة من بين الجفون ، هادئة عليمة :

– لماذا تأخر الجلواز ؟

لم يسمع الحاجب فصاح من عتبته بصوته المتعاظم :

– ماذا تقول يا حضرة كاتب المجلس ؟

فرفع شنودة هو الآخر صوته الرتيب المنغم :

– هات لهم الجلواز ، وحرك لنا فضيلة القاضى !

أشار الحاجب إلى أحد الأعوان وأسر فى أذنه كلمات قليلة فانطلق الرجل من باب القاعة تشيعه همسات مكبوتة :

ــ الجلواز راحت عليه نومة !

والتوى عنق بائع البخور نحو جيرانه فى الصف ليلقى بهمسته :

ــ يحدث له كثيراً أن يتأخر ما بعد ظهور القاضى ويسمع له من فضيلته كلمتين فى العظم ، ولا فائدة !

وفى السكون الذى سقطت إليه همسات المتهمين والمتقاضين والنظارة كانت همهمات عم جمعة المتكررة لا تفتأ تستفز غمزات وضحكات مخنوقة ، لكن عاصفة أخرى من الضحك تفجرت من الحناجر عندما ترنحت حدبة السقاء الظريف وهو يمصمص بشفتيه :

ــ بقى جمعة الذى فات الستين يقلب الولد المملوك ؟ . . . يا ريت يا أولاد ! . . .

وإذا بصرخة مفعمة بالألم تنبعث من آخر الصفوف ليموت بانبعاثها المرح العصبى وتلتوى الأعناق إلى الخلف ، فقد ظهر الجلواز ولذع أقرب الظهور إليه بعصاه الرفيعة الطويلة إيذاناً بقدومه ! . . .

ولم يستخدم الجلواز عصاه بعدها ولا كانت له حاجة إليها ، إذ سقط المكان بمن فيه فى صمت تضخم فيه وقع خطى الجلواز وهو يمشى فى اتجاه المنصة على مهل ، فى يده العصا الخيزرانية المجزعة وعلى رأسه قاووق الوظيفة وفى ملامح وجهه الصارم كبرياء إله مختصر ، وكان الصمت والخوف وتوضحت حدود الأدب . . . .

والكل فى انتظار الحركة العصبية التى تنفض جسم الحاجب عندما **يستشعر** خطو القاضى من وراء الباب ، وفى نفس الحانوتى مع الرحمة بشيخوخة السقاء الأحدب إشفاق على مصير صاحبه عيسى الذى لعبت بعقله امرأة . .

والكيس المزرور على بعض أنصاف الدراهم وأرباعها انتقل فى السكون المعبدى من حزام المكارى المتهم باستغفال الزبائن إلى جيب الشاطر الذى تشق خده الأيمن ندبة من أثر طعنة سكين قديمة ، وتشق زفراته الخافتة سكينة الصمت :

الطف بعبيدك يارب ! . . الناس تأكل بعضها !! . .

وانتفض الحاجب فجأة وزعق زعقته التى تمهد لظهور القاضى بموجة من رهبة تسرى فى الأوصال ، وظهرت العمامة الكبيرة فى وقار ، وعبق السكون بآيات سورة الكرسى التى تناقلتها الشفاه المطبقة كالسر الروحى ، إلى أن استوت العمامة على الكرسى وألقت فى بحر السكون بمجداف الحركة :

ــ همتك يا شنودة **فأنا** لا أحب أن تفوتنى صلاة الظهر ! . . هل أحضر الأعوان جميع المتهمين والشهود أم الحال المائل يا شنودة طول عمره مائل ؟

وبدأ الترتيل بصوت شنوده الغنائى وتدافعت الأسماء وصيحات إثبات الحضور ، حتى هز الغضب العمامة الكبيرة عندما تبينت أن أحد المتهمين غير موجود فى المجلس ، ونادت العمامة الكبيرة رئيس الأعوان وأوقفته أمامها ومالت عليه تستجوبه :

ــ ايش تقول ؟ . . طفش ؟ . . يعنى عجزتم وبؤتم بخسران مبين ؟ هرب منكم المكفتاتى اللئيم الغشاش ؟

أرهف أيوب وعمر سمعهما لكلام القاضى عن صديقهما المختفى ، ومال صانع النعوش على أذن الحانوتى :

ــ نطق ابن خربة الذمة بالحكم على عيسى من قبل أن ينظر قضيته ! وظلت عين الحانوتى على القاضى وهو يهز رأسه فى أسى :

ــ والله ما غشاش إلا عمتك !

وطوح الجلواز بعصاه الأفعوانية فى الهواء فكان لها أزيز خاطف فوق الرءوس :

ـ سكوت ! سكوت !

وغمت نفس أيوب الذى يعلم براءة صاحبه .. إن عيسى صادق فى قوله ، وكان على حق فى اختفائه .. لم يغش الفضة التى استخدمها فى عملية تكفيت الصينية .. والحكاية فيها لعبة والدعوى كيدية من جانب الست ، الله يلعنها .. حرم نائب كاتم سر ديوان الإنشاء ، الله يلعنه .. لكن عيسى بحمد الله فى أمان ولن يلقى به مع وطاويط السجن وقبائحه وذله ، ولن يجلد أمام الناس حتى يصوت كالنساء ، ولن يزفه المنادون وهو على حمار التشهير والتجريس ... زوجة نائب كاتم السر لعبية وكاتم السر غبى ، أما عيسى فلا يمكن أن يغش أحداً فى الفضة !.. كبرياء صنعته الجميلة المتوارثة تمنعه من الغش فيها ، لكنه يسقط فى الحب مثل الرطل .. هو حقاً فى قوة الثور لكن قلبه فيما عدا صبابات العشق شريف وأبيض من اللبن الحليب .. وهذه العمامة لن تنصف عيسى لأنها تهضم الزلط ، وأصحاب الدعوى من عتاة اللصوص وعندهم زلط سهل الهضم . مسكين يا عيسى ياإخى .. ومال على صديقه همسة حازمة :

ـ **لن يرتاح قلبى قبل أن يفلت عيسى من القاهرة !**

(٩)

باب الزاوية عند العمق المسدود لزقاق الناصورى لا يفتح إلا بإذن من بهلول حليق الرأس لا تستر **مرقعتة** الصوفية القصيرة غلظ لحمه ، مهزار طروب :

ـ اطلبوا الصدقة من الباب المجاور عند الفاسد ابن الفاسد الحاج سليمان ، لأن العيش والملح خلص من عندنا !

ضحك الصديقان لأول مرة منذ تركا دار القضاء وتفتحت نفساهما لمن صحت له مقامات الولاية ، وقال له عمر من خلال الباب الموارب :

ـ يا سيدى الدرويش ! هذا أول وقوف لنا ببابكم ، والضيف لديكم لا يضام .. ونحن محاسيب الشيخة زليخة ولنا عندها كلام !

والمجذوب يضحك فى مرح صبيانى مطلق وهو يصفق بيديه :

ـ يا ميتا يحمل موتى !.. يا ميتاً يحمل موتى !..

ـ أنا فى عرضك يا سيدى الدرويش ! أين الشيخة زليخة ؟

ـ **رح لها من باب النسوان**

وانفجر البهلول فى وجه أيوب بضحك طفولى :

ـ هل محاسيب زليخة كلهم موتى يحملون موتى ؟

ـ يا سيدى الدرويش ! نكلم الشيخة كلمتين !

والضحكة الطلقة التى تسد الباب جلجلت فجأة كالنبع الفوار :

ـ تعالى يا زليخة كلمى المحاسيب حملة الأخبار !.. يعنى الجدع ستدخلونه الجنة ؟!.. هنا سجن وهناك سجن .. الأحسن له أن تتركوه هنا فى سرداب زليخة !.. محاسيبك يا زليخة **بالباب**، يا زليخة نظرة !..

وما لبث الباب أن انفرج وظهرت رأس العجوز المحلوقة بالموسى واليد حاملة المقرعة :

ـ سلام مجاذيب يا جدع !

وقبلت العجوز كتفى الرجلين قبل أن تقودهما فى حوش الزاوية الداخلى خلال جماعات من حليقى الرءوس حملة مرقعات الصوف ، وإذا بصوت يلقى السلام الذى طلبته الشيخة :

ـ ما عليه شيء يا حضرة القاضي ! ما عليه شيء !

ومثل بهلول الباب كانوا خفافاً كالمعتوهين فى مرقعاتهم التى تختفى فيها معالم الرجل والمرأة وتنبههم ، عفويين عند الحركة والكلام . .

وصوت آخر عارف بالهدف الذى يسعى إليه ضيفاً زليخة حياهما فى تهليلة :

ـ الوقوف المحبوس على زاويتنا سخى ، والفقر بعد ذلك شعار الصالحين ، فاذا لم يرغب صاحبكم فيما جئتم من أجله حلقنا له وحفظناه هنا فى عيوننا . .

كان قلباهما يخفقان بعنف موجع ، عمر وأيوب ، عندما فتح باب فى أقصى سرداب ، فى حمى زليخة ، وظهر فيه عيسى بوجهه الذكى اللهفة وقامته الشامخة :

ـ الحكم فى عيونكما ناطق والحمد لله . !

وانفجر الرجال الثلاثة ضاحكين فى العتمة العطنة ، ثم دخلوا الحجرة الأرضية الصغيرة وتجمعوا على الخشبة البالية المطروحة فوق حصيرة ، وقامت الشيخة بين أيديهم بالمقرعة على كتفها فى وقفة انتباه ، وأصوات الدراويش تقتحم عليهم فرجة الحائط العليا كأنها رميات هينة برشاش ماء منعش :

ـ احلقها يا عيسى ! . .

ـ أقول لك لن يحلقها . . عيسى سيشرق ويغرب ويلعق الدم ويسف التراب . . عيسى أمامه جهاد !

ـ احلقها يا عيسى ! . .

ـ أقول لكم الحق أن عيسى أحسن عند الله بشعره فى رأسه ! . .

وزأرت زليخة كى تسكت بهاليل الحوش :

ـ تأدب يا متطرف والزم حدودك !

سكتت الأصوات ، وقال عمر فى هدوء وهو يأخذ كتفى عيسى المتينتين بين يديه :

ـ أريد منك أن تقسم أمامنا الآن أنك لن تقع بعد اليوم فى غضب امرأة تطاردك بنقمتها بعد إعراضك عنها ، وأنك ستتزوج فى حياتك الجديدة وتغض بصرك عن نساء الغير !

قال عيسى وهو يغالب الضحك :

ـ أتزوج إن وجدت فى ميت جهينة هذه التى تتكلمون عنها امرأة تناسبنى ، من السمان البيض ! . .

رفعت الشيخة مقرعتها فوق رأسه فى حركة عنيفة أخافته ، ووضع أيوب يده على كتفه :

ـ الفلاحين ؟ . . لم يعد عندهم شيء سمين . . لا المرأة ولا البهيمة . . اسألنى فأنا أزور بلد زوجتى كل سنة مرة . . الجلد على العظم والعود يابس . . لكن فى نسوة ميت جهينة وكل تلك المنطقة فى قلب الجيزة حلاوة لا يبددها العمر ، وخالتك ست الكل من بناتها ، وأظن أنها تعتبر حلوة ؟ . . هل تحب أن أقول لها إنك تجدها محرومة من كل حلاوة ؟ . .

خلاص ! . . أتزوج بنتاً من قريباتها وأسمنها أنا بمعرفتى ! . .

لم يعد فى نفوسهم حزن ، وتحت المقرعة المرفوعة فوق رؤوسهم ردت اليهم الطمأنينة ، ووسع عمر بعد قليل أن يعلن الحكم :

عليك يا أخ أن تختار : إما أن تدفن نفسك فى ميت جهينة وتتزوج ناشفة من نسائها وتنسى كل شيء عن الفضة والنحاس والتكفيت والفن ، وإما أن تدفع فرق ثمن الفضة لكاتم سر الديوان وتسلم بدنك وروحك وكرامتك لأربعين جلدة بالسوط أمام بيت القاضى . . .

قال أيوب وهو يطوق كتفى صديقه بذراعه :

ـ المهم هو أن تعيش . . ألا تخلو منك حياتنا . . .

وأطرق عيسى لحظة قبل أن يتكلم فى بطء كأنه ينتزع الكلمات من غور سحيق فى وجدانه :

إن شئتم الحقيقة فإنى لا أستطيع أن أتصور حياتى فى قرية . . أصابعى ستجن عندما لا تجد نحاساً ولا فضة وتعرف أنها لن تشتغل بالتطعيم الجميل مرة أخرى . . أنا لا أصلح فلاحاً . . ولا درويشاً . . ومع ذلك لابد مما ليس منه بد ، وسأحاول أن يكون عندى لحم طرى ودقيق أبيض عندما تشرفوا كفرنا بالزيارة ! . .

ضحكت زليخة ضحكاً كالعواء وهى تنتفض كما لو كان فى لحم ظهرها لسعة سوط جبار ، ثم قالت دون أن تخفض مقرعتها التى احتفظت بثباتها فوق رؤوسهم فى وضع انجذابى عنيد :

ـ إن شئت الحقيقة فإن وليمة الفلاح التى لا ينالها كل يوم هى الجبن القريش والبصل ورغيف الشعير . . والكرباج من وراء ذلك محيط ، كما تحيط بكم الآن مقرعتى . . لكن هناك فى انتظارك الكلمة الطيبة والأرض البراح ونسمة الهواء والمكتوب على الجبين . . انتظرنى آتيك بمرقعة سترت قبلك عوزات عدد من فقراء الله ، وأزودك قبل رحيلك بضربة مباركة على مؤخرتك الكبيرة من مقرعتى ، لعل وجعها يكون معك يوم تنصب قامتك فى وجه الباطل وتكون رجلا ! وتركتهم حاملة المقرعة لصمت عميق لزمهم إلى ما بعد دخول عيسى فى مرقعة وسخة تفوح منها رائحة زنخة مغثية ، وظل معهم فى خروجهم حتى حطمه بهلول الباب الطروب :

ـ العيش والملح خلص من عندنا والموتى يحملون الموتى ! . . نظرة يا ستى

زليخة ! . . سلام مجاذيب يا جدع ! . . سلام مجاذيب ! . . سلام ! . . . . سلام ! . . . .

(١٠)

على وجه النيل أسرجة موقدة من قشور بيض عائمة تشتعل فيها فتايل بالزيت وتجوس خلال أضوائها المرتعشة مراكب مزينة بالألوان والخوص والأزهار وعامرة بالرجال والنساء والمناقد والجوز والشيش والدفوف والصاجات والطبول ، وخليج الزعفران يملأ ليل القاهرة صخباً وأنواراً منذ افتتح واليها « بظلم » المهرجان الكبير تحية لشفاء السلطان بلباى من الوعكة التى دهمته قبل أن يملأ الأريكة شهراً ، والموج الهادىء عاجز عن ابتلاع الزغاريد والضحكات والأغانى ودفنها على طمى القاع .

ـ يارب اكتب لهما السلامة ! . .

وكان أيوب وعمر ينفضان هموم النهار على عتبة الغيبوبة فى قارب صغير يعانى بحاره المسطول فى السيطرة على شراعه ويسهر على جمرات موقدة غلام خفيف الحركة وثاب المهارشة كأن فى فمه سبعة ألسن ، عندما قطعت الطريق سفينة يضرب الهواء فى أشرعتها الكبيرة وعليها قطيع جن جنونه بعربدة الموسيقى والأنفاس والكئوس والليل الحر ، وامرأة فى قلب جمعهم السعيد على ردفيها حزام عريض من الشاهى الأخضر ، منكوشة الشعر فى رقصة عفريتية وهى بقميص أبيض تلعب به نسمات النيل ، لوحت بيدها للقارب الصغير البليد وصاحت بركابه صيحة منادية ضاعت فى عجيج السفينة العابرة . . وقال الغلام وهو يحك حزامه على قفطانه !

٢ ـ عزومة مراكبية ! . . . هل يترك عاقل المزاج الرائق ويندس فى مثل هذه الهيصة بين السكارى ونسوان الليل !

ـ ولا مزاج رائق إلا مزاجنا ! . .

قالها أيوب فى حزن ساخر وتنهد من أعماق بدنه المخدر ، وعاد يـدعو ربه :

ــ اكتب لهما فى كل خطوة سلامة ، عيسى ابن نفيسة ويـوسف حبيب محسوبتك زليخة !

وبجهد شديد اعتدل عمر المسطول فى ضجعته المتعبة على دكة القارب الخشبية ، وتمطى :

ــ تطلع عليهما شمس الغد إن شاء الله وهما عند أخوال الست جماعتك فى ميت جهينة . . المهم هو أن يوفق الله يوسف الصغير إلى شط الأمان ، ولكل ظلم نهاية !

ــ بودى أن أصدقك ! . . .

مصمص الولد بشفتيه وهو يدنو منهما بغابة الجوزة فى خلاعة :

ــ صدقه واستريحا ! . . للهم ساعته يا أهل مصر وللحظ ساعتـه ! . . نحن هنا ! . . .

فتلقى قفاه وهو راكع صفعة بكامل الكف من يد مدربة على تناول الأقفية حية وميتة ، وزجره الحانوتى :

ــ قلت لك يا سى محرم من أول دقيقة إننا من أهل الأنفاس وحدها ، ملعون أبو خالتك !

ومن صانع النعوش جاءت قفاه الصفعة الثانية :

ــ أصدق ماذا يا ابن الرفضى !

دفس الولد رقبته بين كتفيه وتضاحك قائلا :

ــ إن للظلم نهاية كما يقول المعلم !

ضحك صانع النعوش فى وجه صاحبه :

ــ يريد ابن المائعة أن أصدق نغزات الحشيش فى مخك يا عمر ! . . يريد أن أكذب أصابع الدنيا المغروسة فى عيوننا !

وارتطم القارب فجأة بجنب آخر تعلوه أيضاً فى تسكعه الهائم على الماء سحـابة من دخـان عطر ، وصـاح من الجانب الآخـر صوت يـرجف منه الغضب :

ــ الأعمى يحاسب . .

فارتدت الكلمة فى الحال بزمجرة ليث يتأهب للوثوب ، إذ صاح الحانوتى وقد عدلته صدمة القاربين :

ــ طويل اللسان يختشى ! . .

والزورقان يتعانقان فى رقصة على موج النيل رتيبة ، وشعل الأسرجة تخبو وتنذر ، وأصداء الدفوف تتلاشى هاوية إلى طمى القـاع المتراكم مفسحة الطريق لصوت الحماقة :

ــ إخرس يا قليل الأدب ! . .

ــ الزم حدودك يا ولد ! . .

ــ وفى القارب الآخر ظهر شاب طويل القامة يجاهد للثبات فى وقفته المترنحة مع حركة الزورق كـراقص مخبول مضحـك الأداء ، وتكلف على افتضاح سكره وقار أهل الأدب عندما نهض له قفطان الحانوتى وغمزه بصوت من أعماق المنخرين قبل أن يفرد له ذراعيه على وسعهما فى دهشة راضية :

يا ابن القديمة ــ أهو أنت ؟!

والتفت عمر إلى أيوب المتوسد قاع القارب فى نعيم اللا مبالاة :

ــ هذه إحدى بنات الخنا مع خليل عريف الكتاب ! . . ولم يتحرك أيوب وهو يتنهد فى سأم :

ـ انظر لعل فى زاوية القارب إيضاً سيدنا فقيه الكتاب نفسه !

(١١)

خيول عربية فى فى سن الفتوة المتطاوسة تجرى فى فناء الاسطبل الداخلى فى سرعة رشيقة وهى غير مسرجة ، ومماليك فى سن البلوغ خفاف كالقرود يتدربون على الوثب إلى ظهورها والطواشى الذى يسعى بين يدى مولاه إلى شرفة مطلة على درس الفروسية يبرطم فى زمجرة ناعمة الجرس كأنها نهنهات امرأة تتشكى :

الولد مراد يا سيدى الوالى ! . . غضبان وممتنع عن الأكل وعن الركوب وعن درس القرآن

وقف «بظلم» عند سور الشرفة يتأمل فتيانه المرد النشيطين كالديوك وهم يتلقون درس الحرب :

ـ آه يا سيدى الوالى . . هو بعينه أبو شامة . . كاد يضرب الفقيه المسكين عندما سأله عن عبس وتولى .

ترنح «بظلم» فى طرب وشاعت الابتسامة فى دمامة وجهه :

ـ وما سبب غضبه يا إيهاب أغا ؟

ـ ماذا أقول يا سيدى الوالى . . دلع ! . . إنى من ساعة ما وضعتنى ثقتك مقدماً على طباق مماليكك ومسئولا عن تربيتهم لم أجد دلعاً مثل دلع مراد هذا !

التمعت عين بظلم الواحدة :

ـ اسمع يا إيهاب أغا ! . . للأولاد دلعهم مثل البنات تماماً ! وهم حتى فى هذه السن الصغيرة يحلمون أحلاماً كبيرة . . كل واحد من هذه الديوك ينتظر اليوم الذى يصل فيه إلى مرتبة الإمارة . . كل واحد منهم يحلم بزمن قريب يغدو فيه سلطاناً مختصراً له مماليكه واسطبله وطباقه ومطامعه . . أو سلطانا حقيقياً له الأريكة والصنجق والقبة السلطانية . . وأنا فى نظرتى للمستقبل

أعتمد قبل كل شىء على هذا الحلم . . أين مراد الغضوب ؟

يئس الطواشى من المقاومة ، لكنه عنيد :

ـ محتجب فى العنبر بحجة أنه ما يزال محموماً . . كان مريضاً وشفى ، فلماذا لا ينزل مثل باقى الأولاد ويحضر الدروس ويتلحلح ! . . دلع فارغ

ـ خذنى إلى عنبره يا إيهاب أغا فإن للولد عندى ما يطيب خاطره ! برطم إيهاب أغا وهو يتحرك ممتثلا للأمر :

ـ بدلا من أن تلهفه كفين يصلحان مزاجه :

ـ لك فى مماليكى يد من حديد لكن مخك أيضاً حديد يا إيهاب أغا ! . . أنا لا أصفع مماليكى . . أنا أرشقهم بالورد وأرشهم بالعطر . . أنا أفيض عليهم الرغد . . داخل الطباق وخارجه . . وألمحهم بعين الرضى وهم يكبرون سنة بعد سنة ويتنقلون من دنانير الجمكية القليلة إلى الإقطاعات وإمرة الجنود ومراكز السلطة . . هذه الأرض لهم فلينتشروا فيها فإن لهم يوماً . . أريدهم فرساناً جبابرة لا علماء ولا رهبان ولا مجاذيب !

وكانا قد بلغا آخر ردهة طويلة عندما سمعا صوت المملوك الصغير المحتدم وهو يطرد شخصاً من العنبر . . اخرج يا شيخ نسناس ! . . اخرج قبل أن أمزق عليك مركوبى ! . . . لا أفهم عنك أصول الشريعة ولا أحكام الدين ولا أريد أن أرى وجهك أو يخاطب لسانك لسانى . . ثم إن رائحة فمك بصل ! . . دائماً بصل . . اذهب فعلم الآخرين كما تريد . . كما يريد مولانا الوالى . . أما أنا فلا أطيق وجهك ودمى يفور لسماع صوتك . . اخرج أو أخطف عمامتك يا أقرع !

عندما كان بظلم قد بلغ الباب وتلقى بيديه كتفى الفقيه المذعور المرتد بظهره فى هرولة وبسملة :

ـ كدت تفقد العمامة يا شيخ عباس ، كدت تفقد العمامة !

— مولانا الوالى ؟!
وانحنت العمامة التى لم تكد تنجو من أذى الولد :
— الولد شقى يا مولانا !
— شوف يا شيخ عباس !.. هناك فى الكتاب تضرب عيال الزعر ، أما هنا فالمعدن أنفس !

وتضرع الفقيه فى الحال وهو متضائل لصق الحائط :

— مفهوم يا مولانا الوالى .. مفهوم ... هذ صنف وذاك صنف وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات .. ومراد هذا ابن حلال .. فقط تركبه أحياناً جنونة البلوغ فيصير مثل الديك الشمورت المتعاقف .

وكلهم فى الحقيقة أولاد حلال ونعم الناس !...

التفت بظلم إلى مقدم مماليكه وهو يضحك :

— خذ الشيخ وأكرمه حتى أملص للولد أبى شامة أذنه الصغيرة وأعلمه الأدب ..
هرول الفقيه فى حمى الطواشى وهو يتمسح به :
— ربنا يزيدك من نعيمه يا إيهاب أغا يا مهاب !
ومن بين أسنانه برطم الطواشى دون أن يتنازل بالالتفات إلى المخلوق اللائذ بعظمته ، لكن الشيخ لم ينكسر نفاقه :

— ربنا يقدرنا على خدمة الناس الأكابر !...

فى اللحظة نفسها كانت أذن الولد أبى شامة فى اليد الحنون الملاطفة :
— غضبان يا مرادى ؟
خلص المملوك الصغير أذنه بحركة ناعمة من عنقه وأعرض بجانبه وقال فى دلال :

— وهل أنا أهمك !
— لن يطول غضبك على كل حال .. سوف أخرج من مقابلتى للسلطان اليوم بكل ما يرضيك ...

— لا يريضينى إلا أن تطرد لى ناظر المطبخ السلطانى نفسه ...

— سأسعى فى طرده فلا تغضب يا مراد .. أريد للابتسام أن يعود إلى حسن محياك .. واسمع كلام إيهاب أغا من أجل خاطرى أنا .. إنما أريدك فى المستقبل القريب فارساً مقاتلا وسيفاً بتاراً .. فى غد أريدك رجلا !
— وإذا رفض السلطان ؟.. ألا تقولون إنه مجنون ؟
— إنه لا يملك أن يرفض !

قال مراد الصغير فى مكايدة واستفزاز :
— لا يرفض إذا كان المتكلم هو الدوادار !

— إذا كان الدوادار يملك أذن السلطان وكان تمربغا هو صاحب القوة الضاربة فإن كلمتى أنا أيضاً لها وزنها ، فالقاهرة فى قبضتى والأمن فيها لعبتى !.. كل ما أريده منكم هو أن تثقوا بى وتطيعونى .. فهمت مرادى ؟

وقرصه فى خده من تحت الشامة .

(١٢)

أشار شيخ أمناء السلطنة إلى باب مغلق فى صدر بهو الاستقبال الكبير :

— هل لسيدى الوالى أن ينتظر فى هذه القاعة حتى أستأذن له فى الدخول ؟

قل له إنى لابد أن أراه فى الحال ، فالمسألة التى جئته من أجلها أخطر من أن يقال لى إنه مشغول ..

لم تتخل عن شيخ الأمناء سكينته الباردة :

ــ سيادة الوالى يعلم أنى أؤدى مهام وظيفتى بكل دقة . . أستأذن للدخول عليه فان سمح بالمقابلة مشيت أمام الزائر حتى أبلغ بـه عتبة السـرير . . والحقيقة أنه فى وعكة وعسر هضم ، لكنى سأقول له إنك فى عجلة من أمرك ، فانتظرنى قليلا . . تفضل .

وفتح شيخ الأمناء باب القاعة التى أشار إليها فاندفع من الداخل نشيج رجل ينوح فى حرقة . .

ــ ما هذا ؟

ألقى «بظلم» سؤاله فى دهشة وهو يتوقف عند الباب ملتفتاً إلى شيـخ الأمناء الذى شاعت فى وجهه الوقور ابتسامة هادئة وهو يقول :

هذا الأمير الجاشنكير وهذا حاله اليوم منذ صفعه مولانا السلطان !

دخل والى القاهرة ليجد أمامه فوق البساط جرماً هائلا من لحم رجراج أبيض فى عباءة من زركش ، وامتدت إليه كف سخنة كالرغيف فإطبقت على يده العجفاء التى غابت فى لحمها الطرى ، وطالعته دموع متالة فى غزارة على وجه مشرب بالحمرة فى حجم البطيخة الكبيرة :

ــ الحقنى يـا بـظلم ! . . خلصنى يـا زميـل ! . . ليت رتبــه الإمـارة لم تلحقنى ! . . ليتنى ظللت راعى خيل فى سهوب بلادى . . بل ليتنى يوم دخل زبانية الجلاب محلة قومى كنت حصاناً عليلا لا يختطف ولا يبـاع لينتهى به الحال إلى مثل هذه الوظيفة ! . . أنا واقع فى عرضك يا خشداشى فخلصنى تكسب فى ثوباً ! . .

كتم «بظلم» رغبته فى الضحك وحاول أن يكون صوته جاداً :

ــ ويل لك يا عتلم ! . . ما التقينا مرة إلا وجدت فيك على الأقل زيادة عشرين رطلا !

تماوجت كرة اللحم داخل العباءة وهى لا تكف عن الأنين ، فاستروح الأعور من ثنايا العباءة ريحاً عفناً . .

ــ ماذا أفعل يا زميل ! . . دبرنى ! . . لعل أمى التى لا أذكرها دعت على فى طفولتى فى لحظة كان باب السماء فيها مفتوحا ! . . دبرنى !

جلس « بظلم » على البساط فى ظل الجبل الطرى الباكى الذى تفوح منه موجات من رائحة مقززة :

ــ اهدأ يا عتلم ! . . اهدأ وقل لى لماذا صفعك المجنون ؟

ــ لا أعرف ! . . عنده مغص . . وهل أنا مسئول عن مصارينه ! . . ومن يسأل عن مصارينى أنا ؟
وتعلق كالأطفال بعباءة الوالى :

ــ المطبخ السلطانى كله يشتغل على معدتى . . تأمل هذا يا زميل ! . . كل هذا الوارد الهائل من اللحوم والخضر والحلوى والسمن والتوابل يطبخون هنا فى اليوم الواحد عشرة آلاف رطل من اللحم . . ويذبحون ألف دجاجة . . وهذا من صنف اللحم فقط . . أى معدة كمعدتى يا زميل ! . . إن لها وزيراً خاصاً هو ناظر المطبخ . . هو الوزير وأنا المعدة ! . . . أنا فى عرض فرج الله ناظر المطبخ وفى عرضك يا والى القاهرة يا قريباً من أذن السلطان ! . . .

لمح الغضب فى عين « بظلم » الواحدة :
ــ آه ! فرج الله ـ! . . إنه فعلا سبب حضورى اليوم . . وأنا أنوى أن أؤدبه أو أتسبب لـه ولسلطانـه فى فتن تـزعــج هضمهم ليـالى وأيــامـاً ! اطمئن ! . . .

مسح الجاشنكير دموعه فى كم العباءة .

ــ إنى أحسدكم على راحتكم ونعيمكم . . كلكم . . احمد ربك لأنك لم

تقع عليك إرادة الله لتكون جاشنكير السلطان . . ما عليك إلا أن تسيطر على القاهرة ! . . ما أسهل هذا ! . . يطوف لك الأعوان والجند بالدروب والأسواق والأبواب ويتصيدون لك اللصوص والعابثين وأعداء السلطنة . . ثم تأوى إلى نوم هنىء بعد لقمة تتعاطاها آمنا مستطعماً وتهضمها بالهناء والشفاء ! . .

ــ لا تهزأ بى ! . . .

ــ أيشكو عاقل من خمر الملوك المعتقة والمأكل الفاخر السلطانى ؟

ــ لا تهزأ بمصيبتى فأنا قرفان . . قرفان من الأكل السلطانى . . هل تفهم يا زميل معنى أن أربعة من السلاطين تبدلوا على ، كل سلطان بمزاجه فى الأكل ؟ . . أنا مجبر طوال السنين على أن آكل ما يحب السلطان لا ما تريده معدتى أو تشتهيه نفسى . . . والموت فى كل لقمة . . هل هذه حياة ؟ . . أن تكون ملزماً بتذوق كل طعام وشراب قبل أن تمتد إليه يد السلطان بساعتين ؟ . . واليد أكولة والسلطان بطين وشره ! . . أن يكون عملك هو أن تأكل وتأكل وتسمن وتسمن ثم تموت بدلا من السلطان إذا كان قد دس له السم فى مشروب أو مأكول ؟ . . أن تعيش فى رعب . . فى دسم . . فى بطن ؟ !

طفح الاستمتاع على وجه «بظلم» بالرغم منه :

ــ وغيرك يشكو من قلة اللحم !

ــ لا تنطق بهذه الكلمة أمامى من فضلك وإحسانك ! . . لا تفقدنى صوابى !

قال « بظلم » وهو يبتعد عن رائحة الجاشنكير :

ــ لم تقل لماذا صفعك ابن المجنونة ؟

ــ وجع فى مصارينه ــ أنا لم يكن لى نفس للجدى المشوى . . كان عندى تلبك وتخمة ونفسى مسدودة . . نهشت من هنا هبرة ومن هناك هبرة . . على قد نفسى . . والجدى كله فى بطنه ، فما ذنبى ؟ . صفعنى وهددنى بالتعذيب حتى أعترف بشركائى . . أنا مالى شركاء فخلصنى من هذه المصيبة . . « قل له » يعفينى من الوظيفة ! . . أشتغل فى أى عمل آخر أو أنزوى للأبد فى جامع أو أموت فالموت أرحم ! . . أى شىء إلا هذا العذاب ! . .

وفتحت القاعة عند ذاك وظهر شيخ الأمناء بالباب :

ــ الوالى يتفل للتشرف بمقابلة مولانا السلطان .

تثبت عتلم بطرف عباءة « بظلم » ودموعه ما تزال تغسل لحم وجهه الغليظ :

ــ « قل له » يا زميل ! . . لينقلنى إلى أى عمل آخر يعجبه . . إلى إدارة فرقة الراقصات السلطانية إن شاء وتفضل . . أى شىء إلا الجديان المشوية على ريق النوم والحمام المحشى ! .

(١٣)

كانت المباخر تنفث فى الإيوان شذاها وعلى البساط الشيرازى الأحمر أمام سرير الملك سجد « بظلم » خضوعاً لمراسم الاستقبال وقبل الأرض وقبل الأرض ، بعد أن سجلت عينه اللماحة جلسة « الأستادار » المنكمشة على الدرجة السفلى لذلك المنبر الرخامى المغطى بالمخمل الأخضر ، وضجعة السلطان على السرير وبطنه بين راحتيه . . ثم انسحب شيخ الأمناء متراجعاً بظهره ، على حين أشار « بلباى » إلى الدرجة الثانية من درجات منبره ، فاعتدل « بظلم » متناسياً الألم الذى عصف بأمعائه عند حركة السجود واتخذ مجلسه وهو يصلح من وضع عمامته .

واختلس نظرة إلى بطن السلطان كما لو كان يتوقع أن يرى فيها الجدى المأكول ، لكن السلطان تلوى فجأة وتجشأ ملء الإيوان .

وقال « الأستادار » فى ذلة مرتعدة :
ــ صحة وعافية !
فكانت الكلمة التى أطلقت براكين الغضب السلطانى :

ــ اخرس يا ولد !.. لا تسمعنى صوتك أبداً .. هى غلطتى أنا .. لم أحسن اختيار الأستادار القادر على إدارة شئون البيوت السلطانية .. الغلمان يسرقون الطبيخ .. والجاشنكير لا يتذوق الجدى .. آه يا بطنى .. واللحم إن لم يكن مسموماً فهو مشموم !.. قسماً بالله العظيم يا أستادار الكلب لأوسطنك بالسيف نظير إهمالك فى فحص الجدى !..

عندها انبطح الأستادار على الأرض وهو يبكى مستغفراً :
ــ أنا أستحق أن توسطنى لكن رحمتك تشمل عبدك !
تجشأ السلطان ورفس برجله فى غضب :
ــ ناحت عليه أمه من اشتراك صبياً بدينار واحد !

تلفت الأستادار بركن وجهه وهو منبطح تحت المنبر وتوسل إلى والى القاهرة الذى لم يفتح فمه منذ دخل فى انتظار إذن السلطان له بالكلام :

ــ الشفاعة يا زميل !.. والله ما دخل الغلمان بالجدى على مولانا إلا بعد أن ذاقه الجاشنكير بمعرفتى وبحضور ناظر المطبخ واستطابه واستظرفه ورضى عنه وهضمه !

لكن السلطان زأر فى وجه الوالى قبل أن ينطق حرفاً :

ــ شفاعة غير مقبولة لأن إدارته للبيوت السلطانية تستحق التوسيط بالسيف بدون إمهال .. وإذا كان الحال كذلك فى المطبخ فلابد أن الحال فى سائر الخانات لا يسر القلب .. أشربتى وأدويتى نهبٌ مباح للجميع .. نصف الطشوت والأباريق على الأقل بيعت فى سوق النحاسين .. الأبسطة تأكلها

الفيران . آه يا بطنى .. لعله يتستر على من يدس لى السموم فى مأكولى .. يريدون الأريكة قبل أن أمسها أربعين ليلة !..

وجد بظلم فرصته فلم يفلتها :
ــ إن أذن لى مولاى فى الكلام فهو يضرب السرج ويخضى عن الحمار ، ولا مؤاخذة !

ــ أى حمار ؟

ـ ناظر المطبخ !

ــ فرج الله ؟.. إنه فوق علمه بالأسمطة الملوكية خير من يفهم فى البهارات !.. ماله فرج الله ؟

ــ هذا صحيح يا مولاى .. لكن فى يده عهدة المطبخ وحدها ، بينما يقوم الأستادار بمسئولية البيوت السلطانية كلها ، كان الله فى عونه . والمغص السلطانى فى الحقيقة هو ذنبه لا ذنب الأستادار أو الجاشنكير المسكين الذى يبكى بعد صفعة مولانا السلطان الأفخم .
تفكر بلباى برهة قبل أن يتفتق ذهنه عن رأى :

ــ لكنى لا أستطيع أن أذبح ناظر المطبخ الذى يعجبنى ذوقه فى انتقاء البهارات وتوليفها وسبكها !

قال بظلم وكأن الرد جاهز :

ــ فى الإمكان تأديبه بغير الذبح يا مولاى ، فلتأذن باديء الأمر لعبدك الأستادار أن ينهض ويقبل طرف ردائك ويخرج حامداً آمناً ، ثم نبحث مسألة ناظر المطبخ الذى ما طلبت الإذن الشريف اليوم إلا بسبب ظلمه وغبائه !

كانت كلماته الهادئة كافية لبزوغ العفو السلطانى ، فقبل الأستادار الأرض وطرف العباءة السلطانية وكتف الوالى ، وعندما سقط مرتين على

مؤخرته وهو يتراجع ناجياً برقبته أشرقت أسارير بلباى بالضحك وهو يعتدل داعكاً بطنه بيديه :

— ما ألذها ساعة عندما ترى أمامك رجلا خائفاً على عنقه ! . . إنى أحب مثل هذه الساعة !

واختصر بظلم بحركة طبيعية درجتين من درجات المنبر وهو يقوم بدور المستشار :

— ناظر المطبخ أولى فى الحقيقة بهذا الخوف يا مولاى !
— أما أنا فلا أخاف شيئاً خوفى من السموم ، أليس كذلك يا سيد العارفين ؟

— كفانا الله شرها يا مولاى ! ومن أين لى أن أعرف ؟

ورشق فى وجه السلطان عينه الثعبانية اليقظة . . حتى هذا الغبى يريد أن يتظاهر بالذكاء والمعرفة . . حتى هذه الألعوبة المضحكة التى يحركها الدوادار المستخفى وراء العرش تريد أن تستعرض استخباراتها . . ويا عجباً للعرش نفسه كيف احتمله أربعين يوماً وليلة ! . . .

— لم تره فى حياتك ؟ لم تمسكه فى يدك ؟ لم تذقه بطرف لسانك ؟ لم تقصد به أحداً ولم يقصدك به أحد ؟ لا تعرف السم يا بظلم ؟

— إنما يعرفه أمثال فرج الله . . . وخوفى على حياتكم يلزمنى أن **أنبة** مولانا إلى ضرورة نزعه من مكانه فى نظارة المطبخ . . حياة مولانا هى كنز الأمة !

ولحظت نظرته الذكية اضطراب بلباى وهروب الدم من وجهه فلا بد من إخافة هذا العتل المخبول على عمره حتى يطير فرج الله من المطبخ السلطانى ويرضى مراد عن أستاذه ويحملها الأستادار جميلا يطوق عنقه ومعروفاً يجدد موقفه فى الغد القريب عند درجات هذا المنبر الذى ينتظر السيد الحقيقى ليزينه

ويملأه ويشتار عسله ويحلب لبنه ويغوص فى زبدته . . .

— ومن أين لى بعده علم كعلمه بفنون **البهار** ؟ !
— ومن أين لنا سلطان مثلك لو نفذ سهم القضاء لا قدر الله ؟
— أنت معى يا بظلم ؟

وامتدت يد السلطان البضة إلى يد الوالى المعروقة فأطبقت عليها إطباق المخلب القانص على اللحم السهل :

— ألا يعلم مولاى أن أعداءه كلما أشعلوها فتنة أطفأتها ، وانى أقبض لك على أم البلاد بيد متينة ؟
— معى ؟ دائماً معى ؟
— ما خاب من استشار ! . . . ورأيى فى موضوع الجدى هو أن يسجن فرج الله عقاباً له على تستره على من كان سبباً فى المغص السلطانى . . ولو سألنى فى كبير الأمور وصغيرها ما ضننت عليك بالرأى لكنك تتباعد عنى يا مولاى !

هبط بلباى عن مخمل السرير حتى صار جالساً لصق بظلم على درجة المنبر العليا :

— اسمع يا بظلم ! . . إن كان لنا عمر فأنت نائب السلطنة . . سأعينك نائب حضرة لا نائب غيبة . . ستكون وكيلى وساعدى الأيمن ويسميك الناس السلطان الثانى . . وتأمل فخامة اللقب نفسه : « كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الآمرى » ! . . فقط لا تذكر هذا الآن لأحد . . وماخاب من كتم سره !

وطاب الحديث فاستراحت يد الوالى أثناء الكلام على مخمل السرير السلطانى ، وكان قلبه مليئاً بالارتياح وهو يخرج إلى البهو ليجد الدوادار واقفاً مع شيخ الأمناء وبينهما همس . . .

وتصافح الأميران وقال الدوادار لوالى القاهرة :

ــ هل قضيت حاجة الأمير ؟

ــ نعم ! . . لى مملوك نقله ناظر المطبخ من باب اللحم إلى باب المرق ، وقد تفضل مولانا السلطان فأمر أن يعاد إليه راتبه اليومى وينقل اسمه من باب المرق إلى باب اللحم !

قال الدوادار مخفياً إحساسه بأن الوالى يختزن أسرار المقابلة :

ــ كنا نحب أن نقوم بأى خدمة !

ــ نحن ندخرك لكبار الأمور يا خيربك ، وعاشت الهمم !

ــ وما أن حيا وابتعد حتى التفت الدوادار إلى شيخ الأمناء :

ــ باذنك يا صاحبى ! . . لابد لى فى الحال من أن أدخل على ابن المجنونة وأنقب فى مخه مستخرجاً سر هذه الخلوة مع ابن العوراء !

(١٤)

مرت لحظة وجيزة بعد صلاة العصر ثم تحسست عصا الأعمى باب المقهى فنهض له فى الحال عبد الجليل السقاء وفى خياشيمه دخان الجوزة :

ــ يا مرحباً بسيد الشعراء !

وأشرق وجه الأعمى بالطمأنينة وهو يسلم خطواته القليلة داخل المقهى لليد الصديقة التى أمسكت ذراعه فى رفق وألفة ، وقال بصوت عاتب :

ــ فرغت للجوزة يا عبد الجليل وتركت القربة فارغة ؟

ضغطت أصابع عبد الجليل ذراع الأعمى النحيلة وهو يضحك فى خجل :

ــ اشتغلت من الفجر للضحى يا شيخ حمدان . . وعندى وجع فى جنبى

والقربة ثقيلة . . وفى الجيب دراهم ونحمد الله !

فارتفعت من ركن النصبة ضحكة همجية :

ــ هع ! . . كالعادة ! . . وتخلص الدراهم فيخف وجع الجنب ويلفع القربة مثل القرد ! . .

لم يرد عبد الجليل على رذالة جعران المكارى حتى تمكن الشاعر الأعمى من دكته وأراح ربابته على ركبته ودعا له بالهداية والستر ، ثم تظاهر بتوجيه الكلام إلى صاحب المقهى نفسه :

ــ رص يا معلم زين الدين ولا تجعل بالك مع الحمير !

شخشخ صدر المعلم وهو يضحك ويلفظ بلغمه على الأرض ويدهسه بنعله :

والله تستاهل يا جعران ! . . مسحوب من لسانك مع أنك متسلطن هنا طول النهار مثل حمار أم الخير الذى من تعبه وشقاه تأكلان أنت وهى . . والحمار مثلك يقضى يومه متسلطنا فى تراب الحارة وهو أكسل من أن يهش الذباب عن دبره . . يا رجل حسس على البطحة التى فى رأسك !

لم يفقد المكارى حماسته الخشنة للمناوشة :

ــ ما العمل يا جدعان إذا كان كل زبون أعرض عليه حمار أم الخير يقول لى يا عم هات لى سقاء أركبه أحسن ! هع !

جاءت الكلمة فى هذه المرة من دكة الشاعر :

ــ نخزى الشيطان ونصلى على الجميل . . اختشى يا جعران وتعلم أدب المجالس . . عندى الليلة يا سادة قصيدة جديدة فى مدح الكرام أهل الجمال ، إن شاء الله بعد القرفة !

وفى الخارج زام كافور كأنه يذكر صاحبه بمرضه الذى طرحه من طلوع

الشمس على تراب الحارة ، فقال زين الدين فى أسف ودون أن يجهز القرفة للشيخ حمدان :

ــ ما للكلب ولا مؤاخذة ؟ . . من صباحه ربنا وهو على هذا الحال ، وكل ساعة نكنس قيأه . . كان فى أول الليل مثل الأسد يا إخوان ! قال عبد الجليل وهو يدق بطرف الماشة هامة الجوزة المتوقدة :

ــ لعله مسموم يا معلم والعياذ بالله !

ــ هع ! إذا تكلمنا قالوا لنا اسكت يا جعران وتعلم الأدب ! . .

غضب المعلم فى هذه المرة من رذالة المكارى وصرخ فى وجهه وهو ينحى الجوزة عن متناوله :

ــ تكلم يا لوح !

ــ أقول لكم ما رأت عينى !

ــ يبدو أنك تعرف من فعل هذا بكلبى ؟

ــ وأنا راجع الليلة بحمار أم الخير وجدنا عند كوم الصنادقية رمة حمار وشفت السيد كافور من ضمن الناهشين . . هذا ما رآه اللوح يا معلمى !

أخذها المعلم من فم المكارى واندفع ليصب نقمته على الكلب الراقد على جنبه كالميت لولا لهاثه القليل :

ــ خيبة الله عليك ! . . كأنك لا تأكل معنا من زاد واحد ! . . مثلك مثل واحد من أولادى ! . . رمة يا ابن النتنة ! . . كنت قل لى على رطل لحم بينى وبينك وكنا دبرناها يا قليل الطهى ! . . والله لا أزعل عليك إن مت ! . .

وقال عبد الجليل وهو يصطنع تطويحة انجذاب من فرط سروره بالقفشة :

ــ داهية تلم الحمير وأصحابها ، الأحياء منهم والأموات !

ــ هع ! . . لن أتكلم . . مع أن كافور لم يكن وحده على الحمار الميت . . آه . . لا لن أقول . . رص يا معلم . . الكلام خسارة فيكم . . آه . . لن تعرفوا من كان يقطع من ذاك اللحم ويحجل فى الظلام بما حمل . . والله أنا كمان لا أزعل عليكم إن متم ! . . رص يا معلم قبل ما نموت !

وجاء صوت الشيخ حمدان من أعلى الدكة فى همسة شاحبة :

ــ افرجها يا كريم . . اشتدت فافرجها !

وارتجت الحارة فجأة بضجة عظيمة فهب من فى المقهى ليجدوا جمعاً شديد الجلبة تتكشف نواته عن ثورة جنونية مصدرها عريف الكتاب ، كامل الهيئة إلا من العمامة . . .

وعند باب المقهى رفع الشيخ خليل ذراعيه نحو السماء ورج المكان بصيحة هادرة :

ــ يا ناس ! . . خيول المماليك ترمح فى الشوارع ! . . ينهبون الدكاكين ويضحكون لرؤية الدم على أسنة سيوفهم ، إذا قاومهم أحد ! . . . يخطفون الغلمان ! . . ويخطفون العمائم ! . . . عمتى يا ناس ! . . خطفها المملوك ابن الهالكة الذى اقتحم تحت الربع بحصانه وهو مخمور . . خطفها ولعب بها ضاحكاً كما لو كان يمزق عرض المسلمين ! . . خطف عمامتى ! . . .

ــ المملوك مسلم مثلنا !

ــ اخرس يا جهول !

كان فظيعاً فى غضبته التى جمعت حوله مع أهل حاره الحمام كهولا ونساء وصبية غرباء عنها ، وانحسرت أكمام الجبة عن ذراعيه إلى قرابة إبطية وغسلت الدموع وجهه المنفعل وبللت لحيته الصغيرة :

— لو كانت المخطوفة زوجة واحد منكم لنفر فيكم عرق الغضب ، لكنها عمة الشيخ خليل ! . . نشترى له عمة جديدة ونتجعص فى الكراسى ونشد فى الجوزة وننام عن عربدة أولاد الحرام فى البلد . . لا . . أنا لن أقبل هذا بعد اليوم . . أنا وحدى بغير سلاح إلا غضبى أخفت اليوم مملوكاً بسيف وحصان وعنجهية ! . . قلت له هاتها يا ابن اللئيمة وشدته يدى من حزامه فجاءت به أمامى على الأرض . . ووقف تحت الربع كله يتفرج ! . . وما كان معى إلا غضبى ! . . غابت معالم الحارة فى الزحمة وارتفعت من مساحة الرءوس التى تملأ فراغ الحارة الضيق أصوات كثيرة تؤيد رواية العريف وتهلل له ، فامتدت يد المعلم زين الدين إلى أقرب كراسى المقهى وحايل الشيخ خليل حتى أقنعه بالجلوس فى مواجهة الشريط الآدمى المضغوط بين عطن الجدران المتقاربة :

— أعمل لك الفنجان السادة الذى يليق بالمروءة !

وزاحمت الناس امرأة مجذومة متآكلة الوجه يسندها عكاز قمىء حتى صارت إزاء صدر المقهى وزغدت الشحاذ العارى الذى زحم طريقها وتسلخ صوتها وهى تهتف :

— أنا شفتك يا حبة عينى ! شفتك وأنت تجبده من حزامه يا ولد ! أنا شفتك ولحظتك !

— وقف عبد الجليل وجعران وراء كرسى خليل فى صحوة موجعة . . هل هذا الكلام صحيح ؟ خليل ضرب المملوك ؟

وتماوجت أمامهما الرءوس والأصوات ، وخليل ينتفض فى الكرسى ووجهه فى وجوه الناس حتى جاءه السؤال من المعلم الذى انحنى له بالصينية :

— والمملوك لو عرضوك عليه يعرفك ؟

تفصد العرق على جبين خليل وهو يزأر وينتفض واقفاً فى احتجاج فظيع ، وشىء كالجنون المخيف برق فى نظرته الرافضة الهائلة :

— ماذا تقول يا معلم ! . . ومن يعرضنى عليه ؟! . . لن يمسكنى أحد . . هذا لن يحدث وأقسم على ذلك أمامكم كلكم ، من يعرفنى ومن لا يعرفنى . . وأين يعرضوننى عليه وهو ملك يدى ؟

لطم جعران خديه وهو يقول :

— يا نهارك الأسود يا عريف كتابنا ويا نهارنا الأسود كلنا ؟

لكن عبد الجليل زغده فى جنبه وهو ينحنى على صديقه المحتدم مطوقاً بذراعيه عنقه :

— كفى يا خليل . . لا تزد كلمة ! . . ربما كان نصف هؤلاء الذين تبعوك من تحت الربع إلى بركة الحبشى من البصاصين . . والقلوب متغيرة والطباع نافرة والنيات سيئة !

لكن المجذومة تحنجلت بوجهها المبهم فى وسط الناس :

— الله يبارك فيك لأمك ! . . أنا لحظتك يا فتى لما جبدته من فوق الحصان ولويت ذراعه وسقته أمامك إلى زقاق الناضورى !

— اخرسى يا مخبولة ! أنت ! . . .

فالتفت خليل إلى صديقه السقاء الذى أغضى ولم يحتمل نظرته :

— كلهم شافوا المملوك ويعرفون أنى تركت العمة على الأرض حيث سقطت من يده وأخذته هو بدلا عنها . . كلهم يعرفون . . ليس فيهم بصاص ولن يقول أحد إنه رآنى أدخل بالمملوك إلى زقاق الناضورى . . وإذا لم تصدق أنت فأنا مصدقهم ومطمئن . . تردد عبد الجليل لحظة قبل أن يغلبه قلقه :

— لكن . . ألا ينصرفوا عن الحارة ؟ . . أريد أن نتكلم ونرى لنا رأياً . . المسألة ستفوح رائحتها يا خليل ! . .

فجاء من ورائهما صوت من داخل المقهى تجاهد رقته للظهور على عجيج الحارة :

ـ أمامهم وقت قبل إغلاق باب الحارة ، فلنمدح لهم أهل الجمال ونسعدهم ونقول لهم بعدها مع السلامة !

لأول مرة أحس خليل ونفسه تجنح إلى الهدوء بعد الغليان برغبة الأعمى الشديدة فى ترتيل أشعاره بعد مرضه وغيبته الطويلة عن دكته ، فرفع صوته القوى داعياً الناس إلى الهدوء ، وعالجهم بصبر حازم حتى أسكتهم ليقول لهم وهو يتنحى بكرسيه إلى ركن الباب حتى يتجلى للناس مقام الشاعر :

ـ هس ! . . سمع ! . . سيدنا الشاعر !

(١٥)

فى الصباح كانت حارة الحمام قد استعادت هدوءها المألوف عندما تفجر الموقف مرة أخرى بظهور فتى هائج اقتحم مقهى زين الدين فى غضبة كاسحة :

ـ يا ناس ! . . أختى ! . . أختى ! . . يا عالم ! . . المماليك هاجموا النساء فى حمام الخيامية وخطفوا أختى عزة ! . . .
ماذا تقول يا خالد ؟!

وسقط فنجان القرفة من يد الشاعر وانبعث الأعمى واقفاً ويداه أمام وجهه مرتعدتان كما لو كان يبغى بهما عنقاً يقطعه ، فصرخ الفتى فى وجه المعلم زين الدين الذى سمرته قسوة المفاجأة فى مكانه وراء النصبة :

ـ أختى . . أختى يا معلم ! . . خطفها المملوك من الحمام ! . .

ألقى زين الدين بالماشة فى ركن الموقد وخرج له من وراء النصبة وأحاط كتفه بذراعيه :

ـ يا ولدى ما أكثر كلام الناس فى هذه الأيام التى سرح فيها المماليك فى الشوارع . . ربما كانت شائعة من أقاويل الناس . . من ساعة واحدة جاءنا على صباحة ربنا من يقول لنا إن مماليك نهبوا بيوت السكرية ثم ثبت لنا كذبه . . من قال لك هذا ؟

زأر الشاب وهو يضرب صدره بقبضة قوية ، فتقدم منه عبد الجليل وهو لا يدرى ما يقول :

ـ اهدأ يا خالد حتى نتبين الحقيقة !

نفرت العروق فى وجه خالد المتضرم وفى رقبته المتينة وهو يخلص نفسه من حضن صاحب المقهى :

ـ أهدأ ؟! . . تقولون لى اهدأ يا رجال وأختى البكر فى قبضة حيوان خسيس حملها من الحمام عارية ؟

والأعمى لا يزال واقفاً عند دكته ينتفض وهو يضرب كفاً بكف :

ـ من أين لك الخبر يا ولدى المسكين ؟

تفزرت الدموع فى عينى الشاب القوى الثائر :

ـ من أين لى الخبر . . من جماعة عم أيوب . . خالتى ست الكل كانت فى الحمام عندما دهمه أولاد الحرام ووسعها هى وبعض النسوان أن يهربن من باب الحمام الخلفى فى درب نعناعة . . آه ! لابد أن أشرب من دم أولاد الزنا ولابد من عزة سالمة العرض !

قال السقاء وهو يحمل إلى الفتى كوز الماء :

ـ قالت لك بعظمة لسانها إن المملوك خطف عزة ؟

ـ رأيت النسوان يمرقن فجأة فى فزع من أمام دكانى ولمحتنى خالتى ست الكل فلطمت وجهها وصاحت بى : أنت قاعد هنا تبيع كيزان الخروب

وأختك على حصان المملوك ؟ . . ما العمل ! ما العمل يا أخوان فى عرض عزة ؟

ـ عزة أختنا كلنا يا خالد ! . . .

ـ لابد أن أشرب دمهم ولابد من عزة سالمة العرض !

وتجاوبت أرض الحارة بوقع خطى كثيرة مقبلة وظهرت جماعة من أهل الخيامية يتقدمها الحاج عمر الحانوتى وصانع النعوش الذى قال من الفور وهو يقصد خالد فيحتضنه ويضمه فى صدره :

ـ الخبر صحيح يا جدعان ولابد من عمل شىء !

وارتفعت من خارج المقهى صيحة تتلمس الطريق إلى حل معقول :

ـ إلى الأزهر ، فلن يجىء لنا بعزة إلا المشايخ !

لكن خالد ملأ المكان بصرخاته الرهيبة :

ـ المشايخ ! . . إلى أن يتحرك منهم فرد شجاع تكون عزة قد أكلتها الذئاب لحماً ورمتها عظماً ! . . .

ـ وماذا أمامنا نفعله غير هذا يا ولدى ؟

ـ آه لو كنت أعرف أين ذهب بها ابن الكلب الهالك ! . .

اعتلى أيوب أحد الكراسى وحاول أن يتحكم فى المشاعر المحتدمة والرغبات المتعارضة :

ـ أنا أعرف الشيخ الامبابى الكبير ، فلنقصده لعل لشيبته قدراً عند بعض كبار القوم فيكون على يديه خلاص البنية . .

قال خالد وقبضته ما تزال تدق صدره العريض :

ـ أين نجده ، شيخك هذا !

ـ فى الأزهر يا خالد ، هلم بنا جميعاً ! . .

وخرجت هذه الجماعة الصغيرة من حارة الحمام فصارت تكبر فى كل خطوة وهى تخترق قلب البلد حتى بلغ تعدادها عند مشارف الأزهر أكثر من مائتى رجل وامرأة ، وكانت الشوارع والدروب تشغى بتكتلات هلامية من اللحم البشرى ولهجات شتى من الدلتا والصعيد وقد امتلأت على غير العادة بجموع من الرجال والنساء والأطفال والفلاحين العراة وأولادهم المتساقطين من الضعف ونسائهم المهزولات ، وكان الكثيرون من أولئك الوافدين قد عبروا النيل من بر الجيزة إلى أحياء القاهرة كانسين فى طريقهم ما يجدونه فى الطرقات من نفايات الدكاكين وقشور البطيخ وزبالة البيوت ، ومنجذبين بحركة هلامية إلى حى الأزهر . . وفى قلب الزحام الذى صارت له فى مسيرته ضجة عظيمة أمسك الحاج عمر بذراع صاحبه صانع النعوش وقال له فى صوت تقطر منه الحسرة .

بينى وبينك يا أيوب عزة راحت والعوض على الله !

تنهد أيوب فى زفرة موجعة :

ـ هل تعرف من كان على فكرى الآن ؟ . . عيسى المسكين . . كان مفتوناً بعزة ، وكان يقول لى إنه ينوى أن يتوب عن الخبص إذا رضى خالد أن يزوجه من أخته الجميلة . . آه ! ملعون أبو هذا الزمن !

ـ وانظر أين هما الآن ! . . عيسى مدفون بالحياة فى **مَرْقعة** المجاذيب وعزة يا حسرتى على عزة !

وسكت الصديقان والحشد الذى يحتويهما يدنو بهما من مآذن الأزهر ، وصورة واحدة تلوح لخيالها الهائم وراء الصبية الحلوة المخطوفة ، شبابها النضر الذى كان فتنة القلوب مهتوك العفاف مسفوح الدم عند وحش بهيم ، والصورة البشعة تلح على ذهن صانع النعوش وتجيش بها عواطفه :

ـ أتعرف يا حاج ؟ عندما عادت ست الكل من الحمام الأغبر ناجية بعرضها حمدت الله على هزالها وكل ما فعلته حياتنا الشقية بشبابها . . وهى على كل حال آخر مرة ترى فيها ست الكل حمام السوق ، وعندها فى البيت الطشت والكوز والكانون ، بـل أن لها إن شـاءت ألا تستحم بقية عمـرها بالمرة ! . .

وعادتْ حركة الزحام المتزايدة التى كانت قد فصلت بينهما وبين رفاق حارة الحمام فلفظت أمامهما فى موجة من موجاتها العفوية عبد الجليل وهو يسحب الشيخ حمدان من ذراعه ، فقال السقا عندما وجد فى رؤ يتهـما بعض راحة النفس المفقودة :

ـ احتـرسـا فى الكـلام فـان بعض هؤلاء الـذين انـدسـوا بيننـا من البصاصين ! وأضاف الشاعر الأعمى وهو يتخبط فى خطوه :

ـ أحدهم زغدنى الآن فى جنبى وصب الفزع فى قلبى عندما سمعته يقول لى : ويل للأعمى عندما يحمى له الخازوق النحاسى المعتبر فى حفـل كبير ويريحه عليه الجند راحة الأبد ! . . .

قال الحاج عمر وقد لاحت له قمة المأذنة :

ـ نصرك اللهم فقد طفح الكيل !

وقال الشاعر وهوَ يتعلق بذراع السقاء :

ـ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وإذا بصرخة جبارة كأنها رد على همسة السقاء وشكاية الأعمى وضراعة الحانوتى ، وظهر خالد الذى كان الزحام قد غيبه معتلياً مصطبة أمام باب مغلق وهو يرفس ظهر مخلوق ملوى الذراع فى قبضته القوية ، ووقعت عند صرختة المدوية لحظة من

هدوء نسبى توضح خلالها رنين صوته وهو يخاطب الجمـوع عارضـاً عليها مخلوقه العاوى من الألم :

ـ يأهل البلد ! . . أتعلمون ما قال لنا هذا البصاص الحقير الذى وقع فى أيدينا ؟

فجاوبت سؤ اله صيحة من مجذوب :

ـ اسمعوا يا جياع ويا عرايا ! . . اسمع يا بلد !

ـ قال البصاص إن الأعور والى القاهرة وراء هذه العصابة المملوكية التى تفترس منذ أيام أرزاقنا وأعراضنا ، وإن بعض مشايخنا الذين مسهم ذهبه قد أقفلوا أبواب الأزهر ومنعوا منه الصلوات بحجة الثورة على خفض الجراية فى رواق العميان ، ولن يسمعوا لكم قولا فماذا أنتم فاعلون ؟

هبت عاصفة من زئير ، وجأر مجـاذيب بـالـدعوات ، وبكى المشـوهون العرايا ، والعميان دقوا الأرض بالعكاكيز فى غضب ، والمجذومون الكثيرون ضربوا صدورهم المتآكلة بقطع الحجارة فى مرارة ، ومن بين الفلاحين الذين فى عيونهم لظى محموم ويأس متعلق بقمم المآذن التى انقطع منها التكبير بزغ فلاح طويل الشعر واللحية وصدره عار مشعر وفى يده بلطة صدئة ووثب إلى المصطبة :

أنا وأهلى لم نأكل منذ يوم الجمعة غير رمة جمل ميت قطعناها بهذه البلطة ونهشناها ، فأعطنى رقبة هذا الكلب فالموت بعدها سهل ! . . ومن أطراف الجمع تعالت صيحات منذرة :

ـ أعوان الوالى ! . . . أعوان الوالى ! . . .

(١٦)

على وجوه الرجال الثلاثة خفقات متراقصة من نور عليل تلقية فى حيز صغير من عتمة السرداب بقية شمعة فى فجوة الجدار ، ودموع أيوب تحاول أن تتوارى فى كم قفطانه :

ـ **يا ولداه** يا عمر ! . . يا والداه يا عبد الجليل ! . . من غير المعقول أن يكونا قد تحملا كل هذا الضرب الوحشى الذى انهال به عليهما أعوان الوالى !

لم يرد خالد الذى طواه يأسه فى صمت حزين ، فقال خليل وهو مطرق يتأمل أرض السرداب الرطبة :

ـ إن لم يكونا قد ماتا فى أيديهم فهما عما قليل ميتان فى جب السجن . . من يصدق أننا لن نرى بعد اليوم رجلنا الطيب الحاج عمر ولا عبد الجليل الشهم المرح الذى كانت ابتسامته بلسما لجراحنا . . أنا لا أصدق ! . . لا أصدق ! . .

وتكسرت فى صوت صانع النعوش نبرة حزينة :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل . . أتعرف يا خليل يا أخى ؟ . . أنا قلت للحاج ونحن نجرى لما كبسنا الجند تعال من وراء الجامع لكنه أصر على الفرار من جهة الصاغة التى قال إنه يعرف أزقتها كما يعرف جيوب قفطانه . . وما أن مرق بيننا الحصان ولسعنى الكرباج فى قفاى حتى لمحته تحت أقدام الزبانية قبل أن يفصل بيننا الهول . . وهل لك من بعد عشرته الحلوة طعم يا دنيا !

قال خليل وقلبه يتفطر أسى على صمت خالد المنكسر :

ـ كان عليكم أن تعملوا حساباً للبصاصين !

وتنهد أيوب فى حسرة :

ـ نعم ـ ما أحمق اندفاعتنا البلهاء . . هل حسبنا القاهرة ملكاً لنا ! . .

نحن مسئولون عن القبض على عمر وعبد الجليل والآخرين ، بل مسئولون عن مصرع شاعرنا حمدان . . يا حسرتا على الأعمى وهو يتخبط بين حوافر الخيل مستنزلا لعنة الله على الظالمين . . كيف سمحنا لأنفسنا أن نأخذه معنا ؟

وظهرت زليخة بالباب وفى يدها مقرعتها فنظرت فى ضيوفها الثلاثة ثم سعت نحو خالد فركعت أمامه وانحنت فى خشوع فقبلت يمناه المسترخية فوق ركبته فى يأس كأنها يد ميتة :

ـ يا ولداه يا ضنايا . . يا ولداه يا عزة ! . .

شهق خالد شهقة موجعة ، فتنهد من قلب مجروح :

ـ حكمتك يا رب ! . . الذى خطف عمامتى مدفون هنا فى أرض زليخة وخاطف عزة التى فداها ألف عمة طليق لا تبلغه أيدينا ! . . وطوق أيوب بذراعه عنق خالد عندما دفن الشاب وجهه فى يديه وهز البكاء جسمه القوى :

ـ كفى بكاءً يا ولدى ، ولا تفكر فلها مدبر !

غالب خالد شهقاته وهو يرفع وجهه المبلل بالدموع :

ـ هل ترى هذا ممكناً الآن يا عم أيوب ؟ لا أفكر ؟ لها مدبر ؟ كيف ؟

وغاص السرداب عند السؤال فى صمت عميق إلى أن عاد خالد يتكلم :

ـ لنعترف فى آخر هذا النهار الأسود أن عزة ضاعت !

حاول أيوب مرة أخرى أن يلطف من مرارة الحقيقة :

ـ لله عاقبة الأمور ، فلا تقل هذا الكلام يا ولدى . .

فتناول خالد بين يديه مقرعة المجذوبة . .

ـ وهل عندى كلام غير هذا أقوله ؟ . . ومع ذلك فإنى لا يهمنى الآن أن تكون عزة حية أو ميتة . . لا يهمنى ألا أراها بعد اليوم أو أن يعيدها إلى أحد خرقة مهلهلة . . عزة انتهت ولن أقول بعد اليوم إنه لابد لى من عزة . . اليوم لابد لى من شيء واحد هو الانتقام . . أليس هذا هو الحق يا شيختنا ؟

قبلت زليخة رأسه وهى تحنو عليه بصوتها الرقيق الطيب :

ـ أينما تولى وجهك فثم وجه عزة ، يداها فى البحر المالح وقدماها فى أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة !

قال خالد فى الظلمة التى سادت السرداب عندما خفق الضوء فى ذبالة الشمعة خفقة أخيرة قبل أن ينتهى أجله :

ـ أنت يا خليل ذبحت مملوكاً واحداً ودفنته هنا ، أما أنا يا رفاقى فسأظل أقتل وأقتل وأدعو إلى القتل حتى ألقى وجه الموت .. أنا منذ اليوم قاتل !

فقبلته الشيخة فى شفتيه وهى تمسح على رأسه فى الظلام .

(١٧)

على قبة المشربية العتيقة عصفور لهج متفائل ، ومن خلال خشبها المتداعى كانت المسطحات الخضراء فى أرض ميت جهينة بكل ما عليها من نبات وحيوان وإنسان مبسوطة تحت الشمس إلى مدى الأفق ، وكان الأب والابن يشربان قهوة الضحى فى قاعة الجلوس البحرية ودفتر الحسبة الكبير مفتوح بينهما والطمأنينة تشملهما وتوحد أفكارهما ، وكل ما حولهما فى بيت العائلة الكبير على ترعة جهينة ثابت ومتين ومستقر ، وقال إدريس وهو يصب فى قدحه جرعة من قهوة الإبريق :

ـ كنت على حق يا أبى عندما قلت لى من أول السنة إن الغلة ستكون طيبة !

وهرش الملتزم حمزة فى صلعته يبتسم راضياً عن نفسه :

ـ هذا أحسن محصول منذ السنة التى ماتت فيها أمك !

واندمج إدريس من الفور فى شعور الارتياح الذى تشكلت به الملامح الأبوية :

ـ أظن أن فى مستطاعنا أن نبيع بسعر السنة الماضية ؟

فالتقط الملتزم ومضة الإعجاب فى نظرة ابنه ليطرق الحديدة وهى ساخنة كما علمته حكمة الأيام :

ـ لا نستطيع أن نحدد سعر الأردب من الآن .. لننتظر إلى ما بعد زيارة « الأستادار » والاتفاق معه على حصته فى المكسب ونصيب الوالى ونائب الوالى .. على كل حال السعر فى يدنا !

وابتسم الابن مستجيباً للتعاليم الأبوية :

أعرف يا أبى .. أعرف أنى لكى أفرض هنا إرادتى لابد لى أن أكسب الكبار وأضمن سكوتهم !

ـ هكذا علمتك يا ولد ، لكن لك فى بعض الشئون براعة ، ولك فى بعضها الآخر كل خيبة مع الأسف !

أغضى إدريس عن مؤخرة الكلام وحصر كلامه فى موضوع المحصول :

ـ لكن من الصعب على النفس يا أبى أن يكون صاحب الأمر فى هذه الأرض غلاماً مؤنثاً وسمعته فى الوحل ، وأن يكون لمثله نصيب الأسد من خيرها !

شاعت صرامة الجد الخطير فى وجه الأب :

ـ شوف يا إدريس .. خذها منى نصيحة .. املأ دائماً عين « الأستادار » .. وكيل صاحب الأبعدية ويده وأذنه وعينه .. املأ عينه .. قل له دائماً يا سيدى الجندى ، ونعم يا جندى ، وحاضر يا جندى ... هذه الثلاثمائة فدان المزروعة فى ميت جهينة كانت طول عمرها فى عهدة أجدادك وتحت مشيختهم ..

قال إدريس فى محاولة يائسة لتحويل مجرى العظة التى يحفظها من سنين

ـ أعرف يا أبى ! .. أعرف هذا من صغرى ..

— أنت لا تعرف شيئاً . . أنت لا يهمك فى الدنيا إلا النسوان . . يجب أن تحفر فى مخك أن ميت جهينة لك . . صحيح أنها دخلت فى إقطاع مماليك من كل صنف لا يحصى عددهم إلا علام الغيوب ، لكنها فى الحقيقة لم تخرج لحظة واحدة من حوزة أجدادك الملتزمين مشايخ البلد . . لا يهمنا فى شىء أن يكون اسم صاحب هذا الاقطاع الصغير « أحمده » أو أن يكون له أى اسم آخر ، المهم هو أن هذه الأرض لنا نحن آل حمزة من قديم الزمن وأنك من بعدى سيدها وشيخها وملتزمها وجانى عسلها . . هل انحفر هذا فى مخك مع النسوان أم لم ينحفر ؟ طمئنى ؟

طوى إدريس الدفتر الكبير وضم عليه قبضتيه :

— هل تنوى أن تكون زيارتك للملعون الأستادار قريبة ؟

ضحك الملتزم حمزة وهو يهرش بظفر إبهامه وراء أذنه :

— لماذا أذهب إليه بنفسى وأنا أعلم أن قلقه على نصيبه فى اللقمة الطرية سيأتينا به فى يوم قريب ؟ دع القلق للآخرين وانتظر ساعتك ! تعلم من الدنيا !

واشترك إدريس فى الضحك منتهزاً فرصته :

— لن يغضبك بالطبع أن أقصد الليلة بيت سليمان أبو طاسة مباركاً له فى زفاف بنته ؟

فانتهى الضحك بأسرع مما جاء وهرش الملتزم :

— سليمان أبو طاسة ؟ . . هل هذا معقول يا ولد . . هل تريد أن يقول الفلاحون إن تهنئتك معناها رضانا عن سليمان الكلب وغالب عريس بنته ؟ هذا الولد الذى يريد أن يرفع عينه فى وجهى كلما طالبته بأجر المرعى ؟

— نخطف الواجب ونقول لهم مبروك على الماشى وبعدها نتصرف حسب مصلحتنا . .

لكن الصرامة كانت قد استردت كل مكانها المعهود فى الوجه الأبوى :

— اسمع يا إدريس ! . . لا . . أنا لا أنسى أن غالب وسليمان يرفضان أن يدفعا أجر رعى العجلة والغنمات فى كلأ الأبعدية على أساس الرأس . هل تريد أن تطمع فينا هذه الكلاب لا لشىء إلا شوقك إلى وجه فاطمة الجميل ؟

ظهر **الضيق** جلياً فى وجه إدريس العابس :

- أنا مالى بفاطمة ! فاطمة حبيبها الفلاح غالب والليلة تتزوجه !

عاد الضحك إلى القاعة الفسيحة التى لم يألفها طوال أجيال من آل حمزة :

— الآن تقول هذا بعد خيبتك !

— خيبتى ؟!

— أبوك فى شبابه لم تستعص عليه بنت ولا أمرأة فى هذا العب كله ! . أم فاطمة نفسها . . ست العيلة . . عندما لم تكن منفرة كما هى الآن بل صبية فى حلاوة بنتها فاطمة . . كانت لى قبل زواجها من أبو طاسة وبعد الزواج سنين طويلة . . أبوك لم يخب خيبتك ! . . .

— سمعت هذا يا أبى على كل لسان !

— ومع ذلك اسمع يا ابنى . . قد بلغت السادسة والعشرين وحق لك أن تملأ مركزك . . النسوان على قفا من يشيل ، لكن لا تجعل لواحدة منهن على قلبك حكماً يشل إرادتك . . تمتع وأنت صاحى المخ !

— يعنى لا داعى للذهاب فى رأيك ؟

أحس الأب أن الابن يختصر الحديث عند هذا الحد ، فنكشه فى عناد ديك شيخته الأيام دون أن تجرده من شقاوته على شمورت الديوك :

ـ عالج عند زوجتك المسكينة خيبتك الثقيلة عند بنت ست العيلة التى أخذها الفلاح عذراء وترك لك الحسرة !

ـ معك حق ولن أذهب !

هرش الأب فى صلعته ونظر فى أظافره بعد أن انتهى من الهرشة :

ـ هذا كلام عاقل . . لكن ليس معنى نصيحتى أن يغمض رجالنا عيونهم عن غالب هذا . .

ـ غالب ولد مسالم وفأسه دائماً فى الأرض !

ـ لابد على كل حال من أن نتثبت مما ترامى إلى سمعنا . . من هؤلاء الذين يأويهم . . ؟

ـ مجاذيب سواحون . . ما لنا نحن ؟

ـ مجاذيب ؟ . . طبوا على البلَد ولبدوا فيها . . لماذا ؟! . . من حقنا أن نعرف . .

نهض إدريس مستأذناً ، فدنا منه أبوه وطوق كتفيه بذراعه وقال له فى إعجاب بشبابه القوى :

ـ لا تغضب من مزاج الديك العجوز فهو كلام فى مصلحتك . .

النسوان أكثر من الهم على القلب ، وجائعات كانات الذئاب المسعورة . . المهم هو حقك فى أن تتصرف فى هذه القرية تصرف المالك فى ملكه ، وتحمى خيرها وتستقصى دبيب النملة فى أرضها ، المهم هو أن تدفع للخزانة السلطانية التسعمائة دينار السنوية وتزيد عليها هدايا الوالى ونائب الوالى والملعون الأستادار . . إنه أكبر من مجرد وكيل للولد الحليوة « أحمده » فهو وكيل الدوادار نفسه ، مالك « أحمده » وصاحب العب . . المهم هو أن تعرف كيف تجعل نسبة ربحنا فى يدنا ، ما دمنا نملك حرية فرض السعر فى

النهاية على الفلاحين . . أحب أن أثبت لك هذا فى رأسك بمسمار . . أما من جهة الغرباء اللابدين عند غالب وصهره أبو طاسة فإن من حقنا أن نعرف حكاياتهم ، حرك واحداً او اثنين من رجالنا للبص والإفادة !

قال إدريس وهو ينطوى فى الإرادة الأبوية :

ـ أمهلنى يومين .

ـ ولا تخب مثل خيبتك مع فاطمة !

وسمعت القاعة من حنجرتين حمزاويتين قويتين قهقهة عالية غطت على ثرثرة العصفور المتفائلة فى المشربية .

(١٨)

أصاب الشبع من كانت له اليد الطولى فى قصاع العصيدة ، وحمد الله قطيع العجزة والشحاذين والمسلولين والمجذومين والعميان ، وهرش المجاذيب الثلاثة الغرباء جلودهم من تحت مرقعاتهم الصوفية ، ثم هلت العمامة الحمراء على حلقة الذكر المنصوبة أمام دار العريس فخفق لها قلب ميت جهينة هانئاً بمقدم الخليفة الأحمدى ، وفى عاصفة من زغاريد وتهاليل اندفع العريس إلى عنان الحصان المختال براكبه واستعد سليمان أبو طاسة عند جنب الحصان الأيسر لتلقى ثقل الخليفة أثناء هبوطه مباركاً .

ـ مبارك إن شاء الله ! عقبى للصبيان والبنات !

كان صوت الشيخ منعشاً كالنسيم الرقيق بعد قيظ مبرح ، وامتدت يده برهة قصيرة فى استسلام للشفاه الملهوفة التى لا تزال فيها سخونة العصيدة ، لكنه لم يلبث أن توسط قوس الحلقة الذى يشغله المجاذيب وبهاليل الطريق والمتطرفون وسيطر على المكان ضابطا الإيقاع برنات منغمة من مسبحته على مقبض العصا المعدنى :

ـ مدد . . مدد . . مدد . . مدد . .

وظهر الغلام يوسف وهو يتطوح بين يدى الخليفة مقلداً الكبار فابتسم له أبو طاسة وظل هو الآخر ينجذب إلى مدد الشيخ حتى زارته الرعشة المعروفة عنه وسقطت طاقيته بضربة من يده إلى **الأرض** كاشفة بإرادته رأسه التى يرتعد أمام منظرها من لا يعرفها ، ورج المكان على عادته بزعقته العالية :

١ ـ يا عباد الله : من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج ! [لمعت جلدة الرأس كلها محرومة مبيضة ، وكما لو كان المخ نفسه مكشوفاً كان **الجلد** متآكلا ومغضناً وعارياً من الشعر إلا أسفل القفا وحول الأذنين من ، ذكرى يوم تعس فى شبابه صاده فيه نائب والى الجيزة بتهمة تهريب كيليتين من الشعير وحكم عليه بتسخين طاسة نحاسية وإلباسها له فى رأسه . . .

وهمس أحد الذاكرين لجاره فى الصف :

ـ إلى متى يتباهى هذا المخبول بقرعته !

ـ فرحان يا سيدى بمجاذيبه الثلاثة !

وبالسمع والبصر كان الهامسان يحصران المجاذيب الثلاثة الهائمين فى رقصة روحانية لانت فيها أجسامهم ، وكانا يتظاهران بالاندماج فى نشوة الذكر وهما صاحيان لما حولهما ، وفى وعيهما الكامل إرادة سيدهما الذى قال لهما وهو يقذف بهما حفل زفاف فاطمة بنت سليمان إلى غالب أبو مفتاح : « أريد سر ضيوف سليمان وغالب ، وأريده الليلة » .

ـ انظر ! إن المجاذيب ينسحبون مع العريس إلى داخل الدار ! ضحك البصاص الثانى :

ـ لعل ست العيلة أعدت لهم مع عصيدة مخصوصة هبرة لحم !

ـ وهل يدخل اللحم دار أبو طاسة ؟ . ربما . . . الليلة فرح . . وفاطمة الحلوة كانت تستأهل خروفاً يذبح عند عتبتها . . يا خسارتها فى غالب وفقره !

ـ ست البنات طلعت من عين سيدك إدريس !

وفى داخل الدار استقبل المجاذيب مطر من زغاريد ، وهبت ست العيلة تشخط فى النسوان وتزق العيال مفسحة لضيوفها الطريق إلى القاعة الداخلية :

ـ زارنا النبى يا رجال الله ونورت الدنيا !

وما أن وارى باب القاعة الرجال الأربعة حتى ضحك غالب وهو يتأمل يديه المخضبتين بالحناء وقال فى حياء :

ـ حماتى تحب أن تسبك الدور !

قال أحدهم وهو يحك جلد عنقه عند طوق المرقعة الخشن :

ـ حماتك ست ولا كل الستات . . لو كان عندها بنت غير عروسك لتزوجتها مستبشراً بوجه أمها !

وكان غالب يؤثر هذا الذى تكلم بمكان خاص فى نفسه منذ عرف قصة فراره من ظلم القاضى المرتشى فى القاهرة ، وكان من القلائل الذين عرفوا أن الشيخ موسى المجذوب اسمه عيسى وأن صداقته لأيوب صهر سليمان فتحت له دار أبو طاسة أهل بيته . . وكان شبابه الساذج مفتونا **بقصة ست** الحسن والجمال حريم الأمير الخطير التى عشقت عيسى حتى لفقت له التهم لما نفر منها . . وكان يتخيل حريم الأمير العاشقة حورية فى يدها سيف ، بيضاء لينة بشعر أصفر طويل واقتدار فذ فى الرقص والغناء والدلع . . وكان يود لو لم يصل المجذوبان الآخران ليلة الأمس فيفسدان عليه أحاديث الخلوة مع صاحبه الذى خاض بحور الأيام والليالى وذاق الحلوة والمرة . .

لكن واحداً منهما ، الأصغر سناً ، تقدم منه بابتسامة كبيرة ووضع يده كتفه فى تودد :

ـ اسمى خالد وأحب أن أكون صديقك .

وتقدم منه الثانى وفعل كما فعل الأول :

ـ أنا عمك الشيخ خليل ويلزمنى أفيون جيد !

ـ أنا خادم الإخوان !

قالها فى ارتباك وخجل فضحك الرجال الثلاثة وقد حصروه بين مرقعاتهم . . وكان عنده ألف سؤال يريد أن يعرف أجوبتها من هذين الوافدين الجديدين . . كيف كانت رحلتهما المجهدة مع ست الكل ، وكيف خرجا من أم الدنيا دون أن يقبض عليهما عسس السلطان ، ولماذا لم يأتيا معهما بأيوب ، وهل هو فى أمان عند تلك الشيخة ؛ لكن زغاريد النساء لم تلبث أن جاءت تدق عليه الباب مطالبة إياه بالظهور لعروسه التى تنتظره كى تنحنى أمامه بحضور أهلها وتقبل يده وتدخل به إلى الزفاف والصبيان والبنات . . .

ودفعته أيدى الرجال الثلاثة فى ظهره :

ـ اذهب ، وسنقرأ لك الفاتحة !

(١٩)

فى حضن المقطم وعند أطراف معادى الخبيرى المتاخمة للصحراء بلغ الغلام الباب فأسقط نصف درهم فى يد الصبية اليهودية العجفاء التى تزعمت جماعة الأطفال فى قيادته خلال الرمال والأكواخ إلى البيت المقصود :

ـ اشتروا هريسة !

انصرفت المجموعة الدميمة من بنات اليهود وأبنائهم فى حلقة هائصة محكمة حول اليد القابضة على نصف الدرهم ، وتريث الغلام برهة عند الباب المغلق وتناول عمامته المملوكية الرشيقة فسواها مائلة نحو حاجبه الأيمن ثم

أصلح من وضع مقبض الخنجر الهلالى وشد الحزام على وسطه قبل أن يرفع سقاطة الباب ويدقه بها المرة بعد المرة ، وانتظر دون أن تترك يده السقاطة الحديدية المنحوتة على شكل رأس حاخام جاحظ العينين مديد اللحية ينفث حنكه المفشوخ بسمة باردة خبيثة .

وهم أن يدق الباب مرة أخرى عندما انفتح الباب إلى الحد الذى يسمح لغلام يهودى لا يكاد يكبره فى السن بإظهار شعره الأحمر ووجهه الشاهق البياض الذى يشع فيه نمش غامق كنثار العدس :

ـ ماذا تريد ؟

تأمل الزائر النظيف وساخة الثوب البالى الذى يلف جسم الولد ثم أشاح بوجهه عن منظر بقايا أسنانه المحطمة فى لثته العريضة :

ـ أريد مقابلة السيد ليشع .

ـ هل هناك موعد ؟

ـ لا ، لكنى رسول من عظيم يحترمه السيد ليشع ، فقل له هذا

ـ أحكم ذو الشعر الأحمر إغلاق الباب وغاب برهة قبل أن يفتح مرة أخرى :

ـ السيد يسأل عن اسمك واسم العظيم ؟

دق المملوك الصغير الأرض بقدمه فى غضب ونفاد صبر :

ـ قل له إن اسمى مراد ، أما اسم مولاى فهو أكرم من أن يلفظ به على الأبواب ، وللخلوة آدابها !

غاب الشعر الأحمر برهة أخرى ثم فتح :

ـ ليتفضل السيد ويتبعنى .

دخل مراد بكل يقظته الحيوانية فى طرقة من حجارة عارية تلتقى فى نهايتها بفتحة خفيضة لا يبين من المكان الذى تفتحه غير صفوف من القنانى الملونة الدقيقة مصطفة على أرفف مثبتة بحائط الصدر ، وأحقاق من زجاج أزرق وأصفر وأسود . . وبإشارة من الوجه المبقع بالنمش انحنى مـراد وهو يعبـر الفتحة إلى الحجرة الداخلية ويمناه تتحسس مقبض خنجرة وقلبـه فى صدره خفاق ، وفى وعيه كلمة مولاه : « ستلتقى اليوم بأفعى بشرية » !

كان الحجر واسعاً من الداخل ، لكن الضوء فيه خافت يزداد غموضه فى الأركان المفعمة بأدوات مبهمة وصناديق وسلال ، ونهض وراء نضد صغير مفعم بالألغاز قـوام ضئيل لمعت صلعتـه الكبيرة فى ضـوء المسرجـة المعلقة بالسقف وصدر عنه صوت تخطف السمع غرابته المعدنية :

ــ أهلا بالسيد مراد ، رسول من يا ترى :

تأمل المملوك الصغير وجه الشيخ الهضيم تحت صلعته الكبيرة وحاول أن يصيد لمحة عينه من بين الجفون :

ــ قل لى بالله عليك يا سيدى . . ألا يمكن أن يأتيك أحد قاصداً علمك لنفسه ؟

رنت الكلمات فى سكون الحجر معدنية مهيبة :

ــ يحدث هذا ، لكنك قلت لغلامى إنك رسول من عـظيم ، والوقت ثمين يا سيد مراد ، الوقت ثمين !

وجلس ليشـع ويده العجفـاء ذات الأصابـع المديـدة الطول تشـير إلى الكرسى الوحيد الملاصق للنضـد من الجهة الأخـرى ، وانكبت صلعته فى الحال فوق مضغة غامقة اللون كانت تستوى وتتشكل فى طرف إبرة كبيرة على لهب هين لا تكاد تلحظه العين :

ــ رسول من يا ترى هذا الفتى الجميل الشجاع ؟

جلس مراد وهز ساقه وهو يقول فى استخفاف وفضول :

ــ مولاى والى القاهرة يبعث إليك بالتحية !

اعتدلت الصلعة ومضت بين الجفون الثقيلة نظرة مكبوتة :

ــ الأمير بظلم ؟ نعم الإنسان !

كل هذه السلال والصناديق مليئة لا ريب بالعقاقير الإبليسية والعقارب والثعابين ، ويقال إنه يربى صنفاً من عنكبوت أبو شبت الواحد منه فى حجم الأرنب الجبلاوى . . يا حفيظ !

ــ الأمير يريد الشىء نفسه ، مع درجة أعلى فى الجودة كنت وعدته بها فى آخر مرة وهو بالوعد يذكرك . . هذه هى رسالتى بالحرف الواحد . .

ــ وكيف حال الأمير ؟

ــ ينتظر الشىء نفسه مع درجة أعلى فى الجودة !

ــ والثمن مع أميرنا الصغير الجميل زين الفتيان ؟

ظهر فى يد مراد كيس صغير من حرير أصفر ، وشاعت فى وسامة وجهه استهانة صريحة :

ــ هذا شكر الأمير !

وراء كتف صانع السموم ظهر فى اللحـظة نفسها شعـر غلامـه الأحمر وتلقت أذنه منه همسة كان لها فعل السحر فى كيانه الدقيق ، فامتدت يده وهو ينهض لتخطف الكيس الأصفر بأطراف أناملها الطويلة ، ثم اندفع إلى أحد الرفوف القريبة فجاء بقنينة زرقاء تنطوى عليها راحة الكف لفرط رقتها الفاتنة ووضعها فى كف مراد :

ـ بلغ الأمير احترامى وضمانتى !

ابتسم المملوك الصغير فى كبرياء وقد أدرك أن الرجل العجيب يطلب منه الانصراف فى الحال ليفرغ لشأن طارىء أهم من مسألته ، وأشار إلى الغلام الزرى بيد حازمة :

ـ أرنى طريق الباب يا ولد !

كان يتوقع أن يرى الزائر العظيم فى الطرقة الحجرية ، لكنه لما وجدها فارغة أمسك فجأة معصم الولد ولواه وهو يأمره ألا يرفع صوته :

ـ سأكسر لك ذراعك إن لم تقل لى اسم الزائر الذى همست به فى أذن معلمك ! انطق !..

وبعد مقاومة ضعيفة أرهف مراد سمعه :

ـ هذه جارية جلبهار عروس مولانا السلطان !

(٢٠)

كان خليل جالساً فى الوسط وعيناه هائمتان فى الحقول ، وكانت رؤوسهم الحليقة عارية ومرقعاتهم متشابهة ، وأصغرهم سناً يشط به الفكر كلما اعترضت أحاديثهم سكتة طويلة وينكت التراب بطرف عود رفيع فى يده ، وكان الظل اللطيف الذى يتفيأه الرجال الثلاثة عند جدار الطاحون البحرى مليئاً بهدير حجر الطاحون وهو يجرش الذرة ويهرسها فى صوت جامع بين الصرير والمرارة والأنين ، وأمامهم كانت أرض ميت جهينة الخضراء مفتوحة البطن تحت الشمس ، وعلى مدى الشوف رجل يوالى الضرب ببلطته فى جذع شجرة مديدة الخضرة ، هناك بالقرب من حائط بستان الملتزم .

وقال عيسى للفتى المهموم وهو يخطف العود اليابس من يده :

ـ صل على كامل النور يارجل !

شقت صدر خالدة تنهيده موجعة وهو ينظر فى عيون رقيقة :

ـ عزة الآن فى كل مكان ، يداها فى البحر المالح وقدماها فى أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة ، هكذا قالت لى ستنا زليخة وهى تودعنى ، وهكذا أرى الآن أختى الحبيبة عزة !

كان وجهه من فرط شحوبه يبدو ضامراً لكن فى عينيه وقدة دائمة الضرام ، فطوق عيسى كتفه بذراعه العارية البادية العضلات :

ـ أتعرف أنى كنت أطمع فى عزة لنفسى على سنة الله ورسوله ، وأنى طالما خفت منك على كرامتى لو أنى خطبتها منك ؟ هل كنت تعرف هذا

لاح طيف ابتسامة فى ملامح خالد المضناة :

ـ وكنت أنوى أن أرفض وأرجعك وقفاك يقمر العيش !

ـ لماذا من فضلك ؟

قالها عيسى ضاحكاً فى سعادة لخروج صديقه من بحور الأسى إلى شط الدعابة فتوضحت الابتسامة فى الوجه الضامر وأشرقت فيه لمحة من رونقه المفقود :

لأنك بتاع نسوان !

ـ أنا ..؟ فى هذا المهجر وفى هذه المرقعة ؟.. حرام عليك يا شيخ ! والتفت إلى الرفيق الثالث يدعوه هو الآخر إلى الخروج من بحوره إلى شىء من المزاح :

ـ وأنت أيضاً صل على النبى وكلم أمة المسلمين !.. بذمتك أنا بتاع نسوان يا خليل ؟

كلمة دون أن ينظر فى عينيه ، شأنه منذ صارت تخيفه الومضة المجنونة التى سكنت مقلتيه فى الأيام الأخيرة ، وزام خليل وهو يتململ فى جلسته فوق التراب :

— هذه الأيام القليلة هنا أتمت شقائى !

وتأملت نظرته البعيدة حامل البلطة الضارب فى أصل الشجرة وتدفق منه الكلام فجأة كما لو كان نبعاً يلتمس منفذاً بعد طول احتباسه فى جوف الأرض :

— الآن عرفت زمنى وضمنت عذابى أنا وأمثالى بعد أن رأيت الحياة يفسق بها فى المدينة وفى الريف على حد سواء . . هذه الأرض الجميلة تصب خيرها فى أفواه معدودة . . مفترسة الأنياب كلبية الفكين . . ومن حولها يلهث البؤس ويلعق الوحل . . هذه الأرض ليست غريبة أبداً عن مدينتى !

قال عيسى فى انتهاز لأى كلام إلا ذكرى عزة ومواجعها :

— ربما كان الفرق الوحيد بين بؤسنا فى المدينة وبؤسهم هنا أننا نستطيع عند الضرورة أن نفر إلى الضياع فى الريف الذى تنكسر فيه حدة العسس . . بينما العبد هنا مربوط بالأرض وله مثل الثور وتد . . إنه يعاد قسراً إلى العمل فى الأرض ورجله على رقبته !

طوح خليل بذراعه فى الهواء فى يأس كامل :

— كما يضطجع ساده المدينة على الأرائك وهم يتجشأون ويتلمظون ليتفرجوا على الراقصات العاريات المدربات على رقصة البطن بلسعات كرابيج الأغوات ، لا يجدها هذا ! السيد الريفى بعد الملل من الفتك بأعراض القرية ملهاة لثمالة عافيته إلا أن يخلع ملابسه فى العراء إلا من السروال ويجتث ببلطته من الأرض شجرة جرأت فمدت بعض فروعها فى اتجاه قصر أبيه الملتزم . . إنى أبصق على كل هذا . . كل هذا يمرضنى . . كان دائى الذى أعرفه الغثيان الدائم الذى يعيش فى معدتى . . هذا القرف من كل شىء . . من السجانين والمسجونين والمشايخ والطواشية وأولاد الحرام وأولاد الحلال . . إنى لم أعد

أحتمل . . حتى الماخور خذلنى ولم تهبنى بنات هاجر الفاسقات شيئاً من راحة النفس المفقودة . . حتى الغيبوبة لم تعد تنفخ فى صورق . . وأنظر فى الناس من حولى فأجد لهم سحن الذئاب وأجد فى الفك الممطوط الناب الشرس الذى يتحلب بلعاب النهم ، وفى العين النظرة الصفراء الخائفة . . إنى لم أعد أحب ! لم أعد على الحب قادراً . . هناك أو هنا ، المسألة واحدة . . لم أعد قادراً على تحمل هذه الحياة . . وهذا العجز معى هنا كما كان سيصحبنى لو أنى بقيت فى سرداب ستنا زليخة مع أيوب وزين الدين ولم تأخذنى الشفقة بك يا خالد أن تضيع وحدك بين القرى وأنت هذا المصدوم الذاهل . . لم أعد أحب ! لم أعد أحب !

ثقل الإحساس على نفس عيسى فجاهد أن يطرده واندفع على عادته إلى أى كلام وجده على طرف لسانه :

أما أنا يا عم فأحب النسوان . . . من بعيد ، من بعيد ، يارب ، من بعيد ! . . وهل لسواح مثلى فى هذه المرقعة حظ فى زواج ولو من معزة ! . . لا حول ولا قوة إلا بالله !

توازن الجد والهزل فى صمت عميق تعلقت نظرة خالد بنقطتين مقبلتين من الشرق تكبران فى اتجاه الطاحون :

— هذا لا ريب غالب وعروسه يحملان لنا ما نأكل ، وكأننا عملنا بأكلنا —

تنهد عيسى ودق كفاً بكف :

— يعنى يا أم فاطمة كنت عاجزة عن خلفة أخت لفاطمة ، قبلها أو بعدها والسلام ، سامحك الله !

وقال خليل ونظرته تحتوى القادمين عن بعد :

— حرام والله أن ينجب جيلهما جيلا آخر !

لكن صوت عيسى تدفق فجأة بنبرة جادة :

ــ عجيب ! . . ابن الملتزم ترك بلطته فى الشجرة وانكسر فى الحقل قاطعاً عليهما الطريق . . ها هما يشعران به فيقفان له فى مكانهما وهو يحث الخطى نحوهما . . ماذا يريد منهما الثعلب ؟

اعتدل خالد على ركبتيه وستر عينيه براحة يده وهو يفحص اللقاء البعيد بقلب نابض بالوجل :

ــ غالب قال لى أنه أول عريس فى ميت جهينة لا يبعث إلى بيت الملتزم عند زفافه « ضيافة » من الدجاج أو الكشك أو الكعك ، فلعل إدريس يطالبهما بالضيافة والهدية . .

وطال اللقاء البعيد ، الرجلان يتكلمان وجهاً لوجه ، والمرأة متباعدة فيما وراء كتف رجلها . . وعلى البعد كانت فاطمة تبدو لعينى خالد جميلة وهانئة بحمى عريسها . . وعلى صورتها والنسيم يعبث بطرحتها تخايلت له صورة عزة بكل شبابها اليافع عروساً وسعيدة بالحب . . لكن لا ! عزة فى السماء وفى كل مكان . . نعم يا ست الشيخة نعم ! . . عزة يداها فى البحر المالح وقدماها فى أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة . .

وانشطر اللقاء فعاد إدريس فى اتجاه بلطته واندفع الشاب والشابة فى اتجاه الطاحون ، فقال خليل فى اهتمام شديد :

ــ بل أحسب ابن اللص كان يطالب غالب بأجر المرعى مرة أخرى !

وضحك من نفسه فى الحال وهو يهز رأسه متعجباً :

ــ أما إنى أهتم الآن بأمور عجيبة !

وبلع عيسى ريقه ونظرته تشمل الخرقة المضمومة على الطعام فى يد فاطمة :

ــ إنى أخجل من كل لقمة فى هذا الزاد ، لكنى جائع !

ودنا الطعام وتصافح الأصدقاء ووضعت فاطمة صرتها على الأرض واعتدلت مطوحة بطرف الطرحة وراء كتفها :

ــ الخاسر ابن الخاسر يسأل عن العتاقى والشمورت ولا يستحى من فقر الناس !

لكن وجه غالب كان مضطرماً بالغضب :

ــ يا بلهاء ! . . . الفراخ حجة حتى يكلمك ! . . ألم تفهمى ؟

ــ ماذا أفهم ؟ . . كيف كان ممكناً أن أخاف من الكلام معه أو مع غيره وأنت معى ؟

وتحولت الأنظار كلها فى اتجاه الشجرة التى عادت إليها البلطة ، وبصق خليل على الأرض :

ــ مبتست هذه من سلالة ! خد منغوز وفك ممطوط وشدق أحمر ! . .

القسم الثانى

الطاعون

(١)

هبت من الشرق نسمات خريفية منعشة ، وخيم السكون المسائى على بساتين الحريم ، حيث سئمت الطواويس من عرض مفاتنها فى ظلال الرياحين ونامت الظباء فى بيوتها الحجرية ، وخفتت فى ممرات القصر وأبهائه خطوات الطواشية والحشم والجوارى ، واستوى بلباى فى صدر القاعدة المعلقة على عرش لذته الكبرى دافساً وجهه اللحيم فى طيبات مائدة يحيطها بذراعيه فى سعر ويلتهم الغض المتبل من مخاصيها وبهريزها الذى تسبح فى مائه الثقيل الدسم فتات العكاوى وذيول الثيران وأمخاخ الطيور ونخاع الضأن ، وبين يديه إحدى جوارى زوجته الرابعة تصب له النبيذ فى كأس ذهبية ، ما أن تمتلىء حتى يكرعها وما أن تفرغ حتى تفعمها له الجارية من إبريقها الذهبى الرشيق :

ــ صحة وعافية يا مولاى !

تبسم السلطان ولعق أصابعه الغليظة البيضاء ثم تجشأ وارتكز على كوعه :

ــ صوتك جميل يا بنت ! . . من أنت فإنى لم أرك قبل هذه المرة ؟

تضاحكت الشابة حتى اهتز صدرها البكر من حول الإبريق المشوق الطول ، ولمعت فى ثغرها الرطب أسنانها المضيئة :

ــ أنا يا مولاى ساقيتك منذ اليوم بأمر مولاتى السلطانة التى أدخلتنى فى خدمتها منذ أيام ، عبدتك جلشان .

ـ منذ أيام ؟ . . جلبهار لم تخبرنى أنها اشترت جارية جديدة بديعة مثلك . . من أين يا بنت ؟

رمت الجارية الصغيرة نحو ستار دمشقى قريب من مكانها بنظرة تحتية خاطفة من ركن عينها اليقظة ثم مالت ببياض صدرها الشاهق وهى تصب فى الكأس الذهبية دفقات جديدة من روح الإبريق :

ـ من دكة المماليك يا مولاى المعظم ، وجلابى هو ياسر الذى باعك مولاتى يوم أشرقت أنوارك على الأريكة السلطانية . .

زمجر بلباى وغام وجهه وهو يفعص فى ركن الطبق خصية عجل قليلة الطهى لم ترق له :

ـ جلبهار ! . . ويل لأمى يوم راقت لى مولاتك ! . . كأنى إذ دفعت فيها عشرة آلاف ورفعتها إلى مقام السلطنة اشتريت عذابى وسواد ليلى ! . .

سيطرت الجارية على عضلات وجهها بإرادة مدربة حازمة ولاذت بالصمت وهى مطرقة ، لكن السلطان الذى اعتكر دمه لذكر عروسه الشرسة بعد أن فاضت به نشوة النبيذ اندفع إلى الكلام وهو يرفع عن المائدة يديه اللامعتين حتى المعصمين بدهن الوجبة السلطانية الهائلة :

ـ ليتك كنت عند ياسر من شهرين يا جلشان ، وليت بصرى وقع عليك أنت يومها . . أين كنت من شهرين يا حلوة ؟

خلصت الجارية إبريق النبيذ من مكمنه فى حضنها ومالت بفوهته الدقيقة فوق كأس السلطان السكران :

ـ من شهرين ؟ . . كنت مع بنات مثلى فى قافلة تقطع أرض الشام قادمة من شطوط البحر الأسود فى حراسة رجال ياسر المسلحين ، وكنت أبكى سائلة نفسى عمن سيشترينى ، وما كنت أحلم أن تشترينى سلطانة مصر وأضم صدرى على إبريق السلطان نفسه ! . .

ـ وكم دفعت فيك جلبهار ؟

ـ وكيف أعرف يا مولاى ؟ . . أخذ ياسر الصرة ودفعنى من كتفى وكان المكتوب على الجبين !

ـ هل ترقصين ؟

ـ كأن ليس فى جسمى عظم !

ـ لمعت فى عين السلطان نظرة سكرى :

ـ هل عرفت الرجال ؟

ـ لماذا لا تشرب يا مولاى ؟ هذا نبيذ معتق من أيام بيبرس ، والشفطة منه تسكر وتسعد القلب !

فرغ بلباى من لعق إبهامه وعبرت بخمول مخه يقظة خفيفة :

ـ من أدراك بقيمة هذ النبيذ ؟ هل ذقتيه يا بنت ؟ ومع من ؟

ضحك الوجه الجميل وأشرق بهاؤه الفتى :

ـ هكذا سمعت مولاتى تقول !

مال السلطان على جنبه وثقلت أجفانه :

ـ آه ! . . مولاتك تجرع من هذا الخمر ما يصرع الجندى الغليظ الدمن ، فإذا سكرت صار ليلى أسود من **سمنة** الغراب . . قولى لى . هل تدفعك إلى الشرب معها ؟ . . تعالى . . اقتربى منى يا حلوة وتكلمى ولا تخافى . . ما أجمل هذا الصدر . . لو كان لجلبهار مثله لكان حالى معها غير الحال !

جمدت الجارية فى مكانها برهة ثم صبت فى الكأس ثمالة الإبريق ورفعته إليه فى دلال :

— بعد أن تشرب زبدة الإبريق يا مولاى المعظم وتغسل يديك بماء الورد !

— هل تعرفين مكانها الآن ؟

— ليطمئن قلب مولاى ، فهى تلاعب غزلان البستان ومعها جواريها وقناق خمرها !

وخطفت الجارية نظرة سريعة إلى الستار القريب على حين كان العتل المستلقى على الإيوان يقاوم شعوره بالامتلاء الكامل وينهل من الكأس جرعات خفيفة مغتصبة وهو يسح بكلام تقطعه سكتات وسنى . . .

إذن فأنت تشربين أحياناً مع جلبهار . . تسكرن وتطاردن ذكور الغزلان المفزعة التى تخفق قلوبها الصغيرة رعباً من المطاردة . . أنا لست عبيطاً يا بنية . . أنا أعرف كل ما تفعله بنت الأفعى معكن بعد أن تنصرف عنى حانقة كالفهدة الثائرة . . هدية ياسر المشئومة ! . . الأفعى بنت الأفعى ! . . إن زوجتى الأولى المسكينة لا تفتح فمها وترتجف أمامى بلا ذنب كطفلة مذنبة . . والثانية قابعة فى سكون الأموات وراء باب قاعتها ، كأنها غير موجودة . . شىء مريح . . والثالثة ساكنة القاعة المظفرية منكسرة النفس كما ينبغى حتى لتأتينى بنفسها بالكرباج الذى أجلدها به ، وعندما آمرها تعرى لى ظهرها فى أدب وتركع مذعنة . . أما هذه النكدة الملعونة فإن يوماً قريباً سيأتى تكون رقبتها فيه عند إيواظ وتحت سيفه لجبار . . سأتفرج على دمها الفوار وهو يسيل وعلى لسانها وهو يخرس . . أنا السلطان يا بنت ولا كلمة فوق كلمتى . . أنا سبع البر . . وستكون هناك سلطانة جديدة . . مطيعة طاعة العبد الذى يأكل من طعامى قبلى ليكون الموت فى حالة وجود السم من نصيبه . . رقيقة كهذه النسمة اللطيفة التى تهز هذا الستار ، ولها طرف خاشع وصوت خافت ونهود بديعة مثل نهودك يا سلطانتى ! . .

عادت نظرة الجارية من الستار المهتز إلى المخرف الذى أسكرته :

— أحق هذا يا مولاى ؟ هل تنوى حقاً أن تسلم رقبتها الجميلة للجلاد ؟ وتهون عليك ؟

واعتدل السلطان جاهداً أن يتزن فى جلسته بين وسائد الإيوان :

— أنا الكل فى الكل ولا أسمح لا مرأة أن تذلنى . . وافهمى هذا وانقشيه فى صدرك الجميل لأنك ستكونين غداً سلطانة البر الأميرية الآمرة ، أما هى فإن دمها سوف يسقط فى كفى عندما يحز إيواظ رقبتها . . أنا سبع البر ولا كلمة فوق كلمة السبع ولقد فرغ أجل جلبهار !

— بل أنت يا عجل العجول النتن من فرغ أجله !!

جاوبته الصيحة المفاجئة فى صدمة مخرسة ، وانفلق الستار عن الفهدة الكاسرة التى يتماوج شعرها الأسود على كتفيها فى خصل غزيرة مديدة الطول ، فلم توار الجارية ابتسامتها الظافرة وهى تتنحى مفسحة الطريق لعينى سيدتها اللتين تطلقان بشرر وحشى ، ولسانها الضارب كالسوط فى غير مهل ولا رحمة :

— ظهرت لك منى يا ابن مرتخية الأوصال ! . . هكذا تتكلم عنى من وراء ظهرى . . أنا بنت أفعى يا عار الرجولة يا سبع الأحلام ؟!

سقط الإيوان كله فى مصيدة الكيد النسوى ، وخرست كل معالم الحياة فى كيان صاحبه المتخم المخمور إلا الذهول الجاحظ فى عينيه الدوارتين بين المرأتين ، ولوحت السلطانة لجاريتها بإيماءة شكر راضية تلقتها بابتسامة استمتاع طفولية وهى تنفض صدرها فى عجب ، ووثبت جلبهار نحو قعيد الإيوان المشدوه حتى كادت تغرس فى عينيه الزائغتين أصابعها المشرعة :

— أأنت تخرس لسانى وتقطع رقبتى ؟ لتعيش أنت ؟ . . لماذا ؟ . . لماذا يعيش مثلك يا أخيب الرجال ؟ . . وماذا بعد أن يعجبك صدرها ؟ . . ما قصارى جهدك بعد هذا الإعجاب يا أطرى من العجينة ؟

ورنت ضحكة الجارية فى السكون الذى سقط فيه السؤال ، متماوجة حرة :

ــ الرحمة يا مولاتى فإن بعلك فقد النطق أيضا !

تأوه السلطان وهو يهم بالوقوف على قدميه فتدحرج بـدنه الضخم إلى البساط وأفلت من أحشائه المحشوة عند اصطدامه بالأرض صوت كرية ، وإذا بصفعة قوية من كف صاحبته الهائجة تصافح خده المكتنز المحتقن :

ــ يا مضحك الأمراء يا ألعوبة الدوادار ، أهذا كل ما وفقت إلى قوله ! وفى سقطته المخجلة بكى بلباى من عجز وقهر وخزى :

عفوك يا سلطانتى الغالية فإنى شربت فوق ما ينبغى لى قيراطين !

ضحكت جميلة الصدر وهى تجيل نظرتها الهادئة فى المكان باحثة عن شىء تستر به عريها ، وقالت جلبهار متشفية فى طرب :

عفوك معك يا ابن المجهولة ، فهذا الذى تنفجر به أمعاؤك هو لو علمت آخر زادك !

ــ آخر زادى ؟!

وحـاول أن ينهض على ركبتيـه الخائـرتين وقـد نـطق الفـزع فى عينيـه المخمورتين :

ماذا تقصدين يا جلبهار ؟ . . تكلمى . . أستحلفـك بالله أن تتكلمى يا غالية !

كان على ضخامة جرمه يبدو فوق البساط ضئيلا وهيناً وهى واقفة أمامه ، شامخة وعالية بنظرتها الفوقية ، فوجدت لذة حريفة فى أن تعذبه كما تعذبت به ستين ليلة :

ــ هل أكل الجاشنكير من كل هذا قبل أن تقذف به إلى معدتك ؟ فصار وجه السلطان من رعبه فى بياض الشمع وخار صوته :

ــ وقام من أمام الطعام كالفيل القوى ولم يحصل له شىء ، فلماذا تسألين يا أغلى الغوالى ؟

ــ تريد أن تعرف ؟ . . ادخلى مخدعى يا جلشان وهاتى من تحت وسادتى القنينة الزرقاء الصغيرة التى جئتنى بها من المعادى ، لنريها لسبع البر ونريه فيها نهايته ! . .

وكتمثال جميل للتلذذ القاسى ظلت جامـدة فى وقفتها المتصلبـة ونائيـة بسمعها فى كبرياء عن توسلات السلطات الراكع أمامها فى ضراعته الذليلة إلى أن جاءتها صاحبتها الطروب بما طُلبت ، فبسطت يدها أمام عينيـه بحركـة متحدية وجعلته يرى القنينة الدقيقة البديعة الصنع التى لمع بلورها الأزرق فى بياض راحتها كما لو كان فص خاتم من نفيس الجوهر . . .

ــ أتعرف هذا يا سيد السباع المهاب ؟

ناح بلباى ولطم لجم خديه الجم فى انهيار :

ــ أعرف هذه القوارير الكروية البشعة . . هذا من صنع ليشع طبـاخ السم !

وزحف على ركبتيه نحو قدميها وكرشه يرتج أمامـه كأن عـراه ستتحل ويندلق عند نعليها :

ــ أدركينى بطبيب يا منية القلب . . . لا أريد أن أمـوت . . الرحمـة ! الرحمة ! . . لا أريد أن أموت . . والله إنى جاعلك صاحبة السلطنة ! ترنخت جلبهار من فرط اللذة واحتاجت المرأتين رغبة فى التسلى وتبادلنا من فوق رأس البهيم الأكرش الزاحف بينهما على البساط ابتسامة مفعمة بالازدراء والتشفى

وهما تتفرجان على صاحب دعاء خطبة الجمعة وهو يلعق الأرض طالباً الرحمة ونادباً عمره القصير على أريكة السلطنة ، فلما شبعت جلبهار من هذه اللذة وردت غلتها ركلته فجأة فى جنبه الطرى بطرف نعلها المعقوف :

ـ عندى الترياق ، فهل أنت صادق فى إشهار سلطتى ؟

ـ أقسم بكتاب الله المجيد ؟

ـ وتكون لى القبة والسنجق والعصائب السلطانية ؟

ـ أقسم بكتاب الله المجيد !

عندها هزأت بكذبه فى ضحكة مهينة وهى تناوله ركلة أخرى فى سرته :

ـ انهض يا جبان ، يا خرقة ، يا مرتخى العصب ! .. انهض فإنى لم أدس لك السم فيها طفحت به معدتك وما كنت فى حاجة إلى ذلك بعد أن تولى الأمراء بأنفسهم أمرك الهين .. انهض إن استطعت فإن الأمراء المجتمعين الآن فى قصر الدوادار لعزلك لن يلبثوا أن يأتوك فى احتفال كبير لتسليم رقبتك إلى إيواظ وسيفه ، أما رقبتى فلن يمسها غير كرائم الجوهر وقبلات العشاق ونفح الطيب ! . .

وكان فى صوتها صدق مقنع لكنه تشبث بالرجاء الأخير فى جنون :

ـ الدوادار ؟! .. الدوادار ؟ .. هذا غير معقول . . . كيف يتصدى اليوم لعزلى وذبحى وهو الذى أخذ بيدى من شهرين فقط حتى أجلسنى على الأريكة وكان أول من سجد بين يدى وقبل الأرض ؟! . أما اكتفيت من تعذيبى ؟

لكنه فقد النطق مرة أخرى عندما توضحت فى الحوش السلطانى ضجة عظيمة وعادت جلشان من النافذة بالنبأ اليقين وهى تتخطر فى مشيتها ساترة نهديها العاريين بيدين لعوبتين :

ـ ما ينبغى أن يرانى أمراء البلاد عند دخولهم على هذا الحال ، فلابد لى الآن من ستر صدرى ولو أن الفقيه علمنى عند ياسر أن من الإيمان أن أتحدث بنعمة ربى ! . . .

وعندها انكفأ السلطان على وجهه مغشياً عليه ، وخرجت الجاريتان لاستقبال السيادة الجديدة .

(٢)

كانت الجارية الصغيرة حبيسة درب الأغوات القريب من قلعة الجبل وهى تتمايل كأعالى الشجر مع هبات النسيم حرة الجسد صادقة النفس خلاقة الحركة فياضة كالموج المتدفق ، ولم تكن تؤدى رقصة البطن المألوفة التى يعلمها الجلاب العيهور لصبايا الرقيق قبل أن يدفع بهن إلى شهوات المخادع . . وأمام المرآة العريضة التى فرغ العمال من تركيبها منذ ساعات قلائل كان مراد الصغير هانئاً بنشوة الراح فى جناحه الخاص الجديد الذى تظله تكعيبة العنب الكبيرة فى ركن بستان قصر الوالى ، مسترخياً بين حشايا مخدعه العبق بشذى البخور السودانى وهو ينقر بأنامل بديعة الحساسية على صينية صغيرة من النحاس المكفت بالفضة ، والغلالة الموصلية الرقيقة التى أسقطتها « عبير » عن بدنها الخمرى المتأود ملقاة عند قدميه ، فوق رأس كسرى الذى يتوسط رسم البساط المصور لمعركة طاحنة قوامها رماح ودروع وخيول وجنود وملوك .

وفى ضنى وإعياء تدانت خطى الراقصة من وعاء البلور الكبير الذى تسبح فى مائه الصافى سمكات نشيطة الذيول رشيقة اللفتات بلهاء العيون ، فتباطأ النقر على النحاس فى تجاوب منسجم مع تعب الجارية ، وما لبثت عبير أن ركعت فى عريها اللاهث وأسندت ذراعيها على ركبتى مراد ووميض المتعة يلمع فى عينيها اللوزيتين :

ـ سلطانى الصغير ! . .

ـ شدها من شعرها فى غبطة :

ـ كم سلطاناً فى عمرك القصير يا شقية ؟!

ـ لست صغيرة فأنا فى سنتى الخامسة عشرة ، وليس فى حياتى من السلاطين غير ثلاثة !

قرصها فى خدها :

ـ كاذبة !

فضحكت وهى تريح نفسها فى جلستها فوق كفل حصان كسرى الواثب فى معمعان المجزرة المفروشة على الأرض :

ـ أربعة ! . . جلابى عبد البديع عندما خطفنى من سنتين . . وأبو شنب فضة الدوادار قبل أن يهدينى إلى الأعور . . والأعور . . وأنت يا نور عينى !

ودفنت رأسها فى حجره فنشر على ظهرها الرطب بعرق الرقص منشفة كبيرة وطواها بيديه فى هناء :

ـ لو رآنا الأعور الآن لأعادنى إلى طباق مماليكه رقماً بين الأرقام وأوصى الشيخ عباس والطواشى إيهاب أغا بإذلالى هناك بين خشداشيتى الملاعين !

تفتق كيان عن ضحك ناعم منغم ورفعت إليه وجهاً كله مكايدة وخبث :

كلام فارغ . . . وهل يستغنى عنك وأنت سمير نهاره وصاحب ليله . . ؟! ما أنا بأحب إليه منك !

وتأوهت فى ألم لقرصته الثانية المغيظة التى لم يقصد بها خدها ، قبل أن تزيده من عبثها :

هل صدقت يا عبيط ؟ . . أنا عنده أغلى منك ألف مرة ! . . أنا أملكه من

أذنه . . ومن عينه الواحدة . . ومن نزواته . . أنا لا أنت ترياق همومه وصانعة أحلامه ، وإن أنت إلا فاتح شهية عابر يا ولد ! . . .

ووثبت فى خفة قبل أن يوجعها بالقرصة الثالثة ، وخطفت غلالتها فضمتها حول بدنها :

ـ لكن ليطمئن قلبك يا مرادى فهو الآن فى حظ ينسيه وجودك ووجودى إلى ما بعد انتصاف الليل على الأقل !

ـ تعالى ارشفى معى من هذه الكأس يا طفلة . . تعالى !

ـ اشرب وحدك فلن أدعك تلمسنى ما دمت تقول إنى طفلة . . متعتى الآن هى أن أتفرج على هذه السمكات الصغيرة الملونة . . أتعرف أن عيون السمك تخيفنى ؟

مط مراد شفته السفلى وهز كتفه فى دلال شبيه بدلالها :

كما تريدين ! . . يحسن فعلا أن تنتظرى حتى تكبرى !

وصب لنفسه كأساً جديدة وهو يسألها :

ـ لعلك لم تنسى أن تخبئى السم فى مكان لا تصل إليه يد الأعور ؟

فأخرجت له لسانها وبرقت عيناه اللوزيتان بالرغبة الطفولية فى المكايدة :

ـ بل وضعت القارورة فى مكان ظاهر من مخدعى حتى يجدها ويسألنى عنها فأقول له إنك جئت بها لتهديها فى أقرب فرصة إلى أحشائه ! ضحك الغلام الأمرد ونظر فى عينيها من فوق حافة الكأس :

ـ تقولين إنه الآن فى حظ ، فأى حظ للأعور فى غيرنا ؟

ـ آه . . أنت جديد هنا مثل مرآتك هذه تماماً . . لا تعرف عن مولاك شيئاً . . هل تريد أن ترى بنفسك ؟

نهض متحاملا على نفسه :

ـ تعال إذن . . ستنتظرنى عند أول سلم البرج حتى أجىء من جناحى بعباءة أثقل . .

وعادت إليه بعد قليل فى سروال وصدرية وعمامة تبرق فى مقدمتها ماسة :

ـ اكتم وقع خطاك فى السلم وإن استطعت فاكتم أنفاسك !

وخلع العاشقان الصغيران نعليهما وتكتما غمزاتهما المتضاحكة حتى أفضى بهما السلم الحجرى إلى باب الحجرة العلوية الذى كانت الفتاة تعرف كيف تعالج مقبضه النحاسى فى حذر ، فلما وسعها أن توارب الباب اختلست مما يدور وراءه نظرة قبل أن تتقاصر فى وقفتها لتمكن صاحبها من الرؤ ية من وراء كتفها وهى تشم الرائحة النفاذة التى هبت عليهما من الداخل . . .

ـ والآن انظر سر مولاك !

فى البداية لم ير شيئاً واضحاً إذ لم يكن فى المكان الرحب غير ضبابة رمادية غامرة تملأه وتتصاعد من غموضها همهمة وضحك وسعال ، ثم بدأت تتوضح لها نتف من حقائق المكان ، فهذه الثعابين الطويلة العديدة التى تمسك بأطرافها الأيدى هى فروع النرجيلة العملاقة التى تتوسط إخوان الصفاء وتسقيهم بأنفاسها ، وهذه اليد العجفاء التى تلقى فى قلب جمرات الموقد قطعاً كبيرة من خلاصة الحشيش النقية هى يد الأعور المضطجع فى صدر القاعة المفروشة بالمساند المريحة والحشايا البهيجة الألوان ، وهذا القزم الذى يتراءى فى الباب كالدمية القميئة والراكع عند هامة النرجيلة وفى يده ريشة التهوية ركوع الطبيب المعالج عند هامة العليل الغالى هو البصاص الأعظم « كروان » رئيس استخبارات الوالى ، أما الثلاثة الآخرون فقد ظلوا مبهمين كالألغاز فى قاع الضباب . . .

وهمس مراد فى أذن عبير وقد غلبت دهشته على حذره :

ـ انظرى ! . . إن على رأس أحدهم عمامة !

ونفثت عبير همستها فى أذنه وهى تغالب الضحك :

ـ ألم تكن تعرف أن من أرباب الأقلام أصحاب نرجيلة فرسان مزاج ؟

وتبيننا بعد قليل نبرة الأعور المألوفة لهما ، لكنها مشربة بالانتعاش :

ـ غير لنا ماء النرجيلة يا كروان . .

ثم توضحت من فوضى الحديث المضطرب كلمات قليلة تلفظها أصوات خشنة ويمزقها سعال بلغمى :

ـ يا متجلى ! . . أعظم من هذا الصنف لم نزرع !

ـ نحجزه لمزاج الأمر ! ! . . .

ـ خسارة فى دود الأزقة ! . .

ـ صلاة النبى أحسن . . مزاج أكابر !

وعند هذا الصوت المتهافت الأخير شهق مراد شهقة كتمتها صاحبته بكف خائفة :

ـ تريد أن تفضحنا ؟

ـ أتعرفين من هذا ؟ ! . . الشيخ عباس ! . . والله العظيم الشيخ عباس ! . .

وكان الدخان قد خف أثناء تغيير ماء النرجيلة كاشفاً بعض معالم الشخصيات المسترخية على المساند ، فهمست الفتاة مائلة بعنقها نحو صاحبها المشدوه :

ــ صـدقت ، هذه سحنتـه وهذا قفـطانه !. . . من يكـون الـرجـلان الآخران ؟ لكن لسان صاحبها خرس عندما هوى كف الوالى فجأة فى مداعبة ضاحكة مستهينة ، على قفا الشيخ :

ــ قم إذن يا قرد الكتاب وفرجنـا على مفعـول مزاج الأكـابر فى طـاسة نافوخك الصدئة !

وكان كروان بجسمه الخفيف المرن قد عاد من ركن المكـان بالنـرجيلة وركع أمامها لتجهيزها ، فانتفض الشيخ عباس واقفاً إثر ضربة من طـرف مركوب الوالى فى خاصرته ، وتناول أحد ضيفى الوالى طبلة كبيرة كانت فى متناول اليد كأنها تنتظر ساعتها . . .

وعرض الرجل جلدة الطبلة لنار الموقد قبل أن يمسـح عليها بكفـه ثم أراحها على فخذه وبدأ يعالجها بأنامله وهو يهز وسطه على نغمة رتيبة :

ــ أنقر لك يا شيخ عباس !. . أنقر لك يا شيخ عباس !. .

وكان الشيخ يحبك الحزام على خصره وهو يتضاحك متظرفاً فى رده :

ــ وهل فى القاهرة كلها مثل أصابعك على الدربكة يـا معلم مشمش !

همس مراد فى أذن صاحبته وهو يطوقها بذراعيه من ورائها :

ــ الآن عرفت هذا الرجل ، فهو زعيم تجار الحشيش . . .

ــ اسمه مشمش ؟

ــ اسم الصنعة . . وهو من غناه يصون أمواله فى بلاليص . . وبلاليصه نافدة على بلاليص الأعور !

ولمع بريق فى قلب الدخان ورنت صـاجات فى يـدى الضيف الآخر ، وصاح بظلم فى طرب :

ــ الـرقص الرقص يـا عباس !. . . وصهلل يـا حـاج محمـود واضبط صاجاتك واوزن نغماتك لرقص المشايخ !. .

وهاصت الضبابة الرمادية وعظمت ضجتها وانفلت عيارها عندما بـدأ القفطان يتخلع ويلعب بطنه وردفيه ، فاستطاع مراد أن يرفع صوته وهو يشد على جسم صاحبته قبضتيه :

ــ وهذا الآخر أعرفه بالسمع ، فهـو صاحب زراعـة الحشيش الكبرى ببـاب اللوق . . الحاج محمـود اليوسفى . . عنـده من الجوارى يـا بنية من لا يقبلن مثلك وصيفة !

غضبت عبير وغرست ظفرها الطويل فى يد الغلام القابضة على صدرها حتى تململ من الوجع ، وأحست برأسها يدور ويتميع فى دورانه كأنه يحاول الإفلات من عنقها والطيران فى الفضاء ، ثم تأوهت فى ضعف :

ــ لماذا لا يكون لك شىء من هذا المزاج ؟. . . هذا العطر يكاد يفقدنى وعيى . . ما أعجبه !

ــ لن تجدى منه عندى حتى تتعلمى هذه الحـركات من سيـدنا الفقيـه يا جاهلة !

لكن الرقصة لم تطل ، فقد تهاوى الشيخ عباس وهو يشخر ويعتذر فى ذلة وانكسار لمركوب الوالى الذى استراح على بطنه وسط عاصفة من السخرية

ــ خيبة الله عليك ، لو باعوك فى دكة المماليك مـا جئت بنصف درهم وسمع مراد وعبير صوت بصاص الوالى :

ــ لم ار مثل بطن هذا العجل إلا بطن بلباى ، كلاهما يسعـه أن يبتلع الخروف ولا يبالى !

وقال بظلم فى صوت مفعم بالاستمتاع ، رائق كما لو كان المخدر يمسح عليه بصفاء عجيب :

لو رأيت يا كروان بطن بلباى ونحن ندخل عليه بزيطة المعلم ! . كان كرشه الهائل يزحف أمامه على الأرض كأنه يسابقه فى استجداء الرحمة . . ولم يكف عن الاهتزاز المتوسل إلا بعد أن طمأن خير بك صاحبه على رقبته وأقسم له أننا سنكتفى بسجنه فى برج القلعة . . وأقسم أنا أنى رأيت ذلك الكرش الأعظم وقد تبسم عندما قال السلطان الجديد إنه سيأكل فى سجنه مثل ما كان يأكل فى سلطنته ، وأن ناظر المطبخ سيقصد محبسه كل صباح ليسأله عن هواه فى مأكول اليوم ويصدع بأمره . . نعم ! رأيت الكرش يبتسم ! . . .

وظهر صوت كروان بعد أن هدأت عاصفة الضحك وهو يقول أول كلمة جادة فى القعدة الزائطة :

ــ السلطان الجديد . . السلطان الجديد . . متى يـا سيدى الـوالى يفرغ صبرك على هذه القراقوزات التى يرفعها ويخفضها خير بك على هواه ونحن نتفرج ؟

أرهف الولد والبنت سمعهما عند الباب الموارب وهما محتضنان فى دوار وسكون :

ــ شوف يا كروان . . أنا أقول لك !

وسكت بظلم إلى أن مست ركلته جثة الشيخ الملقاة عند موطىء قدميه ليستوثق من سباته قبل أن يستأنف كلامه :

إن خير بك لم يكن ليجد أطوع من بلباى الذى كان يشير إليه فى كل مسأله ويقول لمن يكلمه فيها « قل له ! » . . وأنا أعرف أنك لست الوحيد الذى أدهشه أن خير بك تعاون معنا فى رفع الرومى إلى العرش وعزل البهيم دون أن يطلب لنفسه شيئاً أكثر من منصب أتابك العسكر الذى كان يشغله

تمربغا . . وليس فى هذا البلد من يفهم خير بك كما أفهمه . . لقد نظر فينا نحن أنداده فوجد أن نادر الألفى مايزال غائصاً فى خيرات الأحباس لم يعتصر كل زبدتها ، ووجدنى أعمل لقبضة تمربغا على العسكر حساب العاقل الذى لا نخطو خطوة إلا بعد التدبر والتفكر ، وبخبثه الذى يلقف خبثنا أدرك أن ساعته هو لم تدق ، فكان ما صنعه هو عين العقل ورأس الحكمة وآية الدهاء ، إذ يضع يده على القوة الفعلية الضاربة ويزنق تمربغا على الأريكة كما زنق « قل له » من قبل ، زنقة الكلب فى الطاحون ! . . هل فهمت يا كروان ؟

روح كروان بالريشة على هامة النرجيلة فى انفعال عصبى :

ــ وفهمت أيضاً أنه يتأهب إذن لانقضاض قريب ؟ أم أن فى فهمى خطأ لا أتبينه ؟

ــ وكذلك نادر الألفى . . ونحن أيضاً إن شاء الله على أهبة ، وليالينا حبالى ! . . .

ليالينا حبالى . . ليالينا حبالى . . واستند مراد بكتفه على الجـدار وفى جبينه صداع مبرح وشعر بجسم فتاته يتهاوى ويثقل على ذراعيه ، فنظر فيها وهو لا يكاد يقوى على فتح عينيه فإذا هى غائبة عن الوعى ، وتخيل لا نهائية سلم البرج التى ينبغى عليه أن يهبط فيها الآن فى سكون وهو يحمل فتاته التى ضربها العطر الفاغم فى مجمع أعصابها فكادت تخونه إرادته ، لكن خشيته من افتضاح أمرهما شدت من عزيمته فى نزوله المضنى وصلبت طوله ، والبنت على كتفه ثقيلة كأنها البرج كله على كاهله ، وإن تكن طرية غضة . . .

(٣)

ظهر إدريس على حصانه الأسود عند حدود الأرض البور التى تتنازعها المتـاهات الـرملية ومنـاطق الكلأ الضنـين فى أقصى الطرف الشـرقى لميت جهينة ، عارى الصدر حتى وسطه حيث يبرق الحزام الجلدى الأسود المطعم بنقوش من فضة مطروقة ، مديد الساقين فى سروال قطنى أبيض ، وبـريق

الفضة يلمع فى السرج والعنان وفى مقبض السوط الذى يمسكه فى يده ، وعندما اقترب من الطاحون أرخى العنان فى يده ورحى الطاحون يملأ سكينة الصباح بجعجعته القوية ، فلما لم يعد بين رأس حصانه ورأس الرجل الجالس عند باب الطاحون أكثر من ذراع رفع الرجل بصره عن المغزل الذى فى يده إلى الفارس الصامت ، واستوعبت نظرته شكل قدميه فى الركاب حافيتين ثم الصدر المتفجر بالصحة ثم استقرت فى هدوء على الوجه الناطق بالعافية والثقة والكبرياء المطمئنة . . .

والتقى بصر الرجلين فابتسم الجالس بمغزلة عند الباب وهو يهرش فى رأسه المحلوق بالموسى وذقنه المهوشة التى يغلب سوادها على بياضها :

ـ قيل ادخلوا بسلام آمنين !

لمس إدريس عنق حصانه بطرف سوطه المطوى فى يده ورد التحية بسؤال قاطع :

ـ من أنت وماذا تفعل هنا ؟

هرش الرجل فى مرقعته التى لا تستر الكثير من جسمه الأسمر الناحل وقال دون أن يتحرك من مكانه :

ـ أنا هنا أغزل زعبوط سليمان أبو طاسة فى مقابل لقمتى ، وأنا الشيخ خليل محسوب المتجبر المتعالى ، وأساعد عند اللزوم الثورين الدائرين فى الطاحون ! . .

ـ ما الذى جمع أبو طاسة عليك ؟ . . أنت من القاهرة وهو فلاح لم تدهس قدمه أرضاً غير هذه !

ـ جمعتنا حاجتى إلى اللقمة وحاجة أبو طاسة إلى الزعبوط !

ثم ضحك قبل أن يقول فى بشاشته :

ـ مرحبا بك عند عمك الشيخ خليل !

ـ تأدب يا آكل الأفيون فلست عماً لمثلى . . لا تسق لى الهبالة على الشيطنة . يبدو ، عليك أنك لا تعرف من أنا ؟

وضع خليل المغزل فى حجره وانعوج بظهره على جدار الطاحون :

ـ ابن شيخ البلد شىء كبير والجهل به لا يغتفر !

قال إدريس وهو يفرط الكلام على الرأس الحليقة اللامعة ، من أعلى :

ـ ماذا كنت فى القاهرة قبل أن تجىء بك أنت وصاحبك امرأة أيوب ؟

ـ كما أنا : الشيخ خليل !

ـ عمل تعمله ؟ . . لك شغلة . . ؟

ـ أنا محسوب النور الإلهى !

زجر إدريس والتمعت فى عينيه عنجهية غاضبة :

ـ اسمع يا جدع أنت ! . . لا وقت عندى لتخريفك . . وأنا أكلمك لأن الأستادار كان عندنا الليلة وهو الذى طلب منا أن نستعلم عنكما وعن زميلكما الذى سبقكما . . الأستادار بنفسه . .

تبسم خليل وحك ظهره فى الجدار بحركة متلذذة :

ـ والله عندى لك شىء أحسن من الاستعلام والتحرى ووجع الدماغ هو أن تبارك لهما فهما يشتغلان الآن ثورين !

ـ اعلم أنى أريد الأسماء الحقيقة وأنى أستطيع أن أعرفها من غيرك . . ما اسمهما ؟

ـ ليس اسمهما من الأسرار والحمد لله ، فالثور الأول القوى الذى كان

أول الاستفتاح اسمه الشيخ موسى . . رجل مبروك وحياتك !

— موسى أم عيسى ؟!

— موسى كما أقول لك . . والثور الثانى هو مريد جديد ناشىء انجذب فى أول شبابه وحلق الزلبطة وساح فى بلاد الله وفى ملكه سبحانه . واسمه الشيخ درويش أبو خالد . . وندلعه فنقول له رح يا خالد تعال يا خالد . . ادخل عليهما . . ادخل بارك لهما . . ستجدهما إن شاء الله فى منتهى الانشراح للشغل !

جمد إدريس برهة وإرادته متأرجحة بين استعمال العنف فى الحال والاطلاع على ما يجرى داخل الطاحون ، ثم نزل من فوق حصانه وقصد الباب وهو يضرب فخذه بمقبض السوط ، وحجر الرحى هدار وغبار الدقيق هباء منتشر فى خيوط الضوء المنصبة من فتحات السقف ، ولا ثور ولا جاموسة دائرة ، بل أكتاف قوية تدفع ذراع الحجر وعضلات بارزة فى سواعد قوية وصلعتان يشر منهما العرق على وجهين ملتحيين ، ثم أخذته العيون فتوقف الإنسانان عن الدوران وهدأت الجعجعة ووقفا ينتظران معنى ظهور الفتى المتعاظم . . .

— ماذا تفعلان هنا ؟

— كما ترى يا سيدى ، نطحن . أنا محسوب الست الطاهرة عمك الشيخ موسى وصاحبى الشيخ درويش !

تأمله صاحب السوط وشعر بما فى عينيه من سكينة متحدية قبل أن يزعق فى وجهه :

— هذا عمل حيوانات يا أهبل !

سارع المجذوب الأصغر إلى الرد فى هذه المرة :

— ما دمنا راضين يا سيدى !

— الدنيا ليست فوضى وعندنا هنا من وجع الرأس ما يكفينا ، هل تفهمون هذا ؟ . . الأستادار نفسه هو الذى يسأل !

— فالله خير حافظاً . . وهو لا ينسى أحبابه !

وفجأة مرق من بين الأرجل فأر كبير وتوارى فى لمحة وراء الحجر الكبير ، فضحك المجذوب ووجه كلامه إلى الشاب العابس الذى يكاد يسد باب الطاحون بقامته وغطرسته :

— ما أكثرها هنا . . أكثر من طوب الحيطان !

ضرب ابن الملتزم ركبته بمقبض السوط وأظهر أن صبره ينفد :

— الأستادار لن يسكت على وجود غرباء فى التزامنا . . والتحرى دائر ومن مصلحتكم أن تتكلموا . . دعكم من تخريفات المجاذيب والكلام الذى لن يرضى عنه الأستادار ولن يسكت عليه والى الجيزة قد يشمل الضرر غالب وسليمان ، وأظن أنه لا يجوز أن يكون ردكم على ضيافتهم أن ترموا بهم فى داهية . .

وجاءه الرد من وراء كتفه بصوت خليل الذى نهض واقفاً فى الخارج وظهرت نتف من ألوان مرقعته :

— ثلاثة مجاذيب على باب الله لا يخيفون أحداً !

وضحك المجذوب القوى وهو يميل بساعديه على ذراع الحجر متأهباً لاستئناف العمل والصمت :

— ليس من السهل جرح أهل الله والحفر وراءهم !

وأضاف المجذوب الصغير وهو مثل صاحبه يأخذ الوضع المائل إلى الأمام ويشد عضلات جسمه :

ذنبنا على جنبنا يا ست يا طاهرة !!

واتجه بصر الجميع إلى الأرض عندما قطع ثنائى من الفئران مسافة ما بين الجدارين فى مطاردة خاطفة مجهولة النتيجة ، فقال المجذوب الصغير فى دهشة :

— ربما جاء يوم أكلت فيه الفئران بنى الإنسان !

زفر إدريس من الغيظ وهو يعلن انصرافه :

— لن تقولوا إنى لم أخلص لكم النصيحة !

وعندما وثب إلى سرجه كان المجاذيب الثلاثة قد صاروا عند باب الطاحون صفاً من ألوان صارخة وصلعات لامعة وابتسامات طيبة . . .

وانغرس المهماز بقسوة فى بطن الحصان . .

ومرت لحظة صمت قبل أن يرتفع منهم صوت :

— هل تريدان رأيى ؟

كان خليل أول من تكلم بعد اختفاء ابن الملتزم ، والمغزل فى يده عاد إلى الدوران :

— يبدو أننا لا مفر لنا من أن نتحول إلى سياح حقيقيين متطرفين . . وإن كنت أستبعد أن تشرق أى حقيقة فى مثل هذه الأنفس الثلاثة العكرة !

وسأل خالد فى وجوم :

— يعنى لابد لنا أن نرحل ؟

وكانت فى صوت عيسى عندما تكلم كل مرارة العمر :

— قبل أن يخطف عزرائيل روحى أريد شيئاً واحداً . . بعيد المنال لكنى

أريده . . أريد أن يكون لى هذا الولد أبو حصان أسود أربعاً وعشرين ساعة ، على أن يكون هذا الكرباج الجميل فى يدى ، وعندى صحة ، وطال الصمت قبل أن يتفاهم خالد وعيسى بالنظر على الدخول إلى العمل ، لكن ما أن هل أولهما على الباب حتى تدافعت إلى شقوق الجدران جماعة من الفئران كانت قد استباحت لنفسها ما حول الحجر والرحى . .

— إنها تتزايد بسرعة مخيفة !

لكن الجدار فى الخارج تلقى ظهر خليل عند عودته إلى غزل الزعبوط ، والطاحون ما لبث أن رفع جعجعته مالئاً بها الفضاء الرملى وما فيه من نتف الكلأ المتناثرة تحت الشمس . . .

(٤)

كان وسط الدار من حولها عارياً ومفتوحاً للسماء ، وكان جمودها يستريح من حين إلى حين فى تنهيدة طويلة ، فالله وحده يعلم أين اختفيت يا أيوب وهل أنت لابد فى جحر أم مسجون أم ميت ، وكانت فحول اللفت الكبيرة تغلى فى الماء أمام ست الكل التى تقلبها فى الحلة السوداء بعود يابس من شجرة توت ، منتظرة نضجها فى صبر هادىء عند صهد الكانون .

وبرزت امرأة خالها من باب القاعة الوحيدة وعلى وجهها الرزين شعور بالتقزز ، وبين إصبعين من يدها المرفوعة أمامها ذيل فأر كبير هامد ، وقالت بصوت يمازج هدوءه حزم عجيب :

— ميت من الليل . . .

ومشت ، عجفاء خمسينية ، وهى تسند جنبها وطوحت بالفأر المتخشب إلى الفضاء وعادت لتغسل يديها فى ركن الزلعة :

— جنبى رجع يوجعنى يا بنتى !

ونطق العطف فى نظرة ست الكل إلى وجه امرأة خالها الذى يتوارى فى ملامحه الجادة غروب جمال غابر :

ــ سلامتك . . كنت ارتحت منه . . وايش رمى المحروس على الموت ؟

ــ لقيته وراء الدكة . . سمين يا بنتى ومتخشب . . الفئران تقرفنى ، الحية والميتة !

وتكومت ست العيلة قرب صديقتها وتنهدت مفتتحة حديثاً آخر :

ــ ابن الكلاب رجع يقطع سكة البنت !

ونضحت فى صوتها مرارة عمر كامل ، وحطمت يدها المعروفة طرف الغصن الناشف الذى كانت قد التقطته من الأرض :

ــ أنا مطمئنة لفاطمة ، لكن لو عرف غالب يا ست الكل تكون المصيبة . . .

كانت ست الكل تعرف كل مواجع زوجة خالها كما كانت شريكتها فى صيانة سر قديم انطوى مع شبابها ، فتركت فحول اللفت تتقلب فى الحلة وتأملت فى عطف صامت ذلك الفك القوى المطبق فى عناد وكل الوجه الصارم على ما به من ضمور وكآبة ، ثم قالت لها وهى تلمس عظمة ركبتها البارزة تحت القماش الأسود البالى :

ــ من بكره يخرج يوسف بالعنزات وفاطمة تلزم الحائط معنا ويادار مادخلك شر . . ولا تحملى الهم !

وانتفضت ست العيلة فجأة برعدة شديدة تمشت فى بدنها الضئيل وطفح على وجهها حقد مختزن وومض لمعانه السىء فى عينيها الضيقتين :

ــ ألف لعنة ! . . ألف لعنة يا حمزة وألف لعنة يا إدريس ! . . قالت ست

الكل وهى تمسك صديقتها من كتفها وتهزها خائفة عليها من الإغماء المألوف الذى يتربص بها :

ــ صلى على النبى يا امرأة خالى ، وما فات مات !

ــ مات ؟!

ورفعت ست العيلة رأسها فى كبرياء شاحبة :

ــ كلب من نسل كلب . . إن شاخت الأمهات طابت البنات ! يا حسرة علينا . .

تلفتت ست الكل فى ذعر وهى تطبق بيدها على شفتى صاحبتها :

ــ اسكتى ! . . اسكتى يا امرأة خالى !

انتفضت الشيخة العجفاء وأغمضت عينيها وهى تزيح يد صاحبتها عن فمها المزرور على أطلال أسنانها :

ــ العمر ساكتة يا ست الكل ، لما قلبى انفطر !

ــ حلفتك بالحسين تسكتى . . صوت فاطمة طالع من الزريبة !

وانفرج باب الزريبة عن فاطمة التى تدافع من حول ساقيها تيس ضامر وجرو مقطوع الذيل ومعزتان هزيلتان وجحش صغير أسود خفيف الحركة فى قيادته للقطيع الصغير نحو الباب ، فسندت أمها جنبها وهى تنهض لتعترض الطريق :

ــ ردى العنزات للزريبة فلا خروج اليوم !

ابتسمت فاطمة لست الكل القابعة عند الكانون قبل أن تنظر إلى أمها مستفهمة :

ــ أنا ما أعرف أسرح بالعنزات ؟

ـ يوسف يسرح بها !

ضحكت فاطمة فى سرور من تعرف أنها جميلة الصبا :

ـ لحمى مر يا أمه ولا داعى لخوفك على !

لكن الأم صرخت فى وجه الابنة :

ـ اسمعى الكلام يا بنت .. غالب نفسه مع رأيى .. تقعدى مع أمك فى الدار ونكفى خيرنا شرنا يا فاطمة، إلا السعران ابن السعران قاطع السكة .. ألف لعنة يا ابن حمزة ! .. اسمعى كلام أمك يا فاطمة .. فى زمنى بنات عيونها كانت مفتحة ومع ذلك نهشهن السعران الكبير ! ...

فوثبت ست الكل إلى الكلام لتقطع على الأم ردتها الخطرة إلى الماضى الميت :

ـ اسمعى كلام أمك يا فاطمة ورجعى الجحش واخوته وتعالى كلى لك لفتة طرية !

قاوم الجحش حتى غلب أمره فكان آخر من عاد مهزوماً إلى الزريبة ، وعادت فاطمة تناوش أمها :

ـ أنا أقطع يده ويد غيره لو مدها !

ولكن ست الكل شخطت فيها لتبتر استرسالها فى المناكفة ، وألقمتها لفتة كبيرة تشر ماء ويتصاعد منها البخار :

ـ انسدى يا عروسة !

كانت فاطمة تنظر إلى أمها فى عجب من خوفها عليها ، وفى عينيها البزاقتين ومضات متباعدة من مرح مكبوت متمرد ، وفى وجهها الوسيم الصبيانى خفة ظل جاذبة ، صغيرة كالصبى لكن ناضجة كالثمرة ، وكانت فى

أوج المراهقة وعليها نضرة العرائس لم تكد تمسها شقوة العيش ، وقالت فجأة وهى تطوح بضفيرتها :

ـ يا ويلى لو عرف غالب ! ..

قالت الأم فى حزمها الهادىء :

ـ لا تقولى لغالب ؛ والزمى حدودنا !

ـ حاضر يا أمه .. لا بنات زمنك أحسن ولا بنات زمنى ، البنت تطلع لأمها !

فلم تكد تقولها حتى شلها الرعب أمام انفجار أمها الرهيب :

ـ اخرسى ! .. اترسى ! ..

كانت أمها كلها ترتجف وعيناها تبرقان ويدها الضامرة الشديدةالسمرة ترتعد أمام وجهها :

ـ يارب اقطع خلفة البنات من وجه الدنيا ! .. اقطع يارب خلفة البنات ..

وتهاوت فى نشيج عنيف فتلقتها ست الكل بحضنها حتى أراحتها على الأرض وهى تطمئن فاطمة :

ـ بسيطة .. أنا عارفه .. نرش لها يا بنتى .. هاتى الكوز من فوق الزير ...

عبت فاطمة بالكوز من الزير واستدارت فرأت زوجها وهو يخطو من عتبة الباب ويلمح مكان حماته من الأرض فيندفع نحوها زوجها مستفهماً عما أصابها ، لكن فاطمة وهى تناوله الكوز لم تكد تهم بالكلام حتى سارعت ست الكل إلى الرد بنفسها :

ــ روحها ساخت لما شافت الفأر الميت !

والتقت نظرتها بنظرة فاطمة التى عكست لها ارتياحها قبل أن تتكلم :

ــ كله من الفأر الميت يا غالب !

لم يسألها شيئاً حتى أفاقت حماته واعتدلت وتشهدت والتقطت من ست الكل حكاية الفأر :

لقيته يا ابنى . . متخشب . . وراء الدكة . .

قال غالب وهو يعيد الكوز الفارغ إلى زوجته الواقفة إلى جانبه :

ــ الفئـران مالئـة البلد أكثر من العـادة . . لكن صاحيـة . . والأنفار تصيدها فى الغيط وتأكلها مشوية . .

ــ أكلت منها معهم يا غالب ؟

ووضعت فاطمة يدها على كتفه وهى تسأل فى انكماش متقزز فرفع إليها وجهه المحب المبتسم :

ــ للآن ماذقت لحمها يا فاطمة . . وهو حلال على كل حال . . سألنا عم الشيخ هريدى وقال عند الضرورة حلال . .

ــ كيف الحال يا حماتى ؟

حمـدت ست العيلة الله قبل أن تنقـل الكلام بـطريقة فجـائية ، عـلى عادتها ، إلى موضع العنزات والتيس والجحش :

أنا كبرت يا ولدى . . كبرت وانهد حيلى . . فاطمة تساعدنى فى الدار ويوسف يرعى . . الوليد ما له عمل من يوم ما جاء من مصـر ، والجحش يسليه والعنزات تشغله . . أنا محتاجة لفاطمة يا غالب . . هنا . . معى . .

أمسك **غالب** بيد فاطمة فى حب :

ــ أحسن . . على الأقل تنظف لك الدار كل يوم من الفئران الميتة ! قالت فاطمة وهى تنحنى على رأس أمها :

ــ عيون فاطمة لكم كلكم !

ولمعت نظرتها التحتية فى عينى غالب باشارة تفهمه أنه المعنى بالكلمة قبل كل إنسان ، وقصدت ست الكل حلة اللفت مستطلعة حالها وتركت الحديث يجرى هادئاً بين الشاب وحماته وامرأته . . .

عادت إلى رحلة الخاطر وراء أيوب الذى أخذ معه طعم الدنيا وتركتهم يتكلمـون فى وقت واحد ثم يسكت منهم من يصغى قليـلا قبل أن يمسـك بطرطوفة من الكلام ويتشعلق بها . . وعرفت فاطمة أن غالب عاد ليـأخذ المنقرة الصغيرة لأن يد فأسه انكسرت وهو يعزق فى حوض الأبعدية الغربى عندما ارتطمت بحجر صغير عليه نقوش عجيبة وتصاوير . . وقالت فاطمة إنها كانت تحب أن ترى الحجر قبل أن يأخذه نقيب الأنفـار إلى بيت الملتزم وذكرت ست العيلة حجراً آخر قديماً كسر فأس فلاح فى زمن شبابها وباعه حمزة فى شبابه لليهود بوزنه ذهباً . .

وفحول اللفت تغلى فى الحلة السوداء وخاطـر ست الكل سـواح وراء أيوب ، وذهب حمزة يستوفى حظه من الكلام فينهض غالب ليبحث عن منقرته فى الزريبة ، ويوسف الصغير ينقض فجأة على المكان بطريقته العاصفة :

ــ الغدا يا خالة لمشايخ الطاحون . . وأنا كمان ميت من الجوع !

وقبـل أن يرد عليـه أحد انـدفع إلى خـالتـه وهـو يـرمى الحلة بـنظرة مستكشفة :

ــ هاتى فحل لفت يا خالة ست الكل وأنا أحكى لك عن الفأر الميت الذى وجدناه فى الطاحونة !

وسمعه غالب وهو يخرج من باب الزريبة وفى يده المنقرة فقال لعروسه التى اقتربت منه مستشعرة أنه لن يلبث أن يسرع إلى الحوض الغربى :

ــ جسمى يقشعر كلما سمعت عن فأر ميت !

(٥)

ضحك بعض المتلكئين عند البوابة ، ضحكوا وهم يعرفون أن ضحكاتهم ستغضب الحارس وتستفز شواربه المنفوشة ، فلقد خرج البهلول الأقرع من باب المجاذيب بين المغرب والعشاء ومرق فى العتمة قاصداً بوابة الزقاق التى ماتزال مفتوحة وعندها خلق كثير وحارس سليط شرس ، وبلغ الزحمة فشقها بضحكاته البلهاء إلى مكان الحارس ووقف أمامه والبلاهة ضاحكة فى وجهه السمين المشعر :

ــ أنا أغلبك فى النطة .. تلاعبنى النطة ؟

وانكسر الضحك عندما تلقى صدغ العبيط الصفعة التى توقعها الكثيرون وحبسوا فى انتظارها أنفاسهم ، لكن الصفعة نفسها لم تزلزل دفق المرح من نفس البهلول الذى انفلت عياره فى الضحك وحاول أن يرتجل رقصة وهاص الناس وهموا أن يتحلقوا لولا أن أفزعتهم صيحة الحارس المدوية :

ــ انصرف أنت وهو يا أزعر ... انصرفوا ... بيتك بيتك .. هز طولك ، أنت وهو .. بيتك بيتك ..

ورفع يده مرة أخرى كإعلان بالصفع وأنذر عبيط الزاوية الذى انسجم وتفتق خصره الغليظ عن حركات مذهلة :

ــ إن فتحت فمك بكلمة أخرى أخذت منى علقة سخنة ، فاهم يا عجل زليخة ؟

ــ والله أغلبك فى النطة ! ... تلاعبنى النطة ؟

هاج الوجه الدموى وانقض على العبيط الذى راح يتلقى الركل واللكم وهو يعوى ضاحكاً ويسقط ويقوم وما أن تواتيه فرصة حتى يلعب خصره من تحت مرقعته الوسخة تلعيباً عجباً ، ثم يدخل بقفاه إلى مجال الصفعة متهللا لها وجاذباً من حوله فضول الزعر الذين يستجيبون لغرابته فيقتربون ويتفرجون .

ــ برب الكعبة أنط أحسن منك ! .

وتفادى ركلة جديدة بحركة أفعوانية من وسطه ثم ضحك فى وجه ضاربه :

ــ نط وأنا أنط !

ــ امش من هنا يا ابن المخبولة قبل أن أعدمك العافية !

ــ الله يسامحك ! .. يقولها لك أحسن واحد فى بر مصر يلعب النطة !

وفى نظرة واحدة كشفت عين البهلول اللمحة الأخيرة من ظهرى رجلين كانا ينسلان إلى الزقاق لصق الحائط وهما يحملان بينهما فى ملاءة سوداء حملا ثقيلا يكاد يهد حيلهما ، وقبل أن يلقفهما ظلام الزقاق كان قد تبين دلق السقاء على كتف أحد الرجلين وانشرحت برؤيته نفسه ، فضحك للشوارب عن بعد :

ــ يجىء يوم ألاعبك فيه النطة ؟

ووثب إلى الزقاق مالئاً ظلمته بضحكاته ...

وقبل أن يبلغا باب الزاوية كان قد لحق بهما وأخذ يترنح فى طرب صامت مستمتعاً بلهاثهما العنيف حول حملهما الملقى بينهما على الأرض ، وكأن ما فى الملاءة لحم طرى يغوص تحت طرف سبابته الذى غمز المجهول مستطلعاً :

ــ لحم !! .. أنا عاوز هبرة لحم .. قولوا للشيخة والنبى .. هبرة لحم كبيرة ...

قال الرجل الذى يلمع على كتفه دلق السقاء :

ــ افتح لنا قبل ما يرانا أحد . . أحسن لك من غضب الشيخة !

ــ وآكل من اللحم ؟ هبرة كبيرة يا عم ؟

ــ اعقل يا مهبول وافتح من سكات !

وهمس الرجل لصاحبه فى الظلام :

ــ الحقنى يا زين الدين ، العبيط مزاجه يفضحنا !

اقترب الرجل الآخر من العبيط وأمسكه من ذراعه الطرية فى توسل :

ــ يا ابن والدى افتح أولا وتعال ارفع معنا العجل وأنا وحياة ستنا الشيخة أطبخها لك بيدى !

فاض البهلول بالحماسة وفتح ورفع ولم يتركهما عند سرداب زليخة إلا بوعد أكيد بالأكل بعد ساعة واحدة ، هبرة كبيرة محمرة . .

وعاد خلال حوش الزاوية المكشوف للظلام إلى الحجر الذى يحب الجلوس عليه عند الباب الموصد ، وجلس وانتشى فجأة بالسرور فارتعش ، ثم ضحك فى عبه :

ــ ضحكت على شنباته واللحم فات فات ؟

وتمطى ، ودمعت عيناه ، وسقط رأسه على صدره ، ولم يلبث أن تعالى شخيره . . والحجر اختفى تحت مرقعته ، والحوش ظلمة صامتة تتلقى شخيره وتبدده ، حريصة على أن يموت صداه قبل باب الشيخة التى تستقبل فى سردابها ضيفيها . . .

والأرض الرطبة الجوفية التى تعيش فيها سيدة السرداب كانت منقطعة

عن الخارج كله ، وغاية جهدها فى تلك الساعة أن تعكس نور المسرجة الهابط من الطاقة فى خفوت ، والمقرعة فى يد زليخة ، والملاءة لصق الجدار منتفخة ، وصاحب الدلق يخلعه فى عجلة ويرده إلى الشيخة :

ــ لولا الصيد المهم ما هان على أن ألبس دلق عبد الجليل الليلة . .

تناولت الشيخة الدلق ورفعته إلى شفتيها وقبلته قبل أن تدفسه فى الطاقة :

ــ متى يفيق الخلبوص ؟

قال أيوب وهو يدعك كتفه :

ــ يا لهفتى على شكل وجهه عندما يطير مفعول الفص الكبير ويفتح عينيه ويرانا !

واتسعت ابتسامة زين الدين الذى لم يكن تنفسه قد استعاد كل هدوئه بعد :

ــ واعتمدت زليخة بكوعها على طرف مقرعتها :

ــ إن لم يفق من نفسه أفقناه بمقرعتك يا ست الشيخة !

ــ هل كان خطفه صعباً ؟

ــ شوفى لنا فى الأول حلا فى بهلولك . . هو الآن بالباب ينتظر هبرة لحم كبيرة من هذا الذى قدر له أن يكون عجلا سرقناه لك لنأكله فى السر ! . .

تبسمت الشيخة فى هدوء

ــ لا تشغل بالك برضواننا فهو الآن يأكل كوم لحم محمر فى لذيذ المنام ! . . . أيهما كان أصعب على صانع نعوش فى دلق سقاه وحشاش عتيق مثلك يا زين الدين ؟ خطفكما الخلبوص أم دخولكما به الزقاق ؟

بدأ أيوب يحكى من الأول :

الخرابة بعد كوع بيت القاضى بخطوتين ، والناس زحام والمراهنة حامية ، أكابر وصاغر ، والديوك تنتحر فى المناقرة . . وعندما تأكدنا من وجود الخليوص داخل أحد البيوت القريبة من الخرابة قال لى زين الدين وهو يرينى الفص الذى معه . .

لكن زليخة رفعت فجأة مقرعتها فى وقفة انتباه :

ــ الملاءة بدأت فيها الحركة !

وتململت الملاءة قبل أن يقعد الذى بداخلها ويسقطها عن رأسه ، ودعك عينيه وتثاءب قبل أن تجول نظرته المذهولة فيما حوله ، فى مسرجة الطاقة وجو السرداب والعجوز الرهيبة والرجلين الهادئين . . وحاول أن يتكلم أو يصرخ أو ينهض على ركبتيه وارتج كرشه أمامه فى المحاولة دون أن ينفك لسانه الذى عقده الرعب ، لكنه ما أن جمع قواه للوقوف حتى دهمته صيحة خارقة من المجذوبة :

ــ اخشع ياشيخ عباس فالله يمهل ولا يهمل ، وكل خلبوص يأخذ نصيبه !

ووجف قلبه عندما دقت الأرض بمقرعتها فى حركة ذات جلال وخطر وهى تطلق صيحة أفظع من الأولى :

ــ محكمة !!

خفق نور الطاقة عند تلك الصيحة التى أرجفت زين الدين وأيوب الجاهلين بهدف زليخة من خطف الفقيه الراقص ، لكن ما صنعاه فى ليلتهما كان يملأ قلبيهما بالرضى والراحة المزهوة والشعور بالفتوة ، كل الحكاية التى لن يكون تصديقها سهلا على أحد ، زى بعضه ، فان هذا لن يستل من النكتة روحها ، من أول فص الأفيون الذى أجبراه بعد انتهاء عراك الديوك على

استحلابه ، وهو مزنوق بينهما وراء بيت مجهول ومتضرع فى الظلام وقارىء آية الكرسى ، إلى اقتحام الزقاق بفضل من الله وبهلوله ، إلى رهبة مقرعة الشيخة المرفوعة التى اسكتت حس الفقيه العائد من غيبوبة الخدر وألانت عظامه على الحصيرة البالية ، إلى هذا اللعاب الذى يسيل من شدقيه وهو يتطلع بعينيه الجاحظتين إلى أقرب الرجلين إليه ، وعند هذه النظرة البكماء حذره زين الدين فى صوت يريد بهدوئه أن يوحى بالهدوء :

ــ إياك أن يعلو لك صوت يا شيخ نسناس ؟

لكنه لم يجد رداً غير الرعدة العنيفة الخرساء والعيون المختبلة والكرش الهزاز ولعاب الرعب ، فدعا أيوب بإشارة من يده أن يدنو هو الآخر من ذلك اللحم الوفير المرتعد ويحاول أن يدفع عنه بعض الفزع الهائل الذى تملكه وتعمد أيوب وهو يكلمه أن يريه وجهه فى النور الخافت الساقط من المسرجة :

امسك نفسك يا ضلالى . . إن لم تعقل من نفسك وتفيق من الفص بالصلاة على النبى ألزمتك النطق بالضرب ، وحياة سيدك الأعور ! والشيخ فى كابوس فظيع وحدود الحلم والحقيقة مبهمة فى وعيه الملتاث ، لم يعرف أيوب الذى كان أقدم سكان بيته ، فمصمصت الشيخة بشفتيها وهى تخفى مقرعتها وراء ظهرها ولمعت صلعتها فى مسقط النور العليل وكشرت عن ابتسامة تفشت مجعدة فى وجهها :

ــ نعم نعم ! . . أرنى فرجنى يا لاعق النعال يا خلبوص الأعور . . نعم أرنى اهتزاز كرشك الذى أذاع صيتك فى مجامع الفاسقين القتلة ! فأمسكها أيوب من ذراعها الضامرة وقال لها فى أسف وحيرة :

ــ فقد الرجل النطق يا ستنا والكلام معه ضائع فى الهواء ! . . تعبنا على فاشوش والأمر لله ! . .

لكن زين الدين كان قد عاوده دوار القطعة التى قضمها لنفسه من الفص قبل أن يدفع به فى فم الشيخ ويأمر باستحلابه :

ـ لا لا . . اصبروا على النسناس . . بعد قليل سيتكلم . . سيتكلم بعد انتهاء الهز . . كل ما فى الأمر أنه ينصب لنا فرحاً فى البداية ويفرحنا على رقصاته التى ملكته العتبات والكباش والديوك والنساء . . صبركم بالله . . من غير المعقول بعد كل هذا التعب أن يقع لنا مفلوجاً . . إنما يريكم رقصه الذى تربى من خيره دهن بطنه ! . . . التقط أيوب الفكرة وانزعجت لها نفسه عندما استوعبها فسأل الشيخة فى قلق :

ـ فى هذه الحالة ماذا نصنع بهذه المصيبة ؟

ركعت زليخة عند الحصيرة ومست الصدر اللاهث بكفيها :

ـ هذا ما لم يكن فى حساب زليخة ، لكن المهم عند زليخة هو أن عمامته لن ترقص بعد الآن تحت مراكيب الظالمين أعداء الله !

وجاوبتها من كومة اللحم المرتجفة همهمات غامضة كالعواء ، فالتفتت إلى مريديها وقالت لهما فى صوت مفعم باليقين :

ـ هون عليك يا ساقى البن وهون عليك يا صانع النعوش ، إنه يخرج من عندى يوم يخرج معافى فى بدنه وفى روحه ، فإلى النوم واتركاه لى فإنى منذ الليلة ولية أمره .

وفى الطاقة خفق نور المسرجة خفقة متوهجة .

(٦)

* تلاشى الرنين الذى يدوى عند أبواب القلعة عندما تدق الكوسات وتقرع الطبول ، فانتظر السلطان تمربغا حتى تبدد وقع سنابك الخيل وهى تبتعد داخلة إلى الاسطبلات بعد أداء نوبة العشاء ، ثم ابتسم فى وجه الجميلة التى

نالت الإذن بالمثول وقال لها من مقامه العالى إنه تحت أمرها ، وسألها فى أدب رسمى أن تتفضل ببيان غرضها ، فأدركت بفطرتها اليقظة أن هذا العملاق الجميل الراسخ على الإيوان يريدها أن تفهم من أول كلمة أنه سيدبر لها راحتها على خير ما تشتهى زوجة سلطان سابق مسجون لكنه لن يعبر هذا الجسر إلى فتنتها أو يطمع فيها لنفسه ، فالتزمت هى الأخرى حد الأدب الرسمى ، وإن تكن نثرت وهى تحنى رأسها خصلا حالكة السواد عجيبة الطول والحيوية من سلاحها الجبار الذى كان بائعها يمشطه بأصابعه أمام الجموع المبهورة فى دكة المماليك ويفرده ويطويه وهو ينادى عليه :

«يا صاحب النصيب فى ليل شعرها هنيا لك !» ثم رفعت رأسها بحركة أخرى تعرف أنها تخطف الشعر السائب وترد خصلة فوق رأسها وتبعث بأطرافه اللماعة الغزيرة ضاربة فى ردفيها ، وتنهدت مفتتحة ردها على سؤال الرومى الحاكم :

ـ بين يدى مولانا السلطان جارية ضعيفة لا تعرف مصيرها ، ترملت بعد شهرين من زواج شرابه مر ، وجناحها مكسور !

أستوعبتها نظرة السلطان الهادئة ووزنت نعومتها الفذة وعلى ركن فمه شبهة ابتسام :

ـ ترملت . . ؟! زوجك كما تعرفين حى وعنده ما تشتهى نفسه من فرش ومأكول ، فإن كان ما بك رغبة فيه كسرنا المواضعات السلطانية وأمرنا أن يفتح لك باب محبسه فى أية ساعة تختارينها من النهار أو من الليل . .

آه ! هكذا قال لى عنك ! . . سخريتك أوجع من سيفك على رقاب العباد ، وقسوتك رومية مثل أمك ! . . هذا معنى ابتساماتك الخنجرية وكلماتك المنقوعة فى السم . . سلاحى خائب إذن وأنوثتى مردودة إلى سيد الخائبين الذى تعلم عجزه كما تملك مفتاح محبسه ! . . أنت مطمئن ومتسلطن وقلبك فاتر وإرادتك فى قبضتك والدنيا تحت قدميك ، لكن كل هذا الاحتدام

الفائر فى دمها الجركسى لم تفلت منه شرارة إلى صفاء وجهها المتورد الذى صور للسلطان فى الحال مزيداً من الانكسار وهى ترد الطعنة بالعتاب مسبلة جفنيها :

ـ مولانا السلطان يعرف أنى أرملة من ليلة زفافى ، وأن فتح باب المحبس لى لن يفتح على بشىء ولن يكون المطلب الذى حفزنى إلى طلب المقابلة ، لكن لعل لمولانا لذة فى نبش جراح المنكسرات !

ـ ما هو مطلبك إذن ؟

قالها سلطانية حازمة ، فإن تكن لم تفهم الغمزة ويلزمها الوخز فما على السلطان حرج وهو حر يأخذ ويدع ما يشاء ، هكذا فهمت وهى تطرد تحت الخمار الرقيق خصل شعرها المتمردة بطبيعتها ، وتكلمت فى صوتها نبرة جادة :

ـ انظر عشمى فيك يا مولاى ، فهما فى الحقيقة مطلبان !

وفى هذه المرة سجلت المرأة بادرة الدهشة التى ظهرت فى وجه الرجل ثم أخفتها فى الحال سيطرته الخارقة على شعوره ، وأضافت قبل أن يتكلم السلطان :

ـ ومطلبى الثانى متوقف على إجابة الأول ، وحسن ظنى بك فوق ما تظن !

البنت تلعب لعبة أكبر من عرض روحها على السيد الجديد ، البنت ليست سهلة ، لكنه مع هذا الفهم سقط فى شبكة الفضول البسيطة :

ـ تفضلى بشرح هذه الفزورة اللطيفة !

رشقت عينيها فى عينيه وكان صوتها مطمئناً :

ـ مطلبى الأول هو أن أختار بنفسى المكافأة إذا ما ظهر لمولاى أن للسر الذى أحمله إليه خطره ونفعه . . عندما يتبين أنى صادقة عندما أقول له إنى مفيدة وكلى منافع ، بصرف النظر عن جمالى الذليل الذى لا يحرك فى مولاى شعرة !

وقع فى الإيوان الرحب صمت متآمر عميق يملؤه وجود الحسناء عند آخر درجات الأريكة ، وسجلت المرأة حركة عضلة الفك التى أفلتت من رقابة الرومى الصارمة على نفسه ، قبل أن يقول الرجل بزيادة وتر متهدج فى صوته :

ـ أنت جميلة الجميلات يا جلبهار لكن عندى من هموم النساء فوق احتمال رومى واحد !

ـ يا مسكين ! . . ويلى ! عفو مولاى إن أفلت لسانى كلمة خائبة !

ـ بل أنا مسكين حقاً يا جلبهار . . ومعالجة أمور هذا البلد تريد يداً متفرغة ، وأنا أرى يدى قوية وصالحة . . والوقت ضيق . . لكن لنتكلم فى شأننا ، ما هو المطلب الثانى ؟

ـ والمكافأة ؟ هل اتفقنا أول كل شىء على أن أختارها أنا ؟

ضحك السلطان لأول مرة من قلبه وانبسطت ملامحه الوسيمة بل تغيرت جلسته المتصلبة :

ـ أشعر أنك حددت من الآن هذه المكافأة . . هل أستطيع أن أعرفها ؟
وببساطة نهضت على ركبتيها ونثرت شعرها بكبرياء ، وسقط الخمار :

ـ هذا هو المطلب الثانى يا مولاى : فأنا أريد أن تكون من الآن على بينة من النعمة التى ترفضها . . ومكافأتى التى أريدها هى أن تقبل منى هذه الهدية . .

صحيح أن من غير المعقول أن يدخل أحد على السلطان دون استئذان وصحيح أن على الباب الحجاب ، لكن تمربغا شهق وزاغت نظرته نحو باب الإيوان وقد فكت جلبهار بأصابع نشيطة رباطين فى عباءتها فإذا العباءة على البساط وإذا هى مطمئنة مبتسمة عارية وشعرها كموج الليل !!

وما كان طريق تمربغا سهلا من قافلة العبيد إلى دكة المماليك إلى دهاليز السياسة إلى فتن العصابات إلى العصائب السلطانية ، ولقد وقعت له فى الحياة أعاجيب تخطى مآزقها ساكن النفس وكسبها بالعقل المهيمن والعصب الثابت ، لكنه لم يضطرب فى عمره كله مثل ما اضطرب أمام الحسن النفيس الفذ الذى صدمته به أجرأ نساء الدنيا ، هذا الشعاع من فلق الصبح الذى ناحت عند أنواره مواجع بلباى ولطم عجزه . هذه الفهدة الكاسرة البازغة بالظفر والناب لمعركة حياة أو موت . . .

وكان يتوسل إليها وهى تضحك ضحكاً يشارك فيه كيانها المرح كله كأنه دعوة إلى الرجل السلطان أن يشعر معها بأن الحالة التى وضعته فيها جرأتها ممتعة وأن جو الجلسة كله ينبغى أن يتغير إلى شىء من الندية والتفاهم . .

ـ جلبهار اعقلى ! . .

ـ برودك يطير العقل . . هات لى عقلا من عندك ! . .

ـ خذى . . خذى العباءة أتوسل إليك . . البسى . . الله يسترك . . سنتفاهم . . سنتفاهم ! . .

أعطت ظهرها للعباءة التى بين يديه ورمته بلفتة عين من فوق كتفها ومن خلال الليل الخافق حول وجهها المشرق بالنصر :

ـ ما دمنا يا مولاى تفاهمنا فألبسنى العباءة !

فلما ألبسها العباءة استدارت له وغرست رايتها :

ـ والآن اربط ما حلته يدى !

وتفرجت على أصابعه المتلعثمة فى استمتاع حتى ابتعدت عنها النفثات الدافئة من أنفاسه المتلاحقة عندما أسرع فوق درجات الأريكة صاعداً نحو مركزه . .

وقبل أن يجلس سألها بصوت مضطرب :

ـ ما هو السر يا مقدامة فقد آن أن أعرفه ؟

صعدت جلبهار الدرجات السبع واحدة فواحدة فى مهل متطاوس ، وبدفعة من ردفها زحمته فى الكراسى السلطانى :

ـ أنا أحمل معك همومك من قبل اللقاء وأنت لا تدرى ، ولك هموم ثلاثة اسمها بظلم ونادر والدوادار ، ولى فى الثانى والثالث كلام ينفعك فى حينه ، أما الأول فأنا كافيتك شره من الآن . . حياته رهن إشارتك . . حياته هنا !

وقبضت يدها قبض مالكة الزمام المتمكنة ثم مدت ثلاثة من أصابعها فبرمت بها طرف شارب السلطان :

ـ لكن قل لى أولا يا قليل الكلام إنك لن تأخذ منى سرى ثم تقتلنى به !

ـ الرجل الذى تكلمينه ليس فى كل الظروف وغداً !

ـ يكفى أن تقولها لى فأضع يدى فى يدك مصدقة . . قلها يا جميل ، يا حجر . . ألا تريد أن تقولها لجلبهار التى يحضنك قلبها ؟

ـ تكلمى . . لن أغدر بك أبداً . . أقسم بهذه الخصلة . . ما أجمل شعرك !

ورفع الخصلة وقابلها بشفتيه ثم أعادها إلى مكانها فى عناية رقيقة :

ـ حياة بظلم فى يدك ؟ . . أتعرفين معنى هذا ؟ . . انهيار حلف بظلم ونادر الألفى . .

فأمسكت أذنه بين أصابعها وعركتها مؤنبة وعاتبة :

ــ نصف المسافة إلى هدف عمرك . . هنا . . فى هذه اليد الصغيرة ! . .

ــ لو صح كلامك فإنه لايبقى أمامى فى المضمار غير هيلمان الـدوادار وحده ! وحده . . والأرض مكشوفة . . أنت داهية قبل أن تكونى فتنة ! . . قولى ما عندك كله ! . . .

ــ هل تعرف أحب ما فى الدنيا إلى الأعور ؟

ــ يقول ديوان استخباراتى إنه يحب الحشيش وولداً اسمه مراد وبنتاً اسمها عبير ، فهل عندك خبر ؟

ــ عاشقان فى أول العمر ، ويطلبان الثمن ؟

ــ تعرفينهما ؟

ــ كلمتهما وهما على استعداد لقتـل الأعور بـالسم إذا وافقت أنت على الثمن . . .

ــ الثمن . . الثمن . . لكل شىء ثمن . . سيقول الجميع إنه مات بأثر السم القديم ، ولن تتجه الشبهة إلى أحد . . وفى الإمكان أن نرشو الطبيب نفسه عند الضرورة . . معقول . . معقول . . ما ثمنهما ؟

ــ أن يتزوجا بعد نوال المراد ويكون للولد ولو بعد حين ــ فعمرهما معاً لا يزيد عن ثلاثين سنة ــ منصب والى القاهرة !

أدرك السلطان تمربغا أن الحديث قد بلغ رشده ، وسألها فجأة وهو يتجلد لنظرتها :

ــ وأنت ما ثمنك ؟!

ــ هل بين نسائك واحدة تحبها ؟ بمعنى الحب ؟

ــ لا

ــ هذا إذن هو مكانى الشاغر !

ــ سلطانة ؟

ــ عبدة !

فأطبق فجأة بيد قوية على ذراعها وأجبرها على الخوف :

ــ عبير جاسوسة الدوادار يا شاطرة ، وأنت إما مخدوعة مدسوسة على أو جاسوسة أخرى من جراب الدوادار ، ولن تخرجى من هنا حتى أعرف الحقيقة ويطمئن إليها سيفى ! . . ولسوف أعذبك حتى تفرزى كل ما عندك ! . . لئن كانوا علموك المشى خطوتين على الحبل فأنا أمير الراقصين على الحبال ! . .

(٧)

ــ يا عم عربى . . جدى يقول لك اصح لنفسك لأن الكبار هنا !

كان الصبى قد ظهر على جسر الترعة فى ركض سريع يشاركه بهجته كلبه المنقط مقروط الذيل ، لكن الكلب توقف على بعد حذر وخرس أمام العينين الصفراوين والأنف المنقارى والشارب الهائل ، فانتبه رئيس أنفار الملتزم إلى الصبى وهو واقف تحت التوتـة التى تمد ظـلالها عـلى الجسر وقفة الكاشف المهيمن ، وعندما كلمه خرج الكلام من بين شعرات شاربـه النافشـة مثل أشواك القنفذ :

الكبار ؟ من منهم يا بركات ؟

ورائحة البرسيم ملء الفضاء فى الحوض الغربى وخضرته كاسية ، وفى الجو لذعة برد خفيفة لم تمحها بعد وقدة شمس الضحى ، وصفوف من المناجل بأيدى فلاحات نشطات عجفاوات فى الجلاليب السوداء ورجال ضامرين فى

قمصان زرقاء تشدها على خصورهم المنحنية حبال غليظة من تيل مفتول ، ورئيس الأنفار يستوعب بنظرته الأرض والعمل قبل أن يستحث الصبى على الكلام :

ــ هل قال لك جدك ماذا يريدون ؟

لكن بركات وجد عناء فى تذكر كل ما قاله جده الذى يعمل فى نوبات الحراسة النهارية على صوامع حمزة الملتزم :

ــ رجل وست وعقلة الصباع !

لمعت عينا بركات وهو سعيد باحساسه أن العربى المخيف الذى يرتعش منه العب كله لم ير الأعجوبة التى رآها :ــ شىء من وراء العقل يا عم عربى . . أنا شفته وهو خارج من بيت الملتزم مع سيدى إدريس والست الحلوة والرجل الحلو الذى معها : وكل ما نط وتحنجل بين الأرجل يرن فى الطرطور جرس . . طول عقلة الصباع . . والله العظيم والا أعدم نظرى . . والعجيب ياعم عربى أنه يتكلم !

وجدك لم يقل لك من الرجل الحلو ومن الست الحلوة ؟ هل هما الاستادار وزوجته أم عيون زرق ؟

أسكت الصبى كلبه الذى بدأ يناديه من بعد بنواح خافت جبان قبل أن يتكلم :

ــ لا . . أنا أعرف الأستادار يا عم عربى . . شفته كثيرا فى بيت سيدى نائب الوالى أيضاً . .

لم يستطع رئيس الأنفار أن يخفى قلقه :

ــ ماذ تقول يا ولد ؟ الأستادار ونائب الوالى . . هنا فى ميت جهينة على الصبح ؟

ــ لا . . شربا القهوة مع الضيف هو وسيدى حمزة وسيدى إدريس وركبا الخيل وعادا إلى الجيزة . . هو صرفهما . . قال لهما أمام بيت الملتزم ، وأنا سامعه بأذنى ، إنه يريد الجرى فى الغيطان والفسحة ولا لزوم لهما ، وهز عقلة الصباع طرطورة ورن جرسه مؤيداً كلام الجدع الحليوة . . آخر عظمة !

وتوقف فكر عربى عند نقطة واحدة فى كلام الولد :

ــ تقول إنه أمرهما بالإنصراف أمام بيت الملتزم ؟ . . ألم تسمع أيضاً إلى أين يقصد هو ومن معه ؟

زام الكلب وهز ما أبقى له الفأس من ذيله كأنه إصبع رشيق الحركة ملفوف بشعر لامع أسود لكن السؤال كان قد أحيا فى ذاكرة بركات بعض كلمات جده المنسية :

ــ آه . . افتكرت . . جدى يقول لك يا عم عربى إن الجدع الحليوة مركزه كبير وصاحب كلمة وإن جاء من هنا قد له أحسن تحية ودار أمورك معه إلى أن يحل عنا بالسلامة . . .

عادت نظرة عربى من سير العمل الذى يملأ الأرض فى هدوء إلى حفيد صديقه ولمعت فى صفار عينيه بارقة دهشة :

ــ يجىء من هنا ! . . يا ولد تذكر إن كان جدك قال لك إن الرجل والست فى طريقهما إلى الحوض الغربى . .

واستشرف الأفق بنظرته بينما كانت إشارات يدى بركات تستعطف كلبه الصغير وتستمهله برهة أخرى ينجز فيها المهمة :

ــ لا أعرف يا عم عربى !

ــ ولم يقل لك أى شىء عنهما ؟

ــ قال إن نائب الوالى نفسه كان يكلم الجدع الحليوة وهو فى نصف هدومه

ومرعوش .. أنصرف أنا يا عم عربى ؟ .. لعل الحظ يسعدنى ويكون لى نصيب فى نظرة أخرى من عقلة الصباع ..

بدأ عربى يستفسر لأول مرة عن حكاية عقلة الصباع هذه التى لم تدخل مخه لكن منقاره لم يلبث أن اتجه فجأة إلى الأفق الشرقى الذى علت فيه زوبعة غبار بعيد ..

ـ خيل مقبلة !

ورفعت بعض القمصان الزرقاء رءوسها ..

وسكت مقروط الذيل عن عويله وتأمل فى دهشة صديقه الذى أخذ يتوثب من الفرح ناسياً رهبة رئيس الأنفار :

ـ عقلة الصباع جاء لنا لحد هنا ! ..

وكان الخيالة المقبلون على الجسر ثلاثة من الفرسان على خيول متهادية فخورة بشبابها وزينتها وراكبيها ، يتبعهم حصان عجيب فى متانة جسمه المدملج رغم حجمه الصغير ، وفى سرجه العريض يظهر ويختفى طرطور لا يهدأ عن الحركة ، وعرف عربى أول ما عرف حصان إدريس ثم إدريس نفسه ، ولم يتبين أنوثة أحد الفارسين إلا عندما ترجلت المرأة أمامه وهى تنادى الطرطور بصوت رقيق مرح :

ـ نط يا قمقم وتعال سابقنى فى الجرى !

والذين رفعوا رءوسهم فى البرسيم وسكنت مناجلهم عن الحش وتوقفت أصابعهن عن الحزم واللفع كانوا يشعرون فى صمتهم المتكاسل أن عربى لمحهم وأحصاهم وفرزهم قبل أن يلقى بطاعته كاملة فى خدمة ابن الملتزم وضيفته اللابسة ملابس الرجال رغم افتضاح فتنتها وصاحبها الجميل الذى تبسم لمنظر شاربه بعظمة أميرية :

ـ اسمك أبو شنب ؟

وضحك إدريس وهو فى شغل بالفارسة ، ورن جرس الطرطور وتشقلب عقلة الصباع فجأة فى وجه رئيس الأنفار ودار فى الهواء دورة كاملة ثم استقر أمامه غير متجاوز فى الطول شبرين كاملى المعانى ، سبحانك يا خلاق يا عظيم ، وسحنته إنسانية لكن عيونه مشدودة إلى الصدغين ، كأن العين شرطة ضيقة لوزية لا تكاد تبين منها حدقة العين ، ووجف الشارب الكبير ودق قلب رئيس الأنفار بسخونة موجعة عندما سمع الكائن صوتاً :

ـ بو شنب ! بو شنب ! ..

وتشقلب الكائن مرة أخرى طوحت به عند بركات الذى كان قلبه الخفاق يوشك أن يفلت من صدره :

ـ بو كلب ! بو كلب ! ..

ونبح كلب بركات من عمق القناة الجافة التى وثب بها إليه رعبه من جرس الطرطور وأبهة الفرسان ، وفى مسطحات البرسيم الهادئة تطايرت ثرثرة الجلاليب السوداء واضطربت الصفوف وسكتت المناجل عن عملها فى الأعواد الطرية ، وقال منجل منها لمنجل :

ـ ما هذا المخلوق ؟ ما هذا المخلوق ؟

تاه فى السؤال فكر الفلاح الثانى قبل أن يتكلم :

ـ ناس يقولون إنه من الجن المسخوطين وناس يقولون إنه صنف يجلبونه من بلاد ينام ينام ، الواحد بثمن فدان يا خميس ! تنهد الفلاح الأول وهو يلقى بمنجله إلى الأرض فى فتور :

ـ يتربى فى عزهم ياعم !

وانحنى فى الحال ليلتقط المنجل وأداره فى يده القوية أمام عينيه ، ثم تمطى كاسراً وسطه وفك حبل التيل الذى كانت قبضته على خصره قد تراخت وحبكه على وسطه وأعاد شده :

ـ هذا الجدع لابد أن يكون حبيب الدوادار الكبير الذى سمعنا عنه من عمك خليل . . العين تحتار أهو أحلى من ست الحسن أم البنت أحلى منه !

ـ يا فتاح يا عليم . . وماذا يريدون منا يا غالب ؟ . . اللهم اجعله خيراً . . وحمل الهواء إليهما صيحة ناعمة من ست الحسن :

ـ إن مسكتنى يا قمقم لك بوسة . .

ومرقت فجأة من تحت التوتة وقطعت الجسر فى وثبتين إلى الأرض الواطئة ، واندفعت فى خفة الغلمان تجرى فى البرسيم وهى تتلفت ضاحكة نحو عقلة الصباع الذى كان ينهض من عثراته الكثيرة ويقوم ويقع فى محاولة عنيدة للحاق بسيدته المرحة الخفيفة ، وانفتحت عباءتها الحمراء المطرزة بخيوط ذهبية عن سروال يتراءى فى حركة الجرى السريعة كما لو كان زوج حمام أبيض تخفق أجنحته تحت خيمة قرمزية ضيقة ، ولم يتحرك صاحبها من الظل الذى يقف فيه مع إدريس ورئيس الأنفار ، لكن الكلب المنقط فاضت به الحماسة وجاوب صيحات عقلة الصباع بنباح شديد ، وهز ذيله المقروط رافضاً الاستماع إلى توسلات بركات الخائفة قبل أن يثب إلى خضرة الأرض البراح ويساهم بحيوية جسمه الصغير وحنجرته النشيطة فى لعبة المطاردة المبهجة . . .

واقتربت كركرة الضحك الأنثوى من صفوف الفلاحين المبهورة ورأوها فى جوارهم رشيقة الإفلات من يد عقلة الصباع إن همت أن تطولها ومن اضطراب الكلب الشقى بين قدميها ، ومست العباءة الحمراء بطرفها المذهب فى وثبة من وثباتها وجه فلاحة مقعية فى السواد وفاتحة فمها فى ذهول كامل ،

فقالت لها جارتها فى الصف لما شمت فى الهواء الذى خفقت فيه العباءة عطراً عجباً :

ـ لا هى من الإنس ولا هى من الجن ! قطّيعة ! . .

وأعلن عقلة الصباع فى آخر المطاردة أنه خسر القبلة ، بشقلبة عنيفة ألقته على ظهره فوق البرسيم الرطب عند أقرب صف من القمصان الزرقاء وأخذ يشوح برجليه الصغيرتين وهو يتباكى بصوته الرفيع نائحاً بمواء قط شبق . .

وضحكت ست الحسن ورفست الكلب اللحوح بطرف مركوبها الأحمر فأطارته فى الهواء كالخرقة ، ثم وقفت أمام المخلوق واضعة يديها فى خاصرتيها وهى تتمايل مع اللهاث الذى يمزق ضحكها :

ـ مسكين يا قمقم ! . . مسكين ! . .

وهمت أن تقفز فى اتجاه التوتة فشدها شىء من طرف عباءتها وسمعت فى القماش صوت تمزق هين ، واستدارات قبل أن يمحو ضيقها بالحادث الصغير كل الإشراقة الضاحكة فى وجهها الذى فار فيه الدم وزهزه ونور ، فرأت الفلاح القريب منها عند ركوعه فى اضطراب وهو يمسح يديه فى جنبى هدمته قبل أن يمدهما لتخليص طرف العباءة من سن منجله . .

أول فلاح حقيقى من لحم ودم تراه بعينيها ، اليد الكبيرة المتينة ، وذراع تبدو من مزق القميص الباهت الزرقة سمرتها العضلية ، وباطن القدم المعروض عند الركوع مديد ومترب وشقوقه عميقة وضاربة إلى الكعب ، وصدر مشعر وعنق راسخ ، ونظرة أسف وقلق فى وجه لم يتعود الحلاقة ، ورجولة شبه عارية . . ودققت النظر لتستوثق من لون عينيه العسلى الذى أدهشها صفاؤه الكهرمانى ثم ابتسمت له وهى تخاطبه بلسانها الذى تعرف أنه لن يفهم منه إلا بطانة للابتسامة الطيبة :

ـ بسيطة ! بسيطة ! هون عليك . . !

نهض الفلاح دون أن يزايله اضطرابه وتفوه هو الآخر بكلمات مبهمة يائسة من بلوغ نفس سامعتها ، لكنها عندما ضحك لها وجهه الأسمر كبرت ابتسامتها وأشارت إلى نفسها بأصبعها الدقيق ، وكلمته مرة ثانية :

ـ نغم . . ن . . غ . . م . . نغم . .

ـ فهمت يا ست ! اسم حضرتك نغم !!

وزادت ربكته برهة قبل أن يضيف :

ـ أنعم وأكرم !

فأشارت بالأصبع الدقيق نحو صدره المشعر ونطق فى عينيها السؤال : وما اسمك أنت ؟

لحظها الصفاء الكهرمانى فى حدقتى الفلاح ولم تنكسر نظرته فى هذه المرة أمام جمالها :

ـ خدامك غالب !

لكن الابتسام غاض من وجهه فى الحال وقد ثبتت نظرته فجأة عند نقطة وراء كتفها ، فالتفتت وهى تطوى طرف عباءتها الممزق تحت طرفها الآخر شاعرة أن صاحبها والثقيل ابن الملتزم يسرعان نحوهما عبر البرسيم ، وعندما تحقق ظنها صنعت يدها للفلاح إشارة بليغة تدعوه إلى الاطمئنان واستدارت تستقبل أصحاب الهمة المزعجة . . وأحست ما فى هرولتهما غير المتكافئة من مظهر هزلى ، وأحمده يكاد فى كل خطوة يقع كأنه بنت طرية تحاول أن تسترجل ، لكن ما أجمل ازدهار الدم أرجوانياً تحت سمرة خدوده الخفيفة . . هو ذا يقع غير بعيد ، كما لعله واقع فى أحلامه بالمجد والغنى والسلطة ، وها

هو الآخر يقيمه ويسنده ويمسح عنه التراب . . . ولعل هذا الآخر المعجب بطوله وعرضه والذى تفوح منه رائحة منفرة لا يفكر فى إهانة الفلاح أو ضربه .. لو أراد أن يفعل فهى تقف بينهما وتمنعه . . . ومنحت الفلاح لفتة أخيرة قبل أن تتصدى للرجلين :

ـ قطع صغير فى طرف عباءتى . . غلطتى أنا . . هيا بنا . . الشمس بدأت تضايقنى . . هات ذراعك يا أحمده . .

لكن إدريس تلكأ أمام الفلاح بكل شره الناطق فى سحنته المقلوبة :

ـ والله عال يا غالب يا ابن نفيسة . . تأوى شيوخ المنسر فى دارك ولا تبالى . . ونقول لك ادفع أجر الرعى بالرأس فلا تسمع الكلام . . وهأنت حش بمنجلك ثوب ستنا الأميرة وكأنه هدمة أمك أو من هلاهيل فاطمة ! . .

اهتز المنجل فى يد الفلاح وانتفض غضب مكبوت فى نبرة صوته الخافتة :

ـ ذكر أسماء الستات عيب عندنا يا ابن شيخ البلد ، ولا مؤاخذة !

وبترت البنت هجمة إدريس معترضة اندفاعه :

ـ خلاص .. أنا قلت خلاص . . تفضل بكشف الطريق أمامنا . . وتكون مسئولا أمامى إذا حصل للفلاح أى زعل بعد سفرنا . . مفهوم ؟

وتعلقت بذراع فتاها وعينها تبحث فى عودتها إلى ظل الجسر عن عقلة الصباع ، ورأته فى مطاردته الحامية للكلب الضئيل الذى خرس حسه من بعد الرفسة ، فنادت وهى تلوح بيدها فى اتجاه الفلاح الجامد تحت السماء :

ـ تعال يا قمقم فلن تسبق حتى كلب الفلاحين !

وانحدر نحوهم رئيس الأنفار وألقى فى أذن سيده إدريس ابن سيده حمزة همسة لم يسمعها غيرها :

— اترك الولد غالب لى وأنا أربيه وأعلمه الأدب !

وفى الظل مسحت نظرة نغم الأرض الخضراء والصفوف العائدة إلى الانتظام والانحناء ، ومالت على كتف صاحبها :

— زهقت وأوحشتنى أم الدنيا !

— نعود فى الحال يا نور قلبى ، لكن ماذا قال لك الفلاح ؟

— أراد أن يخطبنى فقلت له إنى مخطوبة لك ومسحت دموعه بمنديلى ثم أعطيته المنديل هدية !

وضحكت هازئة بسؤاله ، فهز كتفيه فى كبرياء ناعمة :

— كفى هزلا . . كان من الواجب أن تضربيه على وجهه !

وقبل أن ترد كانت صرخات متواصلة حادة من قمقم قد شقت الظلال الهادئة وهزت شوارب عربى وانتفض لها جسم بركات الصغير المسحور وعقلة الصباع يقفز كالملسوع عند جذور التوتة :

— فأر يرقص ! . . فأر يرقص ! . . .

ولحق أحمده وحبيبته بإدريس وعربى وبركات الذين رأوا فى تجويف جذر ضخم من جذور التوتة المعمرة فأراً كبيراً مبتل الفروة يحاول أن يجرى فتضطرب أرجله القصيرة ويتداعى للسقوط على جنبه ، وظهرت رأس قمقم من بين ساقى مولاته وعنقه يلعب مقلداً حركات الفأر المترنحة :

— معذور يا فأر ميت جهينة ! معذور ! يحلو الرقص أمام « نغم » ! . . عندك ذوق ! . .

لكن شعوراً بالروع أسكته وسرى فى أبدانهم جميعاً عندما سمعوا من الفأر

صرخة قصيرة ، ورأوه يدور حول نفسه قبل أن يسقط على ظهره وتنفضه تشنجات فظيعة . . .

وصرخت نغم وهى تستر عينيها بيدها عندما انبثق الدم من منخرى الفأر وهمدت حركته ، وأشاحت بوجهها ضاغطة ذراع رفيقها المرتجف :

— أريد أن أعود فى الحال إلى القاهرة ! . .

وجاشت معدتها وأحست وقواها تخور الدنيا تغيم فى عينيها أم أكثر من يد تتلقاها وتسندها وكأن صورة الوجود التى تغمض عليها جفونها مضرجة كلها بلون الدم القليل الذى رأته ينزف . .

(٨)

سمع الولد بعد صبره القلق الطويل أنين باب الزاوية وهو ينفرج استجابة لطرقاته الملهوفة ، ووجل قلبه عندما بزغت له دماغ محلوقة بالموسى تلمع فوق وجه ضخم يتوسطه أنف عظيم مرتاح على شفتين غليظتين ، واضطرب صوته :

صباح اللبن الحليب يا عم الشيخ ؟

زام الرجل المخيف وهو يهرش فى شعر صدره الشوكى النافر من فتحة المرقعة :

— صباح العيال ووجع القلب ! . . نعم ؟

— أنا يوسف يا عم !

— يوسف رأى برهان ربه ! . . نعم ؟

— جئت من آخر الدنيا لزيارة زوج خالتى عندكم !

رقصت هلاهيل المرقعة وتماوج فى داخلها لحم غزير محب للرقص ولعبت للولد حواجب البهلول :

— عندنا يا روح خالتك ؟

تلفت الولد حوله مستكشفاً الحركة القليلة فى الزقاق واصطنع نبرة هامسة :

— كلام فى السر يا عم الشيخ . . حتى لا يسمعنا أحد . . المعلم أيوب !

نزلت كف البهلول الطرية على كتف الصغير فهزته هزة أضحكت المجذوب البدين وأرقصت حواجبه البليغة :

— أيوب ضحك على . . خاطرى من جهته مكسور . . أكل اللحم وحده !

ظهرت الحيرة على يوسف الذى تكلف مع ذلك نفاق الصبيان أمام الكبار :

— اللحم يصلك إن شاء الله . . أدخلنى إليه وأنا أكلمه فى الموضوع . . له عندى كلام آخر مهم يا سيدنا والله . . .

— وتأتينى باللحم بنفسك ؟ هبرة كبيرة محمرة ؟ . . طيب . . ادخل . . ادخل يا يوسف على زليخة . . هل تعرف طريق زليخة ؟

وتابعت نظرة يوسف المبهورة إشارة اليد الكبيرة التى استراحت كتفه من ثقلها :

— أنزل هناك فأجد زوج خالتى ؟

مسح البهلول بظهر يده السمينة وهو يجلس على الحجر الكبير وراء الباب الذى عاوده الأنين وهو ينقفل مرة أخرى على عالمه ، لكن الخصر الغليظ كان يلعب مع رقص الحواجب لعباً منسجماً .

— تجده وتقول له : أين اللحم يا مفجوع !

— حاضر يا عم الشيخ . . . لن أنسى والله يا سيدنا . .

وحجارة حيطان الحوش لها رهبة ، وسكون الصباح عميق بلا مجاذيب ، وكاد يوسف يندفع خاضعاً لرغبته فى الجرى لكنه استحيا من نظرة بهلول الباب التى كان يحسها فى ظهره . . وعندما بلغ الفوهة الهابطة فى الأرض عند ركن الحوش الأيمن رأى فيها درجات قليلة من الطين الجاف تنتهى فى عتمة ، فتلاحقت نبضات قلبه وهو يهبط متمهلا ، ثم انتفض قلبه فى صدره انتفاضة موجعة عندما أوقفه على الدرجة الأخيرة صوت خشن نبع فجأة من عمق العتمة الغامض :

— ستنا الشيخة ؟

بدا له الصوت مألوفاً لكنه لم يذكر صاحبه ، وتمزق صوته الصبيانى وهو يبادر بالرد طالباً من الله السلامة :

— زوج خالتى المعلم أيوب هنا يا عم ؟!

دوت فى العتمة التحتية صيحة فرح وبزغ له رجل متهلل مفتوح الذراعين

— يوسف ! . . تعال يا رائحة الأحباب . . حمد الله على سلامتك يا بنى . . تعال . . ليس معى هنا غير عمك زين الدين . .

صوت زوج خالته فى هذه المرة ، وان يكن الرجل يبدو إنساناً اخر حافياً فى مرقعة قديمة ولحيته طويلة . . ويا لغرابة رأسه الزلبطة . . ومن وراء الزلبطة لمح زلبطة عمه زين الدين وابتسامته . . لكن دهشته طواها عناق المرقعتين الخشنتين وغرقت فى طوفان القبلات الأبوية والأسئلة . .

البطل الجسور ، هو ذا فى قاع السرداب بين اللحيتين المصغيتين أجدع من كل الجدعان . . أرض شالته وأرض حطته . . قبل أن يعبر النيل وبعد أن عبره من الأرض الجيزاوية إلى معادى الخبيرى ومسارب المقطم ، دون أن يتمكن المراكبى اللحوح اللئيم من انتزاع سره الدفين . . .

— طبعاً يا ابنى . . جدع يا ولد . . نصف مراكبية النيل من بصاصى السلطنة ، والباقون موزعون على استخبارات الأمراء والسكوت يا ابنى من ذهب . . .

ويسأل الجدع عن الشيخة زليخة كلما ألح عليه المكان بصورة صديقته القديمة ، ثم يجرفه الكلام عن خالته وأعمامه مجاذيب ميت جهينة وزفاف فاطمة ، وقبل كل شيء سفره الذى لقى فيه الأهوال من الذئاب ولصوص الليل والعفاريت . . . وتتبادل المرقعتان نظرة داعية إلى التساهل ، ويتجلد الصديقان لزكية الأكاذيب الظريفة التى يرتق الولد خرقها من هنا فتنفتح فيها من هناك عشرة خروق جديدة . . وعندما ذكر لهما أنه لما بلغ مصر مر على الدكان المقفول ، اعتصر صوته ألم كبير :

— غلب على البكاء أمامه والله يا معلمى . . وأين يجد أولاد الحرام النعوش الكافية لكل الأموات ؟

— يعنى البلد ليس فيها بعد معلمك نجار نعوش يا أخى !

لم يشارك زين الدين فى الضحك ، وفى صوته ارتعشت نبرة حزينة :

— والمقهى أيضاً مقفول يا ولدى . . معلمك وصاحب معلمك الآن فأران فى سرداب تحت الأرض . . إلى أن يأذن بالفرج صاحب الفرج . .

لم يزل عند الصبى ما يدهش به اللحيتين :

— الفئران عندنا هناك . . فئران ميت جهينة الآن ترقص يا عم أيوب . . والله العظيم ترقص ! . . .

وفى هذه المرة غلب الضحك على كآبة زين الدين ، وأمسك زوج الخالة أذن الولد ودعكها بقوة :

— بقى شوف يا ابن أخت جماعتنا . . جبت الذئب من ذيله وقلنا نفوتها . . . زاغ شيوخ المناسر من هيبتك وأفسحنا لحضرتك الطريق مثل ما أفسحه رجال الليل . . طلع لك العفريت بعد العفريت ولم نفتح فمنا بكلمة . . إنما رقصة الفئران هذه لن تمر . . لن نبلعها ! . . قل لى واخز الشيطان ، هل تأكل لقمة ؟

تفجر احتجاج يوسف وملأ السرداب ، ومن دفاعه عن صدقه تدفق تفصيل مضطرب لحياة ميت جهينة من ساعة ما ورد عليها الهاربون الثلاثة ، عمل النهار وبراغيث الليل ، وهدير الطاحون ووجع جنب ست العيلة ، وصوامع الملتزم التى تطفح الغلال من فوهاتها العالية ، وحصان ابنه الرذل ، والمملوك الجميل ، وصاحبته المرحة ، والمنجل فى العباءة ، وشقلبة عقلة الصباع العجيب ، وفأر شجرة التوت الذى نزف دماً قبل أن يختتم رقصته ، وكل الفئران التى كثر العثور على جثتها دون أن تكون هناك فرصة لرؤية رقصاتها الأخيرة ، فإن يكن عند عميه أيوب وزين الدين شك فى اللصوص الذين شتتهم زعقاته ، والعفاريت التى عزم عليها فتبخرت ، فهو والله وكتاب الله صادق فى حكاية فأر التوتة الذى رآه بعينيه وهو يرقص . . ثم ضحك يوسف فجأة وهو ينهى إلى زوج خالته رسالة كان قد نسيها :

— وخالتى ست الكل تقول لك إنك أوحشتها وتوصيك أن تحاسب على روحك !

هفت نفس الرجل إلى امرأته وداعب رأس الولد وهو يتأمل هزاله :

— أنت جائع يا يوسف وعندنا من ليلة أمس عصيدة كلكعتها لنا ستك الشيخة . . .

— وتأكل اللحم وحدك يا معلمى ؟!

وملأ ضحكه السرداب عندما حاصرته نظرات الرجلين المندهشة :

ـ كلام المجذوب الذى فتح لى . . . يقول لك إنك كسرت خاطره مرة . . وأنه ينتظر الآن هبرة لحم كبيرة أحملها بنفسى حسب اتفاقنا . . وسامحته يا معلمى لما قال إنك ولا مؤاخذة مفجوع !

رددت حجارة السرداب أصداء الضحك الجماعى الذى لم يلبث أن قطعه شعور يوسف بالذنب :

ـ لكن إذا لم يكن عندكم غير العصيدة فما قولى للرجل الذى أعطيته كلمتى ؟ وقعة سوداء ! . .

ـ اتركه يأكل لحم أحلامه . . مثلنا كلنا وحياتك . . مد يدك هات قصعة العصيدة من الطاقة وكل . . وان بقى منك شيء فاحمله إليه وقل له : المفجوع يسلم عليك ! هات وكل !

وقبل أن يتحرك يوسف تردد فى السلم صوت يعلن مع دقات المقرعة البطيئة على الدرجات القليلة عن ظهور الشيخة :

ـ هاتوا لزليخة يوسفها . . هاتوا لزليخة يوسفها . .

انجذب الولد جذبة شديدة وثبت به إلى حضنها الذى هل عليه ، وسكن كل ما فى السرداب حتى شبع يوسف من زليخة وشبعت زليخة من يوسف ، ثم كشفت الشيخة الكم الواسع عن ذراع الولد النحيلة وفحصته بعناية وهى تهز صلعتها وتغالب ضحكاً هانئاً تفيض به أعماق وجودها :

ـ عندى لك عن كاسر هذه الذراع فى الكتاب خبر يا يوسفى ، عندى لك خبر !

ـ الشيخ نسناس ؟ . . ماله ؟ . . فرغ أجله ؟

وعند سؤال الصبى الملهوف ظهر على زين الدين أن الثرثرة ستطيب له :

ـ أكل الفص يا ابنى من هنا وشلناه من هنا . .

لكنه أسكتته فى الحال نظرة من زليخة التى مسحت يدها على رأس يوسفها فى حنان :

ـ ساقى البن هذا جاهل ، وصانع النعوش هذا أجهل منه ولو أنه زوج خالتك . . الشيخ عباس كما تقول أنت فرغ أجله وانكتب له أجل جديد ! . . تعال يا يوسفى . . تعال على الحصيرة أحكى لك الحكاية كلها من أولها إلى آخرها وأشرح لك صدرك . . هذان الجاهلان لا يعلمان أنه نطق بالكلام اليوم وصلى الفجر فى خلوته بإمامتى !

وأرادت شفاه المريدين المستبشرين أن تتخاطف يمناها فانتزعتها منها ودفستها فى حجر الولد وهى تزعق زعقة عظيمة رجت الحجارة فى الحيطان وخشعت لها القلوب الثلاثة التى لم تفهم كلماتها لكنها شعشعت بها :

ـ سلاسل الأول فى سجنه أهون من ذل الثانى فى منفاه !

وفى سكون عظيم عادت يدها تمسح على الرأس الصغير ، إلى أن همس يوسف :

ـ العصيدة هى العصيدة !

(٩)

جبدها من شعرها سجان تلقاها من أحد حجاب السلطان ومعها أمر شفوى مهموس ، ودفع بيده الأخرى فى خصرها ليسوقها أمامه فى عتمة الدهليز الجوفى ، ثم لطمها على وجهها عندما حاولت أن تتملص من فحش لمساته لجسمها الذى يرجفه الاشمئزاز والهلع ، ولم تكن تعرف أين يذهب بها الحيوان الفظ الذى لم يكن لسانه أعف من يده ، وتعثرت مشيتها الذليلة كما لو كانت حركتها المقيدة تضطرب فى كابوس بشع تنهشها فيه يد متملكة لا تدع من جسمها موضعاً إلا جسته وامتهنته . . .

والفكرة الوحيدة التى تبقت لها فى ذهول اللحظة هى أن السلطان يمعن فى سخريته القاسية منها ، ولن يلبث أن يستردها من أقبية القلعة بعد أن تقضى ساعات فى زنزانة زوجها التى يعيش فيها منذ أنزله الأمراء عن العرش وأخذوه . . من أربعين يوماً وليلة . . لابد أن تمرغا بعد التحقيق الطويل معها عرف أنها صادقة فى كل ما قالته له ومؤمنة به حاكماً بلا منازع وأنها ليست بصاصة عليه كما توهم . . كل ما فى الأمر أنه يلقنها درساً . . يريدها جارية مذعنة ونافعة لا شريكة فى التدبير والسلطة . . يريدها أن تعلم أن فتنتها التى كشفتها العباءة الساقطة شىء وتفرده هو بالكلمة الأخيرة شىء آخر ، ويريد أن يضحك فى آخر النهار عندما يعيدها إليه هذا البهيم الذى يعتصرها دون أن تخف عن شعرها قبضته ، وأن يذلها بأسئلته اللئيمة عن يومها مع العاجز ساكن الزنزانة . . لا ! هذه ليست نهايتها . . هذه دعابة رومية سمجة ، ولن يكون مصير شبابها عفن السجن وموته البطىء ، إن هى إلا محنة عابرة أسوأ ما فيها هذا الهوان على طول الدهليز المعتم وهذه الأنفاس المغثية اللافحة واليد السارحة المستمتعة وهذا الجسم الذى يقتحمها دون أن يتوقف عن المشى . .

وعند باب خفيض فى جوف الدهليز ، تطبق من وراء قضبانه ظلمة حالكة ، تخلت اليد الباطشة عن شعرها وخفت قبضة الكابوس وارتخى تقحمه ، فكتمت مواجعها وحاولت أن تنظم شعرها وملابسها وهى تنظر فى البهيم اللاهث جاهدة أن تستشف شيئاً من ملامحه المبهمة ، لعل نفسه الآن ألين لها :

ــ أنت جركسى ؟

ورنت فى يده مفاتيح فى حلقة كبيرة وهو ينحنى ليعالج الباب العصى ، فلما لم تجد رداً غير هذا الرنين تمسح جنبها بظهره القوى ولان له صوتها فى نعومة :

أنا أيضاً جركسية . . والآن وأنت أقل عطشاً ، هل يمكنك أن تقول لى كلمة ؟

جاوبها الباب وهو يدور على محوره بصرير حاد ، واعتدل السجان وعلق حلقة المفاتيح فى حزامه قبل أن تطرقع فى وجهها ضحكته الجلفة :

ــ ألم أقلها لك على طول الدهليز يا نفاية العسكر !

ــ من فى داخل هذا الظلام ؟ بلباى ؟ أهو بلباى ؟ قلها كلمة واحدة !

ــ ادخلى واعرفى بنفسك ! . . عريس على قد المقام ! . .

وأفحش فى جذبه لها فنجت من جسمه المتصلب إلى الظلام الداخلى ، واحتد صرير الباب قبل أن تتردد أصداء مفزعة متجاوبة لصدمة غلقه ، وظلت مندفعة حتى لطمها حائط بارد تفوح منه رائحة زخمة . . .

سقطت عند الحائط باكية ضائعة ، ولم تسمع بذاءات السجان من خارج القضبان ولا وقع خطواته المتبعدة ، ثم أفاقت من وهدة اليأس الدامسة فوجدت نفسها فى عتمة ساكنة ، خيل إليها أنها خفت بعض الشىء ووسعها أن تتبين حائطاً آخر إلى يمينها ، لكن العمق الأيسر للقبو المديد ظل مكنوناً فى ظلام مطبق . . وكانت تسمع أن المساجين فى أقبية أبراج القلعة ذات الارتفاع القليل يمشون على أربع ، لكنها وهى تنهض تنبهت إلى ارتفاع السقف وظلت يدها التى رفعتها عاجزة عن لمسه . . وقصدت تلك الظلمة المريبة وهى تغالب الرعدة المتفشية فى جسمها ، لكنها ما أن مشت خطوات حتى أوقفها فى الحال ريح عفن . . .

هل تكون دعابة ابن الرومية بهذه الشناعة ؟ هل دفع بها إلى هذا الجوف الرهيب وهو عارف أن ساكنه ميت ؟

وارتسمت فى قشعريرة خيالها صورة بلباى جثة متعفنة منفجرة البطن ، واكتسح نفسها على الروع حقد هائل سقط معها إلى الأرض عندما فقدت وعيها لما سمعت فجأة ذلك الشخير العالى الذى بدد السكون فى قلب الظلمة العفنة . . .

وأفاقت للرعب من جديد فلم تحملها ساقاها فى هذه المرة وظلت على رطوبة الأرض الهشة مقعية كحيوان مخبول . . . مغلوبة الحركة والإرادة :

ـ هذا أنت يا بلباى ؟!

وكررت السؤال دون أن يتوقف الشخير فجعلت تضرب التراب أمامها بكفيها فى عنف وقد انفلت عيار شىء ما فى عقلها :

ـ بلباى ! . . أنا السلطانة ، فقم يا سلطان من شخيرك وانظر ما فعل الطاغية بحريمك ! . . أنا جلبهار ! . . جلبهار ! . .

وتجاوبت الحيطان بصدى صرخاتها حتى لفظت لها الظلمة فى مكان الشخير أنين رجل يتمّطى متثائباً فى عودته إلى الوعى ، لكن ما أن تبين ساكن الظلمة ذلك الصوت البشرى معه فى محبسه حتى تفجر فزعه هو الآخر فى عويل كالعواء ، وتشابكت فى القبو النتن الأصداء المخبولة المولولة . .

وأخذ يتوضح لها فى بزوغه من عمق الظلمة عارياً لحيماً تتستر على وسطه وحده خرقة مهلهلة ، وكاد عندما هل ببطنه ولحمه الغليظ يقنع عقلها الملتاث أنه زوجها لكن الكائن الأكرش ظلت أجفانه تضطرب حتى استقوى على الرؤية ، ثم بغتها بانبطاحه أمامها فى سجود حسبت معه أن وجهه كله قد اندفس فى التراب العطن :

ـ مولاتى السلطانة ! . . مولاتى السلطانة ! . .

ضحكت بجنون فى وجه الحقيقة الشوهاء التى تبتلع بفظاظتها الشرهة صفاء عقلها . . ورفضت السجدة والساجد وهى تضحك للحيطان المرطوبة وللعجيزة الضخمة التى أبرزها السجود !

واقع هذا اليوم من أيامها مرفوض . . لا السلطان لطم وجهها وهو يستجوبها ولا جبدت شعرها اليد الفظة ولا انتهك جسمها الجلف . .

ولا سجد لها هذا الذى ماتزال قصور القلعة تتسلى بذكر الريح العفن الذى كان وجوده يفرضه حيثما ظهر ، هذا العبد من دون العبيد كلهم ، هذا الهلع الكبير فى عينيه اللتين رفعهما من التراب عندما ظلت الحيطان تتلقف ضحكها الجنونى

ـ ليت عبدك لم يعش ليرى هذا اليوم !

وكان يرتجف من جميع أقطاره أمام عينيها البارقتين وشعرها الثائر واحتِدامها المخيف ، فلما لم يجد عندها غير ضحك الجنون رفع نحوها يدين سمينتين مسكينتين وناداها فى استعطاف وتضرع :

ـ ماذ احصل فوق وجه الأرض يا مولاتى ؟! ماذا حصل ؟! . . لمى نفسك يا مولاتى وشدى حيلك . كل شىء يهون . . اسأليني أنا . . . كل شىء يهون . .

فترت حساسيتها للرائحة المغثية التى ينشرها عريه النتن ولم تنقطع ضحكاتها ولا خف الرعب الذى تملأ به جلجلتها قلب الرجل . . وسألته فجأة فى خبل مرح :

ـ هل أنت الساكن الوحيد فى هذا العالم السفلى ؟

حمد الله على بادرة الهدوء الطيبة وسارع إلى الرد :

ـ أبدا يا مولاتى . . هنا أمم . . كل عشرة أو عشرين فى زنزانة . . وحتى الأمس القريب كان معى هنا تسعة ، لا تعرفين الحى من الميت حتى تفوح الرائحة . . .

عادت تضحك ومدت ساقيها أمامها وناجت الحائط فى خبل حزين وهى تسند عليه رأسها :

ـ هاك شعرى فاملأه قملا . . لن أمنعك !

صارت كلمات الرجل البدين يلقف بعضها البعض الآخر فى سرعة خارقة ، فى عبوديته لشهوة الكلام المختزنة . . هنا مئات من المساجين الذين يعيشون فى الظلام منذ عشرات السنين وهم يدبون على أربع ويتعفنون مع العناكب والخنافس فى الجحور والشقوق . . لا تفزعى يا مولاتى ، إن هذا إلا خفاش صغير من ناشئة خفافيشنا ! . . أما وحدته هو فإنه لا يعرف تفسيراً لها . . أين ذهب التسعة الآخرون وهل خرجوا موتى أم قتلتهم لذة أمير أو أميرة . . له هنا عمر الحاكم الجديد ، ولم ير فى هذه الأربعين يوماً بلياليها غير وجه السجان عندما ظهر بكيزان الماء وقصاع الطعام الفخارية . . والأكل هنا هو قمة العذاب الحقيقية ، والخنافس نفسها ترفضه ، والفئران تعرض عن القصعة ساعية إلى لحمه الطرى الذى نقشته أسنانها فى كل موضع بنهشاتها . . آه ! . . أنا الذى كنت الجاشنكير الأول فى السلطنة يا مولاتى ! . . مضى زمن كنت أشكو فيه من فاخر المأكول وأتوسل بالكبار عند السلطان ليخف يده عنى فى الأكل ! . . الآن يبكى على هذا الزمن كلما تناول من يد السجان قصعة . . لا جعل الله للسلطانة فى قصاع الجب نصيباً إلا مسافة ما ينالها العفو العاجل بإذن الله ، ويأتى الحشم والعبيد لـرفعها معززة مكرمة إلى وجه الأرض .

وشحب الزمن وهمد والمرأة جامدة لصق الحائط ، وصوت جاشنكير الزمان الخالى يغيب عنها ثم يعيدها من حين إلى حين إلى شىء من الوعى . . هو الآن يتكلم عن فئران السجن التى تأكل النيام إن لم يكن نومهم خفيفاً والتى تحب فى الإنسان لحم أصابع القدمين وما تحت الإبطين والمناطق البعيدة عن الدفاع فى الظهر . . آه ! . . اسمعى يا مولاتى السلطانة ! . . اسمعى ها هم فى الدهليز قادمون ، العبيد والجوارى ، وهذا مشعل الموكب تتخايل خفقات ضوئه على حائط الدهليز معلنة الأمر بالعفو السلطانى والعودة إلى النور . . . ها هو موكبك يا مولاتى فقولى لهم إنك لن تخرجى من هنا إلا ويدك على يد جاشنكيرك المسكين الذى لا ذنب له والله . . كنت ولا أزال مستعداً لتذوق

مأكول أى سلطان وروحى فى يديك . . ها هم بالباب . . اسمعى يا صاحبة العظمة . . انظرى ! رجلى على رجلك يا مولاتى ! . .

حقاً هناك حركة ونور يشيع فتخفق فيه أهدابها ، حقاً والرجل لا يحلم ، حقاً صدرها يكاد ينشق عن قلبها وهى تثب فى فرحة مجنونة ، ووقع الخطى ورنين المفاتيح وصرير الباب حقائق وبشائر ، أما حامل المشعل فقد توقف بالباب والنور المرفوع فى يده المتصلبة مضطرب خفاق ، وأما الشبحان الآخران فدخلا عملاقين يضرب نور المشعل فى ظهريهما ووجهاهما مظلمان ، وتكلم أحدهما فسقطت المرأة على ركبتين يائستين لما عرفت صوت إيواظ كبير الجلادين :

— مولانا السلطان يريد شعرها كله فاحرص وأنت تقصه على كل شعرة منه !!

كان يحلم إذن ذلك الذى يتماوت الآن نافثاً سموم ريحه العفن كما لو كانت سلاحه الأخير ، وصرخت المرأة بجنون عند قدمى جبار السجن ، ولمع المقص فى يد الحلاق لمعان السيف فى يد الجلاد .

(١٠)

هلل الحرس لمماليك خير بك وفتحوا لهم معابر البوابات قبل غروب الشمس ، ودخل خير بك إلى القلعة وأنزل تمربغا من حريمه وأوقفه أمامه فى الحوش السلطانى وطلب منه خاتم السلطنة ، وكان رجاله قد نزعوا سيف الرومى ، لكنه لم يفقد وقاره الهادىء عند هذه البغتة اللئيمة :

— هل كدر أحد خاطرك بشىء ، ما هذه العملة يا خير بك وما هذا الغدر ؟

لكن الدوادار أهمل السؤال والتفت إلى رجاله المتحلقين من حول الكرسى

ـ ابن الرومية يسأل عما كدر خاطرى ! . . عنده ميل للنكتة !

قهقه الفتيان الشامتون وأيديهم على مقابض السيوف ، وقال أحمده الواقف وراء كتف سيده المنتصر :

ـ نكتة الروم توجع القلب وتغم النفس !

وعندما هدأت الشماتة مال أحمده فى ميوعة على جاره فى الصف :

تحار العين أى الرجلين أجمل !!

لكن المملوك الآخر كان اهتمامه كله منجذباً إلى سكينة هذه النفس الرومية وهى تحت السيوف والموت حاضر ، ما أعجبه من رجل ، من أول لحظة خانه حرسه ودلوهم على مكانه فى القاعة المظفرية ، هو وحيد أمامهم انتهى قبل أن يتم على العرش شهرين مثل بلباى أخيب من حكم ، لم يتسلطن عشرين أو ثلاثين سنة كما سلطنته أحلامه ، لم ينم غير ليليتين على الوسادة التى عرفت القاهرة كلها أن جارية رومية متشفية صنعتها له من شعر جلبهار ، هذه هى النهاية ، عاجلة صاعقة ، قلعة الجبل تلفظه كما لفظه الخسيسان نادر وبظلم ، لكن ما أعجبه ! ما أعجب وقاره وهو يغضى عن الوقاحة عائداً إلى سؤاله الهادىء الأول :

ـ ما هذا الغدر يا خير بك وأين العهد الذى بيننا ؟

نفخ خير بك بزئير وهاجت ناريته :

ـ هات خاتم السلطنة يا ابن الرومية . . وأنا أؤمنك على رقبتك كلمة شرف !

دفع تمربغا بيده فى عب عباءته فأخرج شريطاً أصفر وخلعه من رقبته وقدمه إلى الدوادار مبرزاً الكيس الحريرى الصغير الذى فى طرفه ، وهو يبتسم :

ـ مادمت يا دوادار أعطيتنى كلمة شرف !! . .

تجاهل خير بك الغمزة وأخرج الخاتم السلطانى من الكيس وفحصه قبل أن يطوى عليه يده ، ثم طوح بالكيس الفارغ فى وجه الرومى :

ـ تذيبه فى عرق العافية !

مس الشريط بكيسه الضئيل صدر تمربغا قبل أن يسقط بين قدميه ، فالتقطه ونفض عنه الغبار وأعاده حول رقبته ودس الكيس فى عبه ، وهو مبتسم :

ـ طمأنتنى على رقبتى طمأن الله قلبك !

تتكلم عن الغدر ؟ هل شاورتنى قبل أن تخلعنى أمس من أتابكية العساكر وتعين قايتباى ؟ من منا الغادر يا كلب ؟

ـ شاورت الأمراء ووالى القاهرة وعزمنا على عقد إمارة الحج لك !

ـ إمارة الحج ؟!

وضحك خير بك بعظمة سلطانية دانت لها الدنيا :

ـ يا مغفل ! بظلم ونادر باعاك لى ! . . أنا فى دفع الثمن أذكى من رومية عقلك البليدة ! . .

سكت الرومى برهة ثم شوح بيديه مستسلماً للمصير :

ـ الذى رزأ بلباى بى ورزأنى بك قادر على أن يرزأك بقايتباى أو غيره ! أعانك الله على ما بليت !

طفح الدم إلى وجه خير بك وصاح فى بعض حرسه :

ـ أخرجوا الجارية جلبهار إن كانت ماتزال حية وأكرموها وخذوا هذا

الرجل فضعوه مكانها مع ابن التنة حتى ننظره فى أمره !

ظهرت فى صوت تمربغا لأول مرة نبرة متوسلة تنطق وحدها : « أنا فى عرض السلطان» .

ومات فى وجهه الابتسام :

ــ حطنى على الأقل مع بلباى . . أنا قابل !

لكن إشارة من اليد السلطانية الجديدة أسلمته إلى الأيدى والمهانة ، بينما كان خير بك ينهض مبتسما لغلامه أحمده وللأقربين السعداء من رجاله الذين أحاطوا به فى صعوده إلى الإيوان . . .

زهزهت الدنيا وصفت الأرض ، وتعالى فى ليل القلعة قرع الطبول التى ظل دويها يترامى من سموات الجبل فوق الحوارى منبهاً الغافلين ، وجاوبت زغاريد الجوارى رنين الكوسات ، ورقص أحمده بالصاجات الاسبانية عند مواطىء قدمى معبود الذى حفت به خشداشيته واستوى على العرش

ــ رأيت بعون الله أن أسمى نفسى السلطان الظاهر ، وأبدأ ممارستى لشئون السلطنة بالدعاء إلى الله أن يوفقنا لما فيه خدمة الإسلام والمسلمين . .

سجد أحمده فسجد الكل ، وقبلوا له الأرض .

وهو يتأمل ظهورهم متفكراً : من يكون أتابك العسكر بعد القضاء الفورى على أولاد الزنى كلهم ؟ ووالى القاهرة ؟ وناظر ديوان الإنشاء ؟ وديوان الأحباس ؟ وبيت المال ؟

(١١)

مشاغل ملأت الليل كله بعشر ساعات سلطانية ، ثم اندفع إلى قاعة العرش مع تباشير الفجر كبير من حرس القلعة الجديد واقتحمها وارتمى على ركبتيه أمام السلطان الظاهر :

ــ عفوك يا مولانا ، لكن القلعة مطوقة بعسكر قايتباى !!

خرج خير بك من كشوف الوظائف والجمكيات وفهارس الإقطاعات والحريم وساخت روحه أمام مبادرة هذا الداهية الجديدة الذى تجهز وحاصر فى عشر ساعات . .

ضبع مسعور آخر كما تقول يا أحمده لكن لا تبك يا حبيبى ، لا تبك ، وقد كنت منذ قليل أجمل من طارت به عن الأرض رقصة الفرح . . لكل عقدة حلال . . نقاتل رافعين الصنجق . . نشتريها بشىء من الدم ويدركنا الظهر أو العصر منتصرين . . أو نقسم البلد عند اللزوم بلدين . . صدقنى يا حبيبى ولا تقطع قلبى ببكائك . . كل عقدة ولها حلال ! . .

أحمده وسبعة أو ثمانية من الفتيان المرد ، كان هذا هو مجلس المشورة الذى انتهى بعد مداولة طويلة بأن السلطان الظاهر كبير حجابه :

ــ اذهب إلى إيواظ ليخرج لك تمربغا من سجنه بالإجلال والإكرام ويفليه من القمل ثم جئنى به فى الحال !

ها هو يظهر مرة أخرى بدمه الرومى الساقع وابتسامته التى لم يخمدها العالم السفلى ، وما مرت غير عشر ساعات منذ اختفى تحت الأرض ، ولا انعقد لسانه :

ها نحن مرة أخرى يا خير بك ، أعانك الله على ما بليت !

قالها وهو يدخل ليجد حاشية خير بك مطرقة فى وجوم والعرش خالياً من خير بك الذى انبطح بين يديه وقبل له الأرض :

ــ هذا عرشك يا مولاى السلطان لا يزينه غيرك ، وعفا الله عما سلف !

ــ مولاك ؟ . . أما كنت منذ قليل كلباً ؟!

وضحك وأخرجت يده من عبه الكيس الخالى ولوح به للوجوه المتقعة

— عرفت الحقيقة يده من عبه الكيس الخالى ولوح به للوجوه الممتقعة :

— عرفت الحقيقة فى طريقى من الزنزانة ، ولن أصعد الآن هذه الدرجات السبع ، وكيسى يا دوادار بلا خاتم ، لأن الخاتم سيكون معك عندما يدخل قايتباى !

ظل خير بك منبطحاً على الأرض يشترى الحياة بالهوان :

— هاك رقبتى ، فإنى كنت باغياً عليك !

رمى تمربغا بالكيس الفارغ فوق رقبة الرجل الذليل المسكين :

— يا دوادار ! . . لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء ، وهذا الصبح يكنسنا معاً ! . . .

اختنق صوت خير بك فلم يفهم أحد ما قاله وهو يعتدل ، وقبل أن ينهض سمع الجميع فجأة نفخاً فى بوق ، وارتج البهو خارج القاعة بضجة عظيمة وعجيج سلاح ، ثم انفرجت ضلفتا الباب بأيدى عبدين أسودين فى مئزرين قصيرين من جلد أصفر ودخلت طليعة فى صفين منتظمين من أمراء المئات والعشراوات ، قبل أن تملأ فراغ الباب عباءة سوداء على كتفى عملاق أشقر ، ما أن رأى العرش الخالى والرجلين المنكسرين عند أسف الدرجات حتى غلبه الابتسام ، وسجد السلطانان والذين معهما من رجال خير بك فقصد قاتيباى الأريكة على مهل واعتلاها وقبل له أصحابه الأرض !

وكلم الرومى بصوت تكشف عذوبته عن روح يأنس للفكاهة وتعجبه نكتة المواقف ولا تموته الواحدة :

هـون عليك فليس بينى وبينك عداوة ولا نفع لى فى ذبحك ، أليس إقطاعك فى دمياط ؟

رفع تمربغا وجهه عن حمرة البساط القرمزية وقال فى هدوء ووضوح :

— هو فعلا فى دمياط لكن إذا كان يلزم لأحد غيرى فأنا لا أبكى عليه !

— بل أردت أن أقول لك إنك ستعيش طليقاً فى إقطاعك على ألا تبرح حدوده ، لأنى أخلعك الآن من مقام السلطنة وأحمد الله رب العالمين ،

استبشر خير بك بهذه السماحة التى لا سيف فيها ولا زنزانة ، وخفق قلبه فى انتظار الإشارة إليه ، فلما غابت عليه استعجلها باخراج الخاتم من جيبه ورفعه فى يده :

— خاتم السلطنة فى شوق إلى مولاه الحق !

نطق الاشمئزاز فى وجه قايتباى وشوح بمركوبه مستهيناً بالشىء الصغير الظاهر فى الكف الذليلة ، وانفجر ضحكة الهازىء ، ودعت نظراته رجاله أن يتفرجوا :

— أنا يا خسيس أصنع أختامى بيدى ؛ أما هذا فأنت تأخذه إن شاء الله معك لتلعب به فى السجن ! . . .

حتى تمربغا الذى رأى سلطانين غيره فى ليلة واحدة استمتع بالفرجة على انهيار الداوادار الكبير وعلى مركوب قايتباى الذى غمرتـه القبلات وغسلتـه الدموع وهو يرفض كل ضراعة ، فلن يعيش ذلك الذى كان سلطان ليلة فى إقطاعه الجيزاوى ، بل لن يسمحٓ له بأن تضمه وأحمده زنزانة واحدة ، ولن يرحمٓ من نتن الجاشنكير إلا موت الجاشنكير نفسه بعد أن يجتر كل دهنه . . هذا أمر السلطان ! . . عاش مولانا السلطان ! . .

وللمرة الثانية فى ليلة قاهرية واحدة أرهف الغافلون فى الحوارى المظلمة المخفورة **أسماعهم** لرعد جديد من هزيم الطبول يستشرى فى السماء السمراء ، وصفت الدنيا لسيد جديد أشقر ، وتجاوبت زعقات عسس

الليل ، ونامت الطواويس فى بساتين الحريم على أنين السواقى التى ترفع مياه النيل إلى الفردوس المعلق فى قلعة الجبل .

(١٢)

لم يكن يدرى سبباً لما يفعل ، لكن نفسه التى أطاعت حافزها الباطنى كانت مشعشعة بهناء ساذج ، وكان اللعاب يسيل من فمه وهو يكشف النافذة القريبة المفتوحة فى بيت الملتزم ويرى الرجلين ويسمعهما من مكمنه الذى لا يخطر على البال ، وكان قد انتظر غبش الغروب قبل أن يتسلق سور البستان من ناحيته القبلية المنخفضة ويلبد فى تكعيبة العنب الركنية ليستوثق من خلو الناحية من العيون الكاشفة ، ثم زحف بين أشجار كبيرة مبهمة فى العتمة زحف حيوان ضئيل الجسم ضخم الرأس إلى أن تحكمت يداه فى جذع الشجرة التى انتقاها ، فنهض فى خفة ، وما أسرع ما وجد نفسه رابضاً فى أعلاها بجسمه العارى إلا من خرق متماسكة حول وسطه وقلبه ملىء بالرضا ، وكأن جسمه الشديد النحول فرع من فروع الشجرة نفسها ، وكأن جلده الأسمر الداكن يكسو العظام نفسها بلا لحم ، وكأن دماغه الكبير ثمرة ضخمة فريدة تكتنزها الشجرة فى أعاليها صنينة بها على الأنياب والعيون .

وأراح نفسه على ملتقى الفرعين وأرهف السمع عندما كلم الابن الأب وهو واقف أمامه بجلباب البيت :

ـ لابد أن أراهما أمامى ميتين بعد أن أشبع من جلدهما بهذا الكرباج !

اهتز الرأس الكبير فى أعلى الشجرة بانجذاب طروب ، واللعاب الغزير مسحه ظهر اليد العجفاء المرتعشة .. الجلد والموت ، هذا ما يريده إذن ابن الملتزم .. هكذا يكلم الضبع الصغير أباه الضبع الكبير .. ها هى الألسنة التى تصفه بالوساخة وها هى النعال التى تعودت أن تضرب مؤخرته كلما قطع طريقها فى الخلاء وطلب منها صدقة .. ها هى أحشاء وجودهما بارزة لسمعه وبصره وهو خفى فى علاه ، فمال بأذنه مصغياً وعظامه ترقص داخل جلده من

نشوة حريفة ، فسمع الأب وهو يلاطف ابنه الثائر دون أن يفقد حزمه معه ، ورأى بين يديه الدفتر الكبير الذى طواه قبل أن يتكلم :

ـ يا ابنى اسكت ولا توقعنا فى مصيبة كبيرة .. المسألة إن صحت محتاجة إلى حكمة ، وفى الإمكان حلها بهدوء ...

زعق إدريس وهو يضرب فخذه بمقبض سوطه :

ـ الحل الوحيد هو الكرباج .. حتى الموت .. الخائنة ! وزعق حمزة هو الآخر ودق بكفيه على فخذيه فى احتدام وهو يعتدل فى جلسته متحفزاً :

ـ الكرباج ؟ تجلد بنت ملتزم كفر الطماعين الذى يحتكم على زمام أكبر من ضعف زمام ميت جهينة ؟ .. اهدأ يا إدريس ولا تتكلم كلام مجانين ...

لم يعد إدريس يطيق البقاء فى مكان واحد ، يظهر ويختفى ، وخطواته فى الحجرة الواسعة مضطربة ، وصوته مختنق :

ـ كيف تطلب منى الهدوء وأنا أقول لك إنى رأيتها بعينى هاتين .. رأيتهما يا أبى .. رأيت كل شىء ! ..

ـ ربما كانا يلعبان معاً مثل كل الصغار .. عمرها خمس عشرة سنة والولد مثلها إن لم يكن يصغرها بسنة .. وأبوها له سكك نافذة على والى الجيزة رأساً ، فهل تريد أن تضيعنا يا سى إدريس على آخر الزمن ؟ واليد المرتعشة فى أعلى الشجرة لا تكف عن ارتعاشها ، والعين والأذن وجود كامل ، وأحشاء الضباع بارزة ، والضبع الصغير يقف أمام الضبع الكبير فاقداً كل سيطرته على صوته ، ولم يعد يعبأ أن يسمعه أحد :

ـ هل معنى كلامك أنك تريد أن أسكت على خيانتها خوفاً من أبيها صاحب الوالى ؟ .. قلت لك من الأول إنى لا أريد هذا الزواج ، فلماذا لم تتركها تلعب مع الصغار فى بيت أبيها وجئت بها لتلعب مع صغار خدمنا فى

فراشى !.. هل قلت لك زوجنى ؟

ها هو الملتزم ينهض بقفطانه البيتى فى حركة وقورة ويواجه ابنه فى فراغ النافذة :

ـ اسمع يا ولد !.. أنا لا أسمح لك أن تقول إنها غلطتى أنا .. أنا لم أقل لك اهجر عروسك الصغيرة بعد سنة واحدة من الزواج واذهب طارد الفلاحات المقرفات فى الغيطان والزرائب !...

ـ يعنى أولاد عبيدنا ينامون مع نسائنا ولا نفتح فمنا بكلمة خوفاً من ملتزم الطماعين ؟!

ـ لا ليس هذا معنى كلامى ، والولد يجب أن يؤدب إذا كان كلامك صحيحاً ...

ـ إذا كان كلامى صحيحاً ؟!.. أتظن حقاً أن شحطاً مثلى بلغ السادسة والعشرين لا يعرف إذا دخل بيته فجأة إن كان ما يحدث فيه هو الجد أم اللعب ؟!.. ومع من ؟ مع حفيد العبد خفير الصومعة ؟!

همهم ساكن الشجرة : « الله حى !! » .

وقال الملتزم لابنه وهو يضع يده على كتفه :

ـ لا تحمل الهم .. الحفيد والجد نقطع جذرهما .. شىء سهل .. لكن زوجتك طفلة .. اضربها علقة خفيفة وأفهمها خطأها .. ربنا نفسه يا ابنى يقبل التوبة !.. اضربها ثم صالحها وخذ بالك منها وأعطيانى حفيداً ، وليس هذا يا ابن حمزة بالشىء الصعب !

ـ طيب اسمح لى على الأقل أطلقها .. كل الناس تطلق ..

ـ يا إدريس يا ابنى وجعت قلبى !.. بيتنا يجب أن يظل عامراً ، هذه

هى الوصية التى تركها لى جدك إدريس الكبير قبل أن يطلع السر الإلهى .. وهذا هو شغلنا الوحيد أنا وأنت ومن يأتى بعدنا إن شاء الله من آل إدريس .. بأى ثمن .. أنا معك فى أن هناك أشياء سخيفة لا نحب أن تحدث لنا .. نقص فى المال .. محصول ردىء ... أستادار طماع .. فلاحة مستعصية على اشتهائنا لها .. الدنيا لا تنام لكن كل هذا فى الحقيقة لا يصح له أن يحرق دمنا .. الدنيا لا تنام يا ولدى .. الدنيا بنت فرصة .. ومصالحنا أولى باهتمامنا وهذا هو ما ستقوله أنت أيضاً لأبنائك وحفدتك من بعد عمر طويل .. أما الولد بركات وجده ابن الكلاب عبد اللطيف فقد فرغ أجلهما ولن يعرف الذباب الأزرق طريق رمتيهما .. هذا وعد منى فاترك المسألة لى ، ساعات قليلة . وأما ست العرايس فهى تؤكل أكلا .. ما الذى تكرهه يا عبيط فى صبية مثلها ؟ .. والله لو كانت بقيت لى أسنانى القوية لأكلتها من دونك على سنة الله ورسوله ولم ينكشف لك وجهها ، فهى والله خسارة فيك !.. روح يا شيخ !.. وزادت رعشة اليد الضامرة القابضة على فرع فى الشجرة عندما قصد حمزة النافذة ونادى منها بأعلى صوته الصارم :

ـ ياطه !.. ياطه !..

وسمع ساكن الجميزة العلوى صوتاً خشناً لا يظهر له من صاحبه أكثر من لبدة سوداء وطرف نبوت :

ـ أمرك يا سيدى الملتزم !

ـ هات لى البهيم ابن البهيم عبد اللطيف الأكتع من تحت طقاطيق الأرض

ـ أمرك يا سيدى الملتزم !.. لكن الأكتع موجوع ولا يقوى حتى على الجلوس .. عنده ، بعيداً عن البيت وأصحابه ، وجع تحت أبطه ولا مؤاخذة !..

ـ وأين الولد بركات ؟

ـ لعله كالعادة يساعد رئيس الأنفار فى الحوض الغربى يا سيدى الملتزم . .

ـ ابعث مرسالا يأتينى به فى الحال . . .

ـ حاضر يا سيدى الملتزم . . .

واختفت اللبده السوداء وعاد حمزة إلى ابنه فدفعه من كتفه وهو يضحك له :

ـ طمئن قلبك واعتبرهما ميتين من الآن واذهب إلى زوجتك ونفذ ما قلته لك . . استعمل يديك فقط فى علقة خفيفة ثم الصلح ، ثم حفيد لى أشمه يا غجر قبل طلوع السر الإلهى . . اتفقنا يا إدريس ؟

همهم ساكن الشجرة : « الله حى !!»

لم يبد على إدريس أنه اقتنع ، لكنه هز رأسه فى إذعان مقهور قبل أن يبتعد قاصداً باب الحجرة بلا ريب ، فأوقفه صوت الأب فى ظهره :

ـ واترك هذا الكرباج السخيف معى !

تردد الابن لحظة قبل أن يسلم سلاحه وينصرف ، وفرد حمزة الكرباج فى يده ولسع به الهواء فكانت له فرقعة خاطفة ، وفرقع به مرة أخرى مستسلماً لشعور بالفتوة والانشراح غاب عن الرأس الكبير فى الشجرة ، ثم قصد النافذة ونادى اللبدة السوداء وأمرها أن تؤجل إحضار الولد بركات إلى صباحة ربنا ، وعاد إلى كرسيه فى هدوء وفتح دفتر الحسبة . .

هبط الرأس الكبير من الجميزة فى حذر وزحف بين أشجار البستان حتى دارته التكعيبية وهو يتسلق السور إلى الخارج ، وظل محتمياً بجداره الخارجى

وعيناه شعلتا مصباح فى الليل حتى نظم أنفاسه وكشف الأفق قبل أن تنطلق به فى الخلاء المظلم ساقا غزال وثاب لا يكاد يلمس الأرض . .

(١٣)

وظهر بعد قليل للرجلين الجالسين عند حائط الطاحون ، فرحب به عيسى ودعاه إلى الجلوس بقربه :

ـ من أين والى أين يا شيخ مرعوش ؟

أشار الهيكل الناحل العارى ناحية صوامع الملتزم التى تبدو على البعد المظلم كأنها مردة مقعية من بنى الجن :

ـ من أسفل سافلين إلى نسمة هواء طاهرة ، لكنى نذرت الصوم عن الكلام فلا تكلمونى ساعة .

انحنى عيسى وقبل اليد المرتعشة ، وهمس خليل :

ـ دعه فى حاله وانس وجوده ما دامت هذه رغبته ، أنا أيضاً أحب الصمت فى هذه الساعة . .

وكان المغزل الدوار فى يد خليل يغزل اخر الخيوط لزعبوط أبو طاسة عندما انتزع مشهد الأفق المفعم بشحوب القمر البازغ وأنين السواقى البعيدة تنهدة طويلة من صدر عيسى :

ـ لا تطيب الحياة بغير امرأة تناكفها وتناكفك ثم تهمدان معاً . . والليل عند حائط الطاحون ملىء بالبراغيث والملل ، وشبح خالد فى الخلاء القريب من ناحية الأرض البور غامض فى اندماجه بالظلام لم تبدده بشائر النور الهينة ، كما لو كان عدواً مقعياً لا صديقاً يقضى حاجة ، فابتسم خليل وسكت المغزل فى يده لحظة :

ما فيك من عيب يا عيسى إلا حنينا إلى النساء !

ونفث الأفق بكائيات أرغول عميقة فى بعدها الخفى وراء أشجار السنط القميئة كأنها نابعة من بطن الأرض نفسها ، وتنهد عيسى من جديد وفاض به الوجد وهو يترنم بصوته الغليظ الجوانى :

« عشق البنات الصبايا هد منى الحيل . . . »

ـ لو جئت معى هنا يا عاشق الصبايا لرأيت شيئاً يسد نفسك . . قبيلة من فئران ميتة !

وأقبل خالد مسرعاً وقبل كتف الشيخ مرعوش عندما تبين وجوده ثم قال لصاحبيه :

ـ فئران منتفخة . . وبعضها متعفن . . .

لم يرد أحد فجلس معهم وأرهف سمعه لما يحمله الهواء الخفيف من حنين الأرغول النائى ، وفعص عيسى برغوثاً فى شعر ساقه الممدودة أمامه وهمس كأنه يكلم نفسه :

ـ على أن تكونْ امرأة بمعنى الكلمة !

وكشف ضوء القمر فى صعوده المحسوس فى الأفق طيف ابتسامة على وجه خالد ، وأطبق الصمت حتى أوقف خليل المغزل فى يده فجأة وسأل خالد :

ـ أهى كثيرة ؟

ـ لا أقل من عشرين فأراً . . كأنها اتفقت على أن تخرج من جحورها لتموت جماعة . . وروائحها لا تطاق والعياذ بالله . . ما الذى يميتها ؟ لكن المغزل لم يعد إلى الحركة فى يد خليل :

أنتم صغار ولا تعرفون . . عندك عشرون سنة يا خالد . . وعيسى

أصغر منى بعشر سنوات على الأقل . . والشيخ مرعوش سائح فى ملك الله لا يحمل هماً . . لم تروا ما رأيت من ثلاثين سنة وأنا صبى فى عامى الثانى عشر أو الثالث عشر . . بدأ البلاء بالفئران ثم اندلع فى جنس البنى آدم وكاد يكنسه من الأرض . .

ـ لا يارب ! لا ! . . ليس قبل أن أتزوج امرأة بمعنى امرأة لا سحلية من السحالى الناشفة ! . . .

لم يضحك خالد كما تعود كلما هفت بعيسى أشواقه إلى النساء ، وخرج صوته من حلقه مختنقاً :

ـ ربنا أعلم بحال بنى آدم !

قال عيسى دون أن يستشف الجد فى كلامهما :

ـ وبحال العبد لله ! . .

وكان يقلب بصره فى السماء مستعطفاً عندما لمح أصحابه الرجل المقبل عند سنطة الشيخ هريدى القريبة ولفتوه إليه ، فقال يتأمل القادم من الشرق فى دهشة :

ـ مشية مهبول أو مهزار أو مسطول !

واقترب الرجل وهو يباعد بين ساقيه متخبطاً فى سيره حتى انحط جالساً أمامهم دون أن ينزلوا ذراعيه المرفوعتين على إبطيه المشعرين المكشوفين من خروق قميصه ، وسمعوا لأنفاسه وهو يلتقطها صفيراً غريبا ، وتكلم ورأسه مائلة على كتفه :

ـ النجدة يا رجال الله ! . . .

ـ سلامتك يا خميس مالك ؟

صفرت أنفاس الفلاح المهزول وهو يتململ متوجعاً فى جلسته القلقة ، وظلت رقبته مائلة برأسه نحو كتفه والدموع تنحدر على وجهه الضامر المروع :

ــ شفيعى عندكم غالب حبيبكم وصاحبى .. اشفونى .. أنا فى عز شبابى .. أنا فى عرض الله ورجاله ..

احتضنه اهتمامهم وأحاطوه بقلوبهم وعرفوا منه مواجعه وتحسسوا بأيديهم الكلاكيع التى تشبه العقد الصلبة تحت إبطيه وعند ثنيق فخذيه وفى رقبته ، ورفع خليل إلى السماء من فوقهم كفين ضارعتين :

ــ يا ولداه يابر مصر ! .. يا ولداه ! ..

وانتفض الشيخ مرعوش وصرخ صرخة عظيمة أخرجته من صومه عن الكلام :

ــ يارب إذا لم تكن هذه كنانتك فى أرضك فلماذا تركتهم يقولون لنا هذا ولماذا تركتنا نصدقه ؟

وصرخ الشاب العليل فجأة صرخة عاوية مبتورة ووثب إلى ركن الحائط ونفضه هناك عذاب قىء متعسر ، وأكمل الشيخ مرعوش صلاته :

ــ اسمعنى بحق العرايا والجياع وكل الغلابة يا مجيب الدعاء يارب ! وطال عذاب خميس ومرعوش وعيسى وخليل وخالد عند الطاحون قبل أن تهدأ أحشاء خميس ويخفت صفير تنفسه دون أن تتوقف الدموع عن الانبثاق فى عينيه اللتين يشيع الاحمرار حول بريقهما الشديد :

ــ أنا عطشان .. عطشان .. يتهيأ لى أن ماء ترعتنا كله لا يروينى ولا بحر النيل ..

فانتزع الشيخ مرعوش بيده الثابتة أذن إبريق الفخار الكروى من الوتد المدقوق له فى الحائط وسقى أخاه دون أن تخرج دموعه من قلبه ، ويده الأخرى

ممعنة فى ارتعاشها الأبدى ، وماتت على الأفق آخر أنات الأرغول عندما تكلم بعد أن أعاد الإبريق إلى وتده :

ــ يا رحمن كن مع الذين صدقوك .. أنا ذاهب إلى دار سليمان أبو طاسة فاذهب إلى دارك وارقد يا خميس والله أكبر !

(١٤)

وقبل أن يتكلم منهم أحد كان قد انطلق فى ظلام الخلاء وثاباً لا يكاد يلمس الأرض وعيناه شعلتان حيثما تلفت ، وظهر بعد قليل بباب دار أبوطاسة الذى كان جسمه ظاهراً للمارة على حصيرة المصطبة الصغيرة وراء الباب وهذيانه مسموعاً فى الطريق :

ــ يا عباد الله ! من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج ! ...

لم تتحرك امرأته وابنة أخيه المتكومتان على الأرض من ناحية رأسه فى كآبة جامدة عندما أخذ يضرب بكفيه جلده رأسه المغضنة المحروقة ، لكن ست العيلة لم تقو على كتمان شهقة قصيرة ماتت فى الحال متحشرجة فى حنجرتها المختنقة ...

خطا الشيخ مرعوش إلى الداخل ووقف لصق الحائط دون أن يكلم المرأتين ، وهمدت كهولة سليمان وخانته يداه فتوقف عن لطم رأسه وفتح عينيه المحمرتين وهو يغالب صفير أنفاسه المتلاحقة :

ــ رأسى يا شيخ مرعوش .. الوجع فى الطاسة .. وجع لا أدعو به على عدو ولا حبيب .. فى قلب الطاسة ..

لكنه لم يلبث أن حملته مرة أخرى دوامة الهذيان :

ــ أحلف لهم ما شفت الشعير يسخنوا لى الطاسة .. آى !!

كانت صرخة قطيعة نفضت المرأتين من جمودهما ، وتأوه الشيخ مرعوش فى معاناة قطيعة :

ـ يا ولداه يا سليمان . . أنت الآن فى لحظة تعذيبك القديمة والطاسة المحمية لابسة فى رأسك ، والله لطيف !

وسألت ست الكل امرأة خالها وهى ترتجف فى وقفتها الخائفة :

ـ اسقيه يا امرأة خالى ؟

ـ يابنتى أين يذهب كل هذا الماء الذى يشربه كأن فى جوفه حريقة . . جسمه امتلأ بالبقع والكلاكيع المخشبة . . يا عينى يابو فاطمة . . زمان قالت لى أمى إن من يحصل له هذا لا يعيش . . تعالى نبل ريقه ياأختى . . هم ينسى هما . . خف عنى وجع الجنب ونسيته . .

وأسندتِ رأس رجلها إلى كتفها وقربت ست الكل الماء من فمه المتسخ الذى ظهرت أشداقه كما لو كانت مطلية بالهباب ، وتحركت فى العنق الناحل تفاحة آدم كبيرة لم تتوقف عن الرقص إلا بعد أن فرغت آخر قطرة فى الكوز ثم عاد الرأس الملتهب إلى الهدمة التى يتوسدها ، وعاد الصفير والتوجع والشكوى من أحشائه التى تتمزق ، ولم يلبث أن استلمته نوبة هذيان فظيعة انتهت بعذابات قىء جاءت أصواته العالية بفاطمة المفزوعة من داخل الزريبة :

ـ مالك يابا سلامتك ؟

حدقت العينان المحمرتان فى الشابة الملهوفة التى ركعت فى الحال وجعلت من يديها قصعة تتلقى ما تلفظه أحشاؤه الممزقة من عصارة وردية قليلة :

ـ يبارك لك يا بنتى . . عوض عن الولد !

شهقت فاطمة متكتمة يأسها الحزين ، وحنت على أبيها وضمت رأسه المحروق فى دفء صدرها العريض :

ـ يشفيك يابا ويكتب لك طول العمر . . .

ـ حلفت لهم يا فاطمة ما شفت الشعير سخنوا لى الطاسة . . آى !!

وعذابات عمره الشقى كلها تجمعت فى صراخه ونشيج ابنته ، وأمام الدار سيقان رفيعة وأجسام ضئيلة وأصوات مشفقة لجارات يسألن عن عمهن سليمان ، وهن يدفعن صغارهن الذين جذبتهم صيحات هذيانه وأظهرت رؤ وسهم الكبيرة بين سيقان الأمهات ، لكن المرعوش رفع يده الصغيرة وشوح برعشتها فى الوجوه :

ـ وراء كن شغل فى الدور يا نسوة أم ليس وراءكن إلا طول اللسان ؟ وتعرفن الدعاء أم لا تعرفنه ؟

واشترك صوته فى الارتعاش مع يده :

ـ الدعاء لميت جهينة ، رجالها ونسائها وصغارها ، ولخميس ابن أم خميس والأكتع عبد اللطيف وزين الرجال أبو طاسة ولكل من يفتكره العذاب ، ولا غالب إلا الله !

اضطربت السيقان الرفيعة خارج العتبة لظهور غالب ومجاذيب الطاحون الثلاثة ، وسمع صوت امرأة تبتهل عند دخول الرءوس الثلاثة الحليقة والمرقعات البالية :

ـ مدد يا سكان الطاحون . . .

وانحنى غالب على عذاب صهره ومس صدره بيده :

ـ شد حيلك يابا سليمان . . جماعة الطاحون هنا . .

ـ سخنوا لى الطاسة . . سخنوا لى الطاسة . . آى . . مظلوم يا عالم . . . مظلوم . . لا شفت الشعير ولا القمح . . الطاسة . . أنا فى عرض الطاسة . . .

وارتفعت يد غالب إلى الجبين فردتها حرارته العالية ، والتفت إلى أصحابه :

سخن نار، بعيد عنكم . . .

ولمح دموع امرأته الصغيرة وهى تغسل يديها فى ركن الزلعة ، ورق لها قلبه :

ـ ربنا يلطف يا فاطمة . . ربنا كبير . .

لكن ست العيلة مدت يدها وكشفت القميص عن بطن زوجها وأشارت إلى بقع داكنة متقاربة :

ـ كلما أكشف عنها أجدها اتسعت وكبرت . . شوف يا شيخ خليل ؟
انحنى خليل وفى رأسه أفيونة العصر وتأمل البقع المنتشرة فى البطن والساقين ، ثم لمس العقدة المتفخة فى الرقبة فدوى صراخ ألم فظيع عندما استشعر طرف سبابته صلابة العقدة . . وكان صوته عندما تكلم مبطناً بالأحزان

ـ بقى يا عم سليمان لما الزعبوط خلص غزله ! . . .

أجهشت فاطمة بالبكاء من جديد فنهرتها أمها فى هذه المرة :

ـ ادخلى يا بنت كملى قطع الزربية . .

ـ أقطعها بالطول وبالعرض يا امه . . أنا داخله . .

لكنها قبل أن تدخل خطت فى اتجاه الرأس الكبير ومدت نحوه يدها :

ـ دعواتك يا مرعوش ! . .

انتفض كالملسوع وهو يستجيب للصوت الأنثوى الكسير بصيحة هادرة

ـ كن مع الذين صدقوك يا رحمن ، كن مع الذين صدقوك ! ورددت همهمات خالد وعيسى وست العيلة الدعاء قبل أن يقول فى همسة :

ـ وكن معنا يا نفس ستنا زليخة . .

وكانت حواسه قد سجلت الشبه بين صوت فاطمه الطرى المخزون وصوت عزة لما كان صوتها يسعد حياته بالأنس والشكوى والرضى والعمار ، وفارت الذكرى فى حضرة الموت الفظيع فأكمل همسته الباكية :

ـ ونفسك معنا يا عزة يا طاهرة ! . .

وهاج سليمان فى نوبة هذيان عنيفة :

ـ من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج ! . .

اندفع خليل بعويله المكتوم مارقاً من العتبة إلى الخلاء وهو يسد أذنيه بيديه ، وقبل أن يبتلعه البعد كان المرعوش قد لحق به فى وثبات طائرة ، واندفع خيالها فى ضوء القمر ذاهبين إلى الأفق فى عدو خاطف وأذرعهما مفتوحة للسماء بكفوفها المبسوطة ، وصوتهما الواحد يرج ما بين الأرض والسماء :

ـ الطاعون ! الطاعون ! الطاعون ! . .

القسم الثالث

الطاحون

(١)

مسكينة قلعة الجبل !

مسكينة أرض النيل وهى تشرب عرق البؤساء لتزدرد به عهر شراهة أسياد الأعنة والبتار المنقوع فى السم ، كأن أكثر من مئة سنة من عهد برقوق البعيد ليست كفاية عليها ! . . كأن لم تبتلع الحلقة المفرغة التى بترها عهد قايتباى آلاف النهازين من عتاة الخطف ، مارة بحجر الرحى الطاحن على يلبغا ومنطاش وفرج وخشقدم وبلباى وتمربغا وخير بك الذى أدام الله عزه ليلة واحدة ، وكأن تلك الحلقة الغاشمة كانت تنتظر طوال تلك السنوات التسع والعشرين نومة قايتباى الأخيرة لكى يطل خرتيتها **الهمجى** بقرنه فى سنة **١٤٩٦** ويبدأ من جديد دورانه الشنيع فى الحوش السلطانى . .

قايتباى ظل مديد ينحسر ، لم يبق من حكمه الطويل غير هذا الفراش بأعمدته الأربعة بنقوش الذهب وهذا الشعار الذهبى المطروق فى قمته ، وفى السكون العميق تكرر الدق الخفيف على باب جانبى صغير فى ركن الحجرة الفسيحة قبل أن ينفتح ويدخل منه أغا كهل خفيف الحركة يحمل صينية فضية عليها كوب وقارورة دواء وملعقة من ذهب فى صحن من ذهب ، وانحنى الأغابتحية الإجلال للأمير محمد الصغير الذى وجده واقفاً بالقرب من السرير الأبوى والذى يبدو أنه سيصير بعد ساعات قليلة سلطاناً ، قبل أن يسعى فى وقار متكلف إلى الوسادة وينحنى عندها معلناً وصول الدواء إلى المسامع السلطانية :

ـ بلسم الصباح يا كوكب الشرق البهى !

ظهرت حدقتا قايتباى من بين أجفانه التى تباعدت على مهل ثم تنبه على زلفى العبد المتكررة ورأى القارورة فشوح بيده فى سأم غاضب :

ـ اشربها أنت يا سندس أغا . . أو اسقها لهذا الولد ! . . ما حاجتى الآن إلى هذا الطعم المر . . أنا أعرف أنها نهايتى . . اخرجوا كلكم . . كلكم . . وابحث لى عن تمراز فإنى أريده فى الحال . . خذ الولد معك . . لا أريد أن أراه مرة أخرى . .

سحب سندس أغا الأمير محمد من يـده فقام معـه من سكات ، لكن الصوت السلطانى الواهن أوقفهما فجأة قبل أن يختفيا :

ـ اسمع يا ولد يا محمد !

عاد الولد والأغا ووقفا عند السرير فشمل قايتبـاى ابنه بنـظرة كارهـة يائسة :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

زاغت عين الغلام من النظرة الفاحصة وتلعثم فى قوله إنه لا يريد الاطمئنان على سلامة مولاه السلطان وصحته الغالية ، لكن الأب دهمه فى الحال بسؤ ال آخر فيه كل الحسم :

ـ وولاية العهد ؟!

انكشفت أعوام محمد الأربعة عشر وهو يؤ كد أن هذا الشأن ما خطر على باله ودعا للسلطان بطول العمر ، لكن الأب الذى كان بعد كل كلمتين يلتقط أنفاسه وينظمها عاجلة بالضربة الماحقة :

ـ اسمع يا ولد ! . . مولاك السلطان لا يعنيه ما يحدث بعد وفاته . . وهو يموت دون أن يعهد لك بولاية العهد . . !

جمد الغلام فى وقفته المتصلبة وغاض الدم من سمنة وجهه المكتنـزة ، وشوحت اليد الأبوية فوق الملاءة بإشارة يائسة :

ـ لا فـائـدة . . لا فـائـدة من أى شىء . . ليكن مـا يكـون . . لكنى أنوى . . فى اللحظات المتبقية لى . . أن أموت فى سلام . .

وأطبق جفنيه واستعذب السكون . . مرض الموت ؟ . . مرحباً بالموت يمحو هذا السأم . . السأم من كل شىء . . هذه الأيام الكئيبة . . مـرحباً بالنهاية تنسدل آخر الأمر فى هدوء مثل هذه الستائر القرمزية الثقيلة المطبقة على نوافذ المخدع . . ماذا بقى من كل الجهاد قبل العرش وبعده ؟ . . هذا الابن المخزى الذى لن يكون بهمته القميئة إلا مطية لكل أمير جسور ، إن لم يكن مصيره الخنق فى الحمام أو الرمى من فوق أسوار القلعة . .

وكرر السلطان أمره للأغا وهو يصرفهما بإشارة من يده الطاردة :

ـ هات لى تمراز فى الحال .

اختفى سنـدس أغا والغـلام الأمير وضمت السـتـائر القـرمزيـة وحدة الإنسان قايتباى فى غروب شمسه وأنفاسه السأمانة فى وجه الموت . .

ماذا جنى من كل تعب العمر الطويل بعد الحرابة فى الداخل ضد الجلبان والطواعين وفى الخارج ضد العثمـانين والتـركمان ؟ حقـارة إنسان عصـره وخسته ؟ ومعرفة أرجال المنافقين والنهابين والمسوخ ؟! . .

هـا هو أحـدهـم ، تقدم يـا تمراز ، تقـدم ، خلا لكم الميـدان فبيضوا وافقسوا ، وتدفقت مرارات قايتباى المعتقة وطفحت الزراية بالأمير الداخل على وجهه الشاحب فلم يحاول كتمهـا ، أنت وأنا يـا تمراز نعلم أن أحسن مـا تتقنه فى الـدنيا هـو نقرك عـلى الدربكـة ، وأنك لا قـارىء ولا كـاتب ولا فارس ، لأنك لم يكن لك حظ خشداشيتك منذ تداولك الأسياد ، السيد

منهم بعد السيد ، ولم تنتظم فى قبضة تهذب غلظتك غير طواشية من أساطين الخلاعة يفقهونك فى العهر . . تقدم إذن . . ومن عجب أن يكون أمثالك هم الأمل الوحيد بعد موتى ! . . قف أو اجلس ولكن إياك أن تنبطح على الأرض وتقبلها . وأنت أول من يستعجل نفسى الأخير لكى يثب إلى الأعنة ويقبض عليها ، لأنى فى آخر لحظات عمرى وأصدقها لن أطيق رؤية النفاق كاشفاً وجهه إلى هذا الحد . . وتباعدت أجفان الشيخ الراقد ولمعت عيناه ببريق شديد وهو يأخذ زائره فى محيط نظرته الشاملة :

دعوتك لتقول لى . . ما سيحدث . . بعد موتى . . فقل لى !

تردد الجركسى ونفرت فى قمتى خديه الموردين نقطتان من الدم :

ـ فى الحقيقة يا مولاى السلطان . . لم أفكر فى هـذا أبداً والله . . إنما شغلنا كلنا صحتكم وحدها !

نعم رفرف يا صقر وحوم حول الرمة ، ما أكذب تضاؤلك فى خشوعك المزيف ، أرنى عينيك ولا ترغ بهما منى !

ـ نقر لك على الدربكة نقرتين تفتكر ! . .

انزلقت الغمزة على جلده الصفيق ولم يرتجف له عصب ، وويل لمحمد الطرى فى هذا المخلب الفولاذى ! . . انطق ! تكلم يـا وغد ! أليس عند المتصدى لتمرد الجلبان وجحافل التركمان حتى شجاعة الإفصاح عن مطمعه فى حضرة شيخ يموت ؟

ـ أو أنا أفكرك يا تمراز . . أنعش لك ملكة التذكر . . بسؤال قاطع . . فى رأيك من هو أصلح الأمراء للوصاية على الولد ؟

ـ أحد رجلين يا مولاى ، ما دام السلطان أدام الله علاه وأطال عمره قد أذن لى فى المشورة . . .

ومن هو الرجل الثانى ؟

ـ قانصوه بالطبع يا مولاى !

غلب الابتسام على مواجع قايتباى وانحنى برأسه قليلا باحثاً فى جوار السرير عن المبصقة ، فجرى تمراز وأدناها قرب الوسادة فى أكمل أدب دون أن ينتبه إلى سقطته البلهاء فى شرك الفهد العجوز المتشائم ، الذى فضحه :

ـ آه ! . . أتابك العسكر هو الرجل الثانى . . وقعت بلسانك يا غشيم . . . والرجل الأول طبعاً هو . . حضرتكم التمرازية !

لا تمراز ولا يحزنون ، كان متضائلا أما الآن فقد تلاشى ، أغبى وأحقر من فأر فى مصيدة ، واحد من أبرز الذئاب التى ستعبر عما قليل قنطرة محمد إلى صراع السلطة ، ما أغزر دمه الذى نط فى خديه المكورين وأشعلهما ، وما أضيق جبينه وما أعجب زئبقية عينيه ! . . .

هو ذا مخلبه ، ممسكاً إلى حين بالمبصقة ، طليعة المخالب المتربصة المشحوذة .

ـ اسمع يا تمراز . . هل تصدقنى . . إذا قلت لك . . إنى فى الحقيقة لا يعنينى ما يحدث بعد موتى ؟ . . ستركبها أنت أو يركبها قانصوة . . الشاطر يركب . . وليس لى عند كل منكما غير رجاء واحد . . رفقاً بجنب ولدى عند نخس المهماز . . إن الخيال الشاطر يوجع جنب حصانه بالنخس ليلهب دمويته لكنه لا يجرحه بمهماز !

ـ ما هذا الكلام يا مولاى ، لك طول العمر ! . .

هل يقصد هذا البهيم أنى أهذى وأنه سعيد بدنو نهايتى المرتقب ؟ إياك أن تنطق بعدها بكلمة ! . . اخرج . . اذهب جرب بختك فى اللعبة القديمة العنيدة . . وستجد الصقر الثانى جاثماً عند بابى يتشمم . . أرسله إلى . .

سيحزنه والله أنك دخلت قبله ويفرحه أنه آخر من يلقى فى أذنى بكلمته .. خسيسة هذه الحلقة المفرغة ، كيف لم يتنبه إلى هذه الحقيقة أحد قبل فوات الأوان .. كان ينبغى أن يكون هناك شىء آخر .. شىء آخر ..

وتحامل السلطان على نفسه حتى بصق ثم اعتدل فى رقاده عندما سمع النقر المؤدب على الباب الكبير ، ها هو المخلب الثانى لم يكد يطيق الصبر ، تقدم يا قانصوه ، تقدم ، افقس لنا فقسك .. هل تطلب ما تريد ؟ .. هل عندك شجاعة ؟ .. هل تسترجل وتقود معركة ؟ .. ويسكت عنك الجلبان ؟ .. شهراً ؟ سنة ؟ تسعاً وعشرين سنة أخرى ؟ .. تكلم .. هات ما عندك .. لكن وصيتى التى لا وصية غيرها أن الخيال يوجع حصانه بالمهماز دون أن يجرحه ..

يا قانصوه ! .. لا وقت عندى الكلام الكثير .. من هو الأصلح للوصاية على الولد فى رأيك ؟

قالها وهو يتظاهر بالبحث عن المبصقة ، والأدب المملوكى هو الأدب المملوكى ، شكراً يا حقير يازرى ، شكراً ، ضعها قريبة من متناولى وأجب عن سؤالى بصدق .. من ؟

وسلط عليه وهو يحتويه بنظرته جماع ما بقى له من قوة الحس والفكر ، يكاد يرى عمل مخه الوظيفى من خلال جلدة الجبين المغضنة ، حتى تكلم أتابك العسكر :

ـ الأمر ما يراه مولانا أطال الله بقاءه !

ما أسخفك ! يا رجل ارفع عينيك وكلمنى .. تمراز أم أنت ؟ هذا هو السؤال ! .. أريد قبل الموت أن أعرف الخيال الذى سيركب ذكراى .. مهماز محمد !

ـ العفو يا مولانا السلطان .. الأمير محمد على الرأس من فوق .. وسلطان غدنا !

زئبقى يا مولاى قانصوه ! زئبقى ! .. أنت مقرف ! .. لا أمير ولا سيد .. صحيح أن جبينه أوسع وشخصه أحكم ومهمازه أصلب ، لكن هذا النعل من ذلك الوطا على قول حرافيش البلد .. اسمع يا قانصوه ! .. إن كانت هذه الشجاعة كبيرة عليك فاعطنى شجاعة صغيرة ! .. قل ولا تخف عنى ، حلفتك بغلمانك الحسان وجواريك الغلاميات ألم تحزن لأن تمراز دخل عندى قبلك ثم تعزيت بأنك على كل حال آخر من يتحكم فى أذن السلطان المحتضر وفى إرادته ؟ .. لكن لا .. حتى هذه لن تقولها .. الزئبق لا ينطق بل ينزلق .. ويظل ينزلق .. إلى أن يخنق أو يسجن أو يوسط بالسيف ! ...

اخرج أنت أيضاً .. يأسى فى وحدتى أحسن !

لكن لم تطل الوحدة السلطانية فقد انفتح الباب الجانبى مرة ثانية وظهر الدواء والأغا المائع فى توسلاته المخنثة :

ـ من شأن خاطر عبدك سندس أغا يا مولاى تشرب البلسم الشافى ..

تباعدت أجفان السلطان فظهرت حدقتاه هائمتين فى دنيا غير الدنيا ، لكنه وسعه أن يهمس فى فتور :

ـ وحياة .. عيون .. سندس .. اكتفيت .. بالمهاميز .. فى قفاى .. لا تضيع وقتك هنا .. روح اهبش لك هبشة ! ..

ـ أمر مولانا السلطان !!

(٢)

كان المعلم الذى يبدو كالنائم على روحه مدموغاً بطابع الغيبوبة الدائمة وهو واقف فى ركن النصبة الذى تحتويه فى وقت الغروب عتمة دافئة ، يسخن فى كنكة سوداء عتيقة فنجان الحلبة المغلية لبائع الليمون الأعور الذى كان الزبون الوحيد فى القهوة ، عندما جاء من داخل حارة الحمام رجلان يحمل

أحدهما فى يده سطلا مفعماً بأدوات النقش ، وحول طاقيته الشال الأسود شعار الرفاعية .

ورد صاحب القهوة ببشاشة ذاهلة ، وطلب النقاشان القهوة السادة وهما يجلسان بالقرب من دكة الشاعر الخالية ، ثم سأل صاحب الشال الأسود وهو ينظر فى المقطف الزرى الملقى على الأرض بين قدمى الأعور الحافيتين :

ـــ معك فضلة ليمون يا أخ ؟

فتح الأعور المقطف المطبق وأراهما فراغه القليل الخالى إلا من بعض كسر الخبز اليابسة :

ـــ جبرنا من العصر والحمدلله . . كيف حال كتابنا ؟ انتهى بياضه على خيرة الله ؟

ابتسم النقاش الثانى وكان مثل زميله الرفاعى فى نحو الأربعين من عمره ، وقال وهو يدعك ذراعه اليمنى من تحت الكوع :

ـــ انتهى بعد أن وقعت من فوق السقالة وكادت تنكسر ذراعى للمرة الثانية بسبب كتاب حارة الحمام !

وكان المعلم قد خرج من وراء النصبة هزيل البنية محمر العينين وناول بائع الليمون مشروبه قبل أن يضع الصينية النحاسية الصغيرة أمام زبونيه الجديدين ، وظهرت يده اليمنى ناقصة ثلاثة من أصابعها ، فسأل وهو يصب لهما القهوة فى فنجانى البيشة الصغيرين من الكنكة التى اختفى لونها الأصلى تحت طبقة الهباب الكثيفة ، بصوته الوسنان :

ـــ للمرة الثانية ؟ . . يعنى المعلم سبق له أن شرف حارتنا ؟ . . ما اسم الكريم بالصلاة على النبى ؟

محسوبك يوسف الجهينى .

ـــ أنعم وأكرم . . من أين ؟

أشار يوسف إلى صديقه الذى يستطعم القهوة فى هدوء بعد تعب النهار :

ـــ من الخيامية أنا وزميلى الشيخ زكريا .

ـــ يا رفاعى مدد ! . .

وشم بائع الليمون البخار المتصاعد من فنجان الحلبة الكبير وقال فى سرور منعش :

ـــ الحلبة يا جدعان أحسن دواء للصدر والمعدة . . شفاء وعافية !

سحب المعلم كرسياً وواجه النقاشين وعاد ينكشهما للكلام بصوته المتراخى الذى يوحى إلى سامعه ألا شىء فى الدنيا يهم :

ـــ يعنى هذه ليست أول مرة يتشرف فيها كتابنا بصنعة المعلم زكريا والمعلم يوسف ؟

رشف يوسف من فنجانه وتألقت الابتسامة فى عينيه العسليتين :

ـــ أنا تربيت هنا فى حارة الحمام يا معلم ، فى بيت كان قائماً مكان الخرابة الكبيرة التى وراء الكتاب . .

ـــ آه . . بيت الشيخ عباس ، الله يرحمه ؟

قال زكريا وهو يبادل صاحبه نظرة ضاحكة :

ـــ قل : الله يطيل عمره وينفخ فى روحه !

وهز يوسف الفنجان فى يده قبل أن يحتسى ثمالته الثقيلة المرة ، وحار فى طوفان الذكريات المتدفقة فكره :

ـــ ما أبعد ذلك الزمن ! . . ناس غير الناس ودنيا غير الدنيا . . كأنها ثلاثمائة سنة لا ثلاثون . .

ورد الفنجان الفارغ إلى الصينية ونطق فى وجهه الطيب الأسمر شجن وحنين :

ــ نسيت الآية الرابعة من قل أعوذ برب الناس فكسر لى الشيخ عباس ذراعى . . من هنـا . . كانت لـه عصا ولا كـل العصى . . لم يكن مؤمناً بضرب الفلقة . . كانت حكاية ، وكاد زوج خالتى المرحوم المعلم أيوب يكسر للشيخ رقبته . . آخر عهدى بالكتاب . . اشتغلت مع زوج خالتى فى دكان النجارة ، مستفتحين كل يوم بالدعاء على الشيخ أن يموت ونصنع له بأيدينا نعشه . . وهذه القهوة كانت موجودة أيضاً . . كما هى الآن تماماً . . كـان اسمها قهوة زين الـدين . . . وكـان المعلم زين الـدين رجـلا طيباً مثـل السامعين . . زمن يروح وزمن يجىء . . وسبحان من له الدوام ! . .

دعك المعلم عينه الحمراء الدامعة وأخذ وقتاً حتى جمع أفكاره :

ــ تعيش يا معلم يوسف . . هذه القهوة قديمة فعلا . . وأنا سمعت لما أخذتها من بنت زين الدين أنها موجودة فى مكانها هذا من عهد برسباى . . وربما من قبل بـرسباى . . أمـا بنت زين الدين فقـد أخذت منى القـرشين وهجرت حارة الحمام وبركة الحبشى كلها . . لا أدرى إلى أين . . كانت بنتاً مسترجلة يعمل لها الرجال حساباً وتتعامل معهم بكفاءة وشـرف ، مع أنها ولا مؤاخذة نتاية وحلوة . . لا أنسى الغمازتين فى خديها . . وودعتها قائلا لها إنى أحسد من يتزوجها . . ضحك زكريا وهو يضرب كتف زميله الذى رجت قهقهته المكان الضيق وهو يمهد لإيقاع صاحب القهوة فى ورطة كبيرة :

ــ تزوجت واحداً من أولاد حرفتنا . . نقـاشا . . ولا تـزال فى خديـها الغمازتان !

وانتظر الجميع حتى سكتت السعلة من بـائع الليمـون ثم غمز يـوسف صاحبه الرفاعى وهو يبغت غيبوبة المعلم المستعلية على الوجود بسباتها :

ــ هى الآن زوجتى وإن كانت لم تصبح بعد أم العيال ، لأن الله لم يكرمنا

إلى الآن بالذرية ! بنت المعلم زين الدين هى زوجتى ! رفس بائع الليمون برجليه مستمتعا بالقفشة واستلمته السعلة ممزقة ضحكـاته الخشنـة ، وتعثر الاعتذار الخجول فى كلمات المعلم المضطربة ، وكأن يده المبتورة الأصـابع عاجزة عن التعبير :

ــ أما أنا مقطف ! . . لا مؤاخذة ياسيد الناس ! . . طول عمرى هكذا ، أندب مثل الرطل ! . . جماعتى أيضا والله العضيم لها غمازتان . وفى موضع غير الخدين ! . . أقول لك هذا من أجل أن تسامحنى . . قل لة يغفرُ زلة لسانى يا رفاعى مدد !

ربط الضحك بين الرجال الأربعة كما لو كانوا أصدقاء عمر مديد ، وعمر قلوبهم صفاء أخوى رفع وجودهم إلى مقـام الألفة والمحبـة ، وأراد صاحب القهوة المكسوف أن ينقل الحديث نقلة ترفع مابقى فى نفسه من حرج :

ــ وأنت يارفاعى مدد ؟ هل وفقك الله أنت الآخر إلى أهل وسكن ؟

تبسّم كل ما فى زكريا من تحت الشال الأسود ، من الجبين إلى أصابع يديه المفتوحتين أمام وجهه الراضى :

ــ زوجتى أنا ؟ . . هى أجمل الزوجات ، وطرفى لايرى بعدها ما يسرنى ، وروحى بها هائمة وممتزجة ومتحدة ، وأيامها طرب ولياليها عجب !

صحت فى وجدان يوسف هواجع الذكريات وانفثأت مكامن المواجع . لاينسى ذلك اليوم من عشر سنوات . . لاينسى كيف جاء بالمأذون لعقد قرانه عليها وهى تفقع بالصوت غداة مصرع أبيها فى زقاق الناضورى . . لم يكن فى الإمكان تركها تقضى الليل وحدها وهى عـلى ذلك الحـال من الجنون . . أخذها إلى بيته . . وكان نهار قايتباى الطويل قد انتصف وتوسـطت شمسه سماء البلد ، عندما كبست زاوية المجاذيب عصابـة مملوكية بقيـادة جركسى شرس الهياج ينادى سيفه بأن أستاذه قد ذبح فى هذا المكان فى قديم الزمن ، وأنه لن يهدأ حتى يذبح كل من فيه انتقاما وقصاصا . . وكان ما يقوله هـو الحق ، لكن ذابح أستاذه كان قد هرب إلى بر الجيـزة ومرت عـلى هجرتـه

سنوات . . وأحاطت بالبهاليل المجاذيب سيوف ظامئة ، وبزغت زليخة من سردابها رافعة مقرعتها . . .

ـ كنت هناك . . رأيت المجزرة . . من مخبئى الجبان فى فجوة السور الخلفى . . رأيت السيوف وهى تروى ظمأها من دماء البررة وضيوفهم الأعزة الذين يساوى الواحد منهم ألفا من تلك الكلاب البيضاء المسعورة . . كان على مدخل الزاوية بواب من البهاليل المكشوف عنهم الحجاب ظل ساعة قبل وصول الخيالة يزعق فى الحوش معلنا الاستشهاد الجماعى ، وكأنه يرى المذبحة كاملة بين عينيه وفى حبة قلبه المنورة . .

ـ تعيش يا ابنى وتفتكر . . الله يرحم الجميع . .

ـ وجاءوا بحمام الدم . . لا أنسى . . لا أنسى . . وسمعت ستنا زليخة رضى الله عنها تنادينى وهى تقاوم بمقرعتها الهائلة ضربات السيوف : ولقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » ! . . وعلمت بعد فرارى المؤسف من الهول كما علمت القاهرة كلها أن مقرعة شيخة الزاوية وأم الرسالة خطفت أرواحاً لا تحصى من حصاد جهنم المملوكى قبل أن يشق كافر من سيوفهم صدرها عن قلبها . .

واختنق صوته وخانته الكلمات . . وفجأة بكى فأجهش بائع الليمون ، لكن الرفاعى نهض فى هدوء آخذاً بذراع صديقه وهو يلقى فى قلبه السكينة :

ـ نقوم قبل ما يقفل باب الخيامية ونلحق صلاة العشاء فى زاويتنا ، أما القلب الطاهر الحر فقد تلقفته ملائكة الرحمة يا يوسف واحتضنه بركات الأفق الأعلى . . هلم بنا !

تماسك يوسف وأدخل يده فى طوق جلبابه فأسرع المعلم إلى سحبها قبل أن تبلغ جيب الصدرية :

ـ والله لا آخذ شيئاً . . أنتم أهل المكان ونحن هنا ضيوفكم . . كفاية علينا البركة . .

وشيعتهما مع دعوات المعلم الطيب خطى بائع الليمون الذى تأبط مقطفه الضئيل حتى أوصلهما إلى باب الحارة الذى كانت رءوس مساميره الجديدة لامعة فى غبش المساء الزاحف ، وهناك أمسك زكريا سطله فى يسراه وأسقطت يمناه فى كف الأعور شيئاً ومسح على رأسه وهو يرده إلى عالمه :

ـ خذها وتوكل !

وتنهد يوسف ملء صدره القوى ويده ملامسة لحديد متراس البوابة :

ـ ينزع الباب القديم ويدق الجديد لكل جيل . .

وانتظمت خطواتهما فى مشية نشيطة انسجمت مع السرعة المتشابهة فى خطى العدد القليل من المارة فى كل اتجاه ، أبناء مدينة لابد أن تموت الحياة فيها من بعد أذان العشاء إلى صلاة الفجر ، لكن قطعت طريقهما عند تربيعة سوق النخاسين ضجة زحام حول عقوبة تجريس علنية . . .

ـ حرامى . . حرامى . . حرامى . .

وكان الذى على الحمار فى وسط الزحمة الشديدة حافى القدمين قذر القميص عارى الرأس مسلوب الإرادة ، وكانت سحنته البائسة إلى دبر الحمار ، وعن يمينه موظف عمومى يضرب الجرس على رأسه ، وعن شماله آخر يقود زفة من الغلمان أشباه العرايا يرددون نداءه المغنى :

ـ حرامى . . حرامى . . حرامى . . .

أخذ زكريا بذراع يوسف كاسراً على زقاق السبيل :

ـ كأن هذا التشهير البشع لا يكفى . . . فى النهاية يجلدون المسكين وسط بنى قومه المتفرجين . أقول إن هذا ظلم وأننا سنحاسب على رضانا به وسكوتنا عليه . . أقول هذا دائماً لجارنا الأزهرى الشيخ الغرباوى فيقول لى : إن العمة السوداء لا تعطينى الحق فى بحث أمور ترجع الفتوى فيها من قديم

الزمن إلى مشايخ الأزهر وحدهم . . وأقول لله فى النهاية : هذا الحال بدن هالك ولو أن لنا روحاً صادقاً لأحرقه وتبدد البدن كالرماد المنتثر . . اللهم أنزل فى الظلمة نورك !

والمنـادون من ورائهما مـازالوا يـزفـون راكب الحمـار المستسلم لهـوان التجريس .

ـــ حرامى . . حرامى . . حرامى . .

هدير يتباعد وصدى يتبدد ، هى ذى عطفة النعناعةوستارة حمام النساء بالية النقش جرباء الحواشى . .

ومساء الخير يا نبوية ، هذه أنت فى جلستك عند فضلة كراتك الذابلة أمام دكان العطار عثمان وحولك سحابتك الأزلية من ذباب العطفة الطنان المستأنس ، والطواف يوارب الباب ويستحث آخر الخطى المتسكعة ، والمؤذن صاعد فى المئذنة . .

وفى يمين حائط حجرى فى نهاية العطفة فتحة تلقف الداخل إلى دهليز مظلم مديد الطول تتوالى فيه أبواب خفيضة يبول أمامهـا صبيان وبنـات ، وباب زكريا أمام باب يوسف بعد المنعطف الأول . . معك السلامة . . معك السلامة . . ومن يصحو من نومه قبل الآخر يوقظه . .

ـــ السلام يا يوسف لأهل بيتك . .

ـــ يصل إن شاء الله . . تصبح على خير . .

ـــ وأنت من أهل الخير وإن كنت لا تعرف !

ودخل يوسف على أهله ، لا صبيان ولا بنات فى حجرة يوسف ، كل ما عنده عدا الهدمتين على الحائط والحلتين فى الركن والطبلية والزير والكوز والمساند والفرشة البسيطة على**الحصيره** غمازتان فى وجنتين دمهما حاضـر فى

سمارهما اللطيف ، وأنوثة فى نضج الثلاثين ، ونظرة حب وأشواق . .

ـــ مساء الخير يا مكاسب . . .

ـــ حدثتنى نفسى بأنك ستتأخر . . قالت لى : إن من المحال أن يذهب يوسف إلى حارة الحمام ولا يجلس فى قهوتنا ويترحم على موتانا . . كنت عارفة ومع ذلك أوحشتنى !

وخشب الطبلية يلمع والفرشة النظيفة تنادى مبشرة بالراحة والنعمة :

ـــ الشيخ طلع له عشاؤه ؟

ـــ الشيخ صائم . . وعنده ذكر حمام أبيض يعالج كسر جناحه . .

ـــ قال لك بعظمة لسانه إنه لن يأكل ؟

ـــ قال لى وهو يردنى بالطعام إنه سيكسر صيامه عندما يطير ذكر الحمام مع سربه . . وطلب منى أن أقول لك إنه يريد الليلة ألا تتعب نفسك بصعود السلم إلى السطح . . قل لى . . هل مع الشيخ زكريا ما يأكله أم أحمل إليه ما رده علينا صيام الشيخ عباس ؟

ـــ زكريا جاء معه من السوق بثلاث خيارات كبيرة ، فخذى له بعض

ما عندنا إن كان يستحق النقل عبر الأبواب . .

عندنا الخير كله يا يوسف !

وكان يوسف فى لحظة سكوتها قبل أن تجاوبه قد صعد خاطره مرة أخرى إلى ساكن السطح ، فجاء رده عليها مخيباً لرغبتها الواضحة فى أن يسألها عن نوع العشاء :

ـــ صائم فى هذه الشيخوخة الفانية . . أخشى أن نجده ذات صباح ميتاً

وسط الحمام .. هل أضغط عليه ليأكل ؟

الغمازتان ناطقتان بالعتاب ، صائم يعنى صائم ، وأوحشتنى يعنى أوحشتنى ، لم يبق إلا أن يعبر الطبق البابين إلى يد زكريا ثم نقفل بابنا وأكلمه ويكلمنى ويضحك وينفرد ويرضى ، ويعرف أنى أحبه .. دعنا نعيش لحظة ! نعيش ! ...

(٣)

للقهرمانة الكبيرة رئيسة الحريم السلطانى مشية جليلة وهيبة أخاذة ، ولقامتها الهيفاء فى كهولة الخمسين سحرها الفريد المتوج بشعر أسود تبرق حيويته فى أضواء مشاعل الإنارة المتناثرة فى الأبهاء الواسعة والممرات الطويلة ، وحراس الليل يتصلبون عند مرورها وتسلمها نظرة الواحد منهم إلى نظرة الآخر فى سكون ملىء بالاحترام والإعجاب ، وحجاب قاعة العرش يفتحون لها وهم ينحنون أمام باب القاعة الواسعة كميدان قتال والعرش العالى فوق درجاته السبع وقانصوة يرقص وفى يده السيف أمام العرش وحول العرش ، ينزل فى الدرجات السبع ويطلع فيها ، لم يعد فى الخمسين بل فى الثلاثين ، بل العشرين ، ما أحلى الدنيا فى حال طاعتها وإقبالها ، وما أشهى نبيذ القلعة المعتق فى أقبيتها السرية من عهد برقوق !

تبسمت القهرمانة وقالت لأتابك العسكر الثمل وهى تسعى فى بساطة نحو العرش وتعتليه :

ــ أنت رجل سعيد يا قانصوه ، والمنجمون صادقون فى قولهم لى : إن سنة ١٤٩٦ هذه هى سنة صعود نجمك وإشراق سعدك ، لكن الحاجب رأى رقصك عند دخولى ولن يطلع الصباح حتى يعلم كل من فى القلعة أن أتابك العسكر الوصى على ابن قايتباى كان يرقص على العرش مستقبلا يوم نصره على تمراز وهو سكران ! ...

تركها جالسة على العرش وارتمى فوق درجاته وهو يلهث ، وخانته أعصابه فى إعادة السيف إلى غمدة فألقى به على البساط عند قدميه وهو ينفث أعماقه فى ضحكة جلفة :

ــ اسكتى يا قهرمانة الحظ السلطانى .. اسكتى .. كم انبطحت هنا على وجهى وكم قبلت الأرض ! ..

ــ هل أنت فى حاجة إلى من يعلمك الحكمة ؟ عليك أن توارى فرحك بالنصر كما توارى نشوتك بالراح !

تمطى الجركسى وتثاءب ملء الإيوان قبل أن يرد :

ــ إن هى إلا رشفات قليلة من زبدة دنان القبو ، وأنت تعلمين يا جلبهار أنها تنعش النفس وتصلحها ...

يارب ! لماذا لم يكن فى حياتها كلها غير هذا الصنف من أشباه الرجال ! هذا آخر سهم فى جعبتها ، آخر من مدت له يدها وقومت طموحه فى معركته الفاصلة مع غريمه تمراز اللئيم .. لكن ما الفائدة ! .. إن الرجل الوحيد الذى احترمته فى عمرها كله هو قايتباى الذى يموت الآن فى فراشه وهو يسمع صراخ زوجاته المتماسكات فى نزاعهن على خواتمه النفيسة المنتزعة من أصابعه وهو فى غيبوبته .. كان فى السلم والحرب سيداً ، وكانت له النظر النافذة والإرادة الباترة وسجايا العظام الحاكمين ، وهو الذى رفعها فى أول شبابها من عفن الزنزانة وأهداها المراهم التى أنبتت لها فى رأسها المحلوق شعراً جيداً ووضعها منذ ذلك اليوم البعيد على رأس حريمه وجعل لها فى القلعة كلمتها وهيبتها ، وهو الوحيد الذى خفق له حقاً قلبها .. لكن ما الفائدة من هذه الأقزام المتعملقة الناهشة فى لحمه الذى لايزال يخفق فيه الروح ؟ ... ما الذى يفعله الآن هذا الغبى الذى أحسنت به الظن ؟ .. يزحف فى الدرجات طالعا إليها وفى عينيه سبق أحمق .. فأوقفت حركته البليدة السكرى بإشارة حازمة

من إصبعها . . قانصوه ! أفق ! . . أمامك أعباء جسام ! . . وإذا كان تمراز فى السجن منذ الضحى فإن الذئاب كثيرة ومسعورة ، والسلطان حى مايزال ؟ إن أنت إلا أتابك **العسكر** ، وبينك وبين التفكير فى المتعة آماد تقطعها باليقظة والجهد والعرق قبل أن تسترخى وتصفق فى طلب الكؤس والمزامير والعرايا من جواريك وغلمانك . . وإذا كان من حق محمد بن قايتباى وهو فى عمره الشهوانى أن يغرق فى المتع ، عندى وبمعرفتى وباتفاقى معك ، فما عذرك أنت ! . . أفق وانهض وافهم واحكم ! . .

ـ أريد يا جلبهار أن أغطى وجهى بشعرك الجميل فارفعيه إليك !

ـ يارجل ! . . لقد كان لى فى شبابى شعر أجمل من هذا وهو الآن وسادة تحت رأس قايتباى ، فانتظر قليلا تكون لك الوسادة وتنام عليها أنت أيضاً إلى آخر عمرك ، لكنى أريد أن تعلم أن نفقة حروب قايتباى وترادف الطواعين ومطامع الجلبان قد خلفت خزانة خاوية وأن تقول لى ماذا أنت فاعل فى هذا وقد دانت لك السلطة وتوليت أنا عنك أمر ولى العهد ؟

ـ آه ! . . الولد ! . . كيف تركته ؟

ـ غريق فى أمواج من لحوم الجوارى وسعيد وأبله إلى الأبد !

ـ وماذا يقول ؟

ـ يقول إنه يود أن يجرب خنجره فى كل هذا اللحم ويراه وهو يتقطع ويدمى ويتأوه ! . .

توقدت فى عينى السكران نظرة راضية ومد يده فتناول سيفه من الأرض وأداره فى يده مستمتعاً بلمعان فولاذه المسقى :

ـ إذا كان قايتباى فى غيبوبته لم يعرف أن المبايعة قد تمت لابنه بحضور الخليفة والقضاة الأربعة فكيف يعرف نوع الوسادة التى يموت عليها ؟ . . اذهبى فاسحبيها من تحت رأسه وهاتيها لننام عليها . . معاً . . الآن . أنت فى

عمرك هذا أشهى من الصبايا . . نام هنا . . على العرش . .

هبطت عن العرش ورفعته من تحت أبطية حتى أوقفته :

ـ خزانة البلد خاوية يا قانصوه . . خاوية ! . . .

ـ الذى سدد خطاى فى يوم واحد حتى نجحت فى المبايعة لابن قايتباى وسجنت تمراز وملكت الزمام قادر على أن تملأ الأيام نصراً والليالى متعة والخزائن ذهباً ! . .

تنهدت المرأة فى يأس هادىء نطقت مرارته فى صوتها :

ـ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، هكذا سمعت قايتباى الحكيم يقول :

أطرق الرجل ودعك جبينه بين يديه قبل أن يتكلم :

ـ الأمر أسهل مما تتصورين يا امرأة يا حلوة :

ـ عندك حلول جاهزة لمواجهة الجلبان واحتمالات عودة الحرب والطاعون ؟

انتفض قانصوه عند كلمتها الأخير: كالملسوع :

ـ الطاعون ! . . الطاعون ! . . . لماذا يحلو لك أن تكررى على مسامعى هذه الكلمة الفظيعة . . الطاعون انتهى . . خاف من معشوقك قايتباى الذى هزمه مرتين ومات وشبع موتاً . . ما هدفك ؟ تحطيم نشوتى ؟

ـ الطاعون لا يموت أبداً . . لا تصدق هذا ولا تبن على أساسه قلعة أحلامك فهو يختفى حقاً ويلبد فى خبث إلى أن تحين له فرصته فإذا الفئران راقصة وإذا الوباء فى الناس . . لكن مشكلتك الحالية شىء آخر . . مشكلتك الآن هى المال ! . . المال ! . . المال ! . .

ـ المال ؟ . . يكفى أن أزيد أشياء وأنقص أشياء ! . . أنا عندى مخ !

ومن الزيادة والنقصان يفيض السمن والعسل ! . . أزيد فى خراج الأرض وفى زكاة التجار وفى الجزية المقررة على أهل الذمة وفى المكوس على وفاء النيل وعلى بيوت البغايا وكل ما يتراءى لى أن أفرض عليه مكساً ، وأنقص فى الوقت نفسه ما لا داعى له من الجسور والترع والكتاتيب وأرزاق الولاة والقضاة والنظار والكتاب والحصون . . ولا تنسى فوق هذا كله أنى أنوى أن أحتكر لنفسى المتاجرة فى السمن والشمع والصابون والنطرون والشب والعسل والرصاص والحديد والزمرد وأشياء أخرى نسيتها الآن لكنها موجودة عندى فى قائمة . . هل تبينت الآن أن الأمور ميسرة وأنه ما من عود غض تطوله يدى إلا وجدها اليد العاصرة ؟

ولم ينتظر ردها ، فقد اندفع مع الأحلام ولم يعد قادراً عليه إلا الأيـام والليالى :

ــ واطلبى لنفسك ما شئت تجديه فى الحال عندك ! ماذا تريدين لنفسك ؟

ماذا تريد لنفسها ؟ هى نفسها لا تعرف الآن ما تريد ، كل ما تعرفه الآن وتقطر مرارته فى أعماق وجدانها هو أنهم كلهم هكذا ، من لم تأخذه منهم العنة فى المخدع فهو عنين إرادة وبصيرة ، نهابون نهازون قصار النظر ، بلا ضمير ولا ذاكرة ، وخيرهم وأحسنهم يطوى كتاب أجله الليلة أو مع الصبح دون أن يعلم بالمؤامرة التى شاركت هى فى تدبيرها وتنفيذها . . وهمست فى إعياء وهى تنهض خائبة الرجاء من جلستها على درجات العرش :

ــ أنا راضية بمكانى فى الحريم وبشعرى فى رأسى ناجياً من مقص الجلاد ، وإنى ذاهبة لأحرس متعة محمد وأجتر أحزانى !

ولم يلحظ حراس الممرات المتلاحقة ما طرأ على جلال مشيتها من فتور ، لكن سندس أغا الرابض بالملعقة الذهبية عند باب السلطان المحتضر لم يكد يراها حتى فقد صنعة توقره :

ــ قهرمانتى ! سيدة الأقمار وزهراء الشموس ! ساعدينى ! . . أنا أحاول منذ صباحة ربنا بلا فائدة . . اقنعى المولى العظيم أن يشرب بالهناء والعافية بلسمه الشافى بإذن الله ! . . أقبل قدميك ! . .

لم تحتمل فى هذا المقام ميوعته ، كادت تصفعه ، ضاقت بكلماته التى يريدها هفهافة مجنحة ويحسبها فى الظرف آية ، ولأول مرة منذ بيعت طفلة عند باب زويلة أحست سخف هذا الوجود الشاذ ووطأة الصوت الخليع المغثى :

ــ اسكت ! . . ارحم الرجل ! . . اذهب إلى جهنم تجد بابها مفتوحاً !

ــ كلكم اليوم تقولون اسكت يا سندس ، وسندس معه حق لو بكى وناح واشتكى ! . .

دفعته بيدها كما لو كانت تنحى عن باب السيد الذى تغرب شمسه عاراً لا ينبغى له فى ساعته الأخيرة أن يظهر للعيان ، ودخلت على أطراف قدميها فلم تجد عند الفراش السلطانى غير حسناء صغيرة من جديدات الجوارى تحدق فى الشعار الذهبى وهى تنهنه ببكاء خافت . .

ما الذى يبكيك أنت الأخرى ؟ . . أخذن خواتمه كلها ولم يتـركن لك زمردة ولا ياقوتة ؟! . . وهمت أن تطردها لكن نظرة البنت المحزونة أشعرتها بخطئها ، فهذه دموع حقيقية . . ما الذى كان لها من هذا الشيخ الفانى فهى تبكى عليه بكل هذه الحرقة الصادقة ؟ . . كلمة طيبـة قبل أن يهـد المرض شيخـوخته ؟ . . . هـدية خفيـة لم يدر بهـا أحد ؟ . . لمسـة حنـان من كف مرتعشة ؟ . . ومددت يدها فلمست شعر البنت الذهبى فى رفق نادم بليـغ فنكست الشقراء الطفلة رأسها وهى تمسح خدها المبتل بأصابع يشع بياضها المنور :

ــ ختركوه وحده . . كلهم . . . كلهن . . . السيد اللطيف الكبير . . . وحده ! . .

تحركت اليد العصبية فوق الملاءة بـ ـاضة عفوية وخرجت من بين الشفتين الذابلتين همهمات مبهمة ، فانحنت القهرمانة على أذنه فى انعطاف :

ــ مولاى ــ أتسمعنى يا مولاى ؟ . . أنا جلبهار عبدتك . . جلبهار . . هل تريد شيئاً ؟

لكن الرد المتقطع كان هذياناً متحشرجاً :

ــ سلطان غيرى . . لا فائدة . . أخلع أمامكم رداء السلطنة . . الراحة . . الشمس . . .

وسمعت الصبية الوفية شهقته ورأت قهرمانتها تمس الجفنين بلمستين سريعتين من أصابعها وهى تستسلم للحزن فأطلقت عويلها المحتبس وناح فيه ضياع موجع . . .

وأقبل الأغا مهرولا لكنه قبل أن يعوى عاجلته ضربة من قدم جلبهار أطارت من فوق كفه حمله الذى شغل به يومه من الصباح إلى المساء ، وصرخ فيه صوتها الكارة الممرور :

يا بليد ! خذ لنفسك ذهب الصحن والملعقة واغرب عن وجهه ! قد أراحه الله إلى الأبد من وجوهكم !

ومدت يدها تسند الصبية .

(٤)

عادت العصارة تعصر ، وفى هذه المرة كانت عصبة هى التى زأرت فى وجه أتابك العسكر لتنهاه عن أكل اللقمة وحده ، على حين كان ابن قايتباى إذا سئم فحش الجوارى يتنكر مع غلمان له فى ملابس الحرافيش ويترك لقانصوة هموم السلطنة ويهبط على ليل القاهرة ومراكب النيل وغرز الحشيش وما على الأرض غيره . . .

لكن الأتابك قانصوه وظف سيفه فى قمع الفتنة . ثم فى ساعة انتصاره أخذته عزة الليث الغضوب فأعلن أنه عزل الولد محمد ، وأنه هو قانصوه السلطان والسيف على وريد من لا يقبل الأرض ، وأطلق المنادين يزفون إلى دود الأزقة أن مجلس المشورة بحضور الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة قد أقر الإعلان وباركه ! . . وأخذته الحلقة الجركسية فى طحنها المخيف بادئة برفعه فى مسقط النور على الأريكة المملوكية ثلاثة أيام بلياليها لم يترك خلالها للمتوكل فرصة إراحة أعوامه الثمانين فى بيته الخاص داخل الحوش السلطانى ، ولا استراحت فيها عمائم قضاة المذاهب الأربعة عن اهتزاز الموافقة وبسملة الارتياح ، ثم دهمه غروب يومه السلطانى الثالث بالحصار وعنده أوراق يمهرها بالخاتم السلطانى ، من زيادة نفقة المتوكل إلى هبة لكل عمامة على حدة !

ومرة أخرى ناحت الجوارى ونهنه الطواشية وانكمشت بهجة ذيول الطواويس فى البساتين المعلقة وتلفتت الظباء بالقلق المتجدد فى عيونها الجميلة ، مرة أخرى برز حصاد دكة المماليك كالأنياب المتراصة حول القلعة ، وجاءت الخيول والسيوف على رائحة الفريسة التى كان الخليفة الشاكر والقضاة الحامدون مازالوا فى حضرتها السنية ! وداعاً قلعة الجبل لا شبعنا منك ولا شبعت منا ! لما يكد يلمع فى سمائك نجمنا ! لعل وراء أسوارك مخبأ فى هذه القاهرة الغامضة حتى نزن الأمور وندبرها . . لم يطولوا بالهم علينا أبناء الزوانى ! . . .

لكن الجراد الذى اقتحم القلعة كبسه فى قاعة العرش وبين يديه العمائم الخمس التى نطقت كبراها زاعمة لنفسها شيئاً من الحق فى الكلام والفتوى :

ــ نتفاهم . . وأمرهم شورى بينهم . .

ضحك الدوادار طومان باى من هذا الشيخ الخرف الذى لا يزال فى شيخوخته الأخيرة يبحث عن زيادة النفقة ويسأل عن أسعار الجوارى وتقدم من الخليفة ولكزه بطرف خنجره فى عمامته التى تشبه وردة بيضاء هائلة .

ـ خسئت يا أبا العز ! . . . أى مزمار لم ترقص عليه ؟

ـ وتفتحت ورود أربع أخرى هاوية من فوق رءوس القضاة إلى أطراف البساط المترامى أمام العرش الخالى . .

وعاد المتوكل يستجدى ناشراً أمام الفجار رايته الصورية الهزيلة الممزقة ، مقام الخلافة ، وتسابق القضاة فى شتم المارق ابن المارق قانصوه الذى كان يمسكهم فى حضرته بالقوة ساعة بعد ساعة ، الزنديق عدو الإسلام مفرق الكلمة . . .

والكرسى المملوكى الخالى شاهد بملله الصامت على المعركة بين العمائم والخناجر ، ثم ينظر فى قانصوه الذى كاد خلال الأيام الثلاثة الأخيرة يحطم قوائمه بانبعاجه عليه ونفخته فيراه حقير النفس فى ركوعه الذليل بين مراكيب المماليك ، وتكاد قطيفته تنشق من غيظها وخزيها . .

ماذا ننتظر ؟!

ـ لنوسط بالسيف هذا اللئيم الذى غدر بمولانا محمد بن مولانا قايتباى .

ـ عطر الله ذكراه ! . . .

ـ نذبحه وحده ؟ . . . وهؤلاء الذين لا يفرغ جرابهم من الفتاوى كما لا تسلم أكمام الحواة من الأرانب ؟!

ـ معه يذبحون ! . . . رءوس حان قطافها ! . . . لا تضيعوا وقتاً . . نريد أن نشوف شغلنا ! .

واقترح صوت فى الزحام أن يكون الأمير طومان باى خادم السلطنة الأمين ودوادارها الثانى هو حامل البشارة إلى السلطان محمد ، لكن القاضى الحنفى كان قد اهتدى هو الآخر إلى فكرة قد توقف حكم الموت :

ـ الحياة والموت بيد الله ولكل أجل كتاب ، لكن من واجبى أن أنبهكم إلى شأن ذى خطر أراه غائباً عنكم . .

وعندها ضاعف المتوكل من توسلاته وسط الوحوش المسلحة الهائجة :

ـ نسمع كلام الشيخ بالصلاة على النبى ! . . صلوا على طه حبيبكم . . رسول السلام . .

مرت لحظة جليلة وإن تكن بالغة القصر ، ثوان من التردد بين دفعة الدموية الجركسية الحامية وفطرة الاحترام للحى البيضاء والعمائم الكبيرة ، ثم غلبت الفطرة مستعينة بدوار الحيرة فتطامنت الأصوات من نفسها ، وتهلل المالكى والحنبلى والشافعى واستبشروا الخير من حكمة رابعهم التى برزت بالرغم من رهبة الساعة . . .

ـ ياشموش الوجوه النيرة ! هل يعود محمد إلى أريكته بغير بيعة ؟!

والجهال خيالة المحافل حارت ألبابهم وهم يتساءلون فى تميع مضطرب عن هذا المطب الفقهى الذى لم يخطر على بال أحد منهم ولا كان له وجود فى اعتبارهم وهم يتنادون ويزحفون ، فانحنى القاضى الحنفى وتناول عمامته وأصلحها وأعادها إلى رأسه دون أن يقف فى سبيلها خنجر أو تعترضها إهانة ،

وما أسرع ما عادت سائر الورود المتفتحة على البساط عمائم سوية كريمة تزين الرءوس ، إلا قانصوه ظل فى ركوعه ، لا عمامة ولا كرامة .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أفصح أيها القاضى !

هو مايزال قاضياً إذن وفى الوسع التحول بحكم الإعدام إلى ما فيه النجاة إن شاء الله ، فهذا الذى يستحثه هو الدوادار نفسه ، طومان باى عظيم المكانة وحامل البشارة . . والشيخ الآن يتمشى مجبراً الحلقة المحكمة على أن تعيد تشكيل نفسها فى شبه صفين متقابلين ، فأشار إلى قانصوه فى ذلته :

ـ عندما نفخ الشيطان فى صورة هذا الزنديق عدو الإسلام والمسلمين

وطاوعته نفسه الآثمة على عزل غرة الجبين وزين البنين مولانا ابن مولانا محمد بن قايتباى ، نصر الله أيامه بالإقبال وعطر لياليه بالرضا ، ماذا فعل الهالك ابن الهالك ؟ جمع مجلسنا ووقع سيدنا الخليفة كما وقعنا على الوثيقة . . وعودة سراج الأمة المنير محمد بن قايتباى إلى العرش تجديد للبيعة يقتضى حتما تحرير وثيقة جديدة ، وتوقيعات شهود وثيقة المجلس الأسبق على وثيقة المجلس الجديد لازمة لصحتها لزوم الحتم الذى لا مهرب منه ، ولقد كنا والله مجبرين على ما فعلنا والعفو شيمتكم أهل السماحة ومصابيح الدياجير وهداة الورى . .

تشاورت الخناجر وتعانقت العمائم متساندة فى نشيد جماعى يدلك الأعصاب ويلهب الفكرة . . وهلل المتوكل وكبر ودعا الله أن يكون المجلس الجديد فاتحة خير على البلاد والعباد . .

وسجد قانصوه عند مركوب طومان باى :

ـ أنا فى عرض الدوادار ، وأكون أقل خادم عند ركاب حصانه !

رفسه الأمير فى هامته المنكسة والتفت إلى العملاق الذى رفع قانصوه من قفاه :

ـ وسطه بسيفك فى الحوش وسلم رمته لجبانة الصدقة !

وشيع المتوكل عويل سيد الأمس بلمسة خليفية أخيرة :

ـ هذه عاقبة من يجبر خليفة المسلمين وقضاته على ما هم له كارهون ، وبئس المصير !

وتنادت الخناجر بإعداد القاعة لمبايعة السلطان محمد للمرة الثانية ، وأغمد طومان باى سيفه :

ـ إلى أن آتيكم بالسلطان يكون أحدكم قد أخطر الأمير أزبك فى بيته حتى

يحضر مجلسنا . .

تقدم أحد رفاقه متطوعاً ، لكنه تردد لحظة قبل أن يقول وعينه على وجه طومان باى :

ـ أستأذنكم فى أن يكون أول ما نسأل فيه السلطان هو إخراج الأمير تمراز من سجنه وإعادته إلى أتابكية العسكر ، فلا حاجة لنا بحرابة جديدة على المنصب . . وأنا أعلن أنه أصلح له منى ! . .

لم تطرف عين طومان باى الذى أجاب فى هدوء وهو فى طريقه إلى الباب :

ـ أنا والأمير أزبك لا مطمع لنا فى المنصب وغرضنا خدمة البلد ، وسأكون بعد تجديد البيعة أول من يطلب إعادة الأمير تمراز . .

ـ لننظم أنفسنا لاستقبال زين الشباب وتقبيل الأرض بين يديه المباركتين ! . .

ـ عاش السلطان محمد !

ـ وأمرهم شورى بينهم !

وهرش الخليفة المتوكل فى لحيته البيضاء وتبسم بدهاء الحاوى الذى يتحسس كمه ليستوثق من وجود أرانبه التى لا ينقطع مددها ، وقرأ الفاتحة . .

(٥)

قرأت محسنة الفاتحة مترحمة على كل الأحبة الذين تخطفهم الزمن ، ثم قالت للشيخ عند حائط الطاحون :

ـ تعيش يا سيدى المرعوش . . أمم تزول والهم ما يزول ؟

وكانا فى لحظة مريرة قد غمرتها ذكريات ست الكل وسليمان أبو طاسة والشيخ خليل وكل صرعى الطاعون القديم ، وكانت المرأة الطيبة التى فقدت

فى حدود الأربعين كل ملاحة الشباب قد جمعت لأرانبها من شطوط الترعة ما عثرت عليه أناملها الخشنة القوية من يابس العشب ، فجعلت تقلب بين يديها المعروقتين تلك الحزمة الضئيلة من الحشائش التى تضرب فى خضرتها صفرة الموت ، وتنهدت وهى تكشف مواجعها المكبوتة للرأس المطرق الكبير :

ــ أنا خائفة فى هذه الأيام على عيسى يا سيدى الشيخ . . خائفة !

واهتز الرأس الكبير عندما سمع منها أنها تقوم من نومها فى الليل على صوت زوجها الباكى وهو يطلب من الله الموت ويستعجل النهاية ، وقال لها صوته الذى تشيع من نبرته قوة خفية تنفث الطمأنينة :

ــ لا تحزنى يا محسنة فان زوجك فى الخمسين أقوى من شاب فى الثلاثين وسيخرج من بحور اليأس ولا يموت قبل أن تتحقق نبوءة سمعها منذ ثلاثين سنة ولعله نسيها ؟

كانت محسنة فى حاجة إلى هذه الكلمات التى تعلقت بها نفسها الطية :

ــ نبوءة ؟ . . إنه لم يحدثنى أبداً عن نبوءة . . وحياته فى مصر ــ قبل أن يأتينا حليق الرأس ــ شىء لا يحب أن أسأله فيه . . كل ما قاله لى هو أنه كان يشتغل فى الفضة والنحاس قبل أن يهرب من الظلم ولا يحب أن يخوض فى سيرته الأولى أحد . . لكن سمعته من أيام يقول نور وهو يحسب أنى لا أسمعه : أنا رجل خائب ، لم أصلح درويشاً ولا أرانى أصلح فلاحاً .

ــ نسى عيسى والله نبوءة زليخة !!

ــ زليخة . . ؟ إنه لم يكلمنى أبداً عن زليخة . . من هى ؟

زادت الرعشة فى يمنى الشيخ وتناول بيسراه حزمة العشب اليابس وأدناها من أنفه وشمها فى وجد كما لو كان ينشق منها رائحة الحياة نفسها .

ــ ولية من كنوز الله كان نورها يهدى الحيارى قبل أن يشق قلبها سيف من سيوف الظالمين . .

ــ وكانت تعرف ما سيحدث لزوجى ؟

ــ كانت تعرف أنه سيأتى عليه يوم يلعق فيه الدم وهو ثائر مع الحق فى وجه الباطل . .

ــ الدم ؟! . . يا حسرتا على رجالنا ! . . العمر كله يسفون التراب ثم تكون النهاية أن يلعقوا الدم أيضاً . . !

ــ هذا ما يعرفه قلبى كما كان يعرفه قلب زليخة !

خفق قلب محسنة البرىء المؤمن ، وخيل إليها أن الأفق الشرقى كله فى تلك الساعة من بكرة الصباح قد تلون بحمرة الدم ، وهمت ــ وقد جاشت نفسها بالقلق ــ أن تسأل مجذوب جهينة أن يزيدها بياناً ، لكنه ألقى أعواد العشب من يده وقطع لهفتها بسؤال آخر من عنده :

ــ وهل سمعت رد البنية على كلمته ؟

نور ؟ البنية **المسكينة** لم تقل شيئاً يا سيدى المرعوش . . صبت له الماء فى سكون حتى فرغ من وضوئه وانسحبت بإبريقها ، ربنا يكملها بعقلها !

ــ يا محسنة ! . . ابحثى لعيسى عن شىء من الفرح !

كان وجوده المعمر يملأ قلبها من الرهبة ، ذلك الجسد العليل الضامر الذى تسكنه الرعشة ، والذى يكاد حجمه الضئيل فى جلسته المسترخية عند حائط الطاحون يتوارى تحت ضخامة الرأس المجرد من الشعر ، واختلست النظر إلى ومضات عينيه اللتين تزهو ميت جهينة ببريقهما العجيب الذى اندلع نفوذه من الجيرة إلى حدود المنيا ، لكنه أطال الصمت قبل أن يلحظها فجأة بنظرة تحتية كأنه يشفق عليها من سطوع النظرة كلها ، وكرر نصيحته :

ــ يا محسنة ابحثى لعيسى عن شىء من الفرح !

تنهدت المرأة كأنما يحدثها عن مستحيل بعيد المنال :

ــ دلنى يا سيدى الشيخ على طريقة ، فمن زمن طويل مات الفرح فى دارنا . . لم يكن فى الرجال من تعلو ضحكاته على طرقعة ضحكه ، أما الآن فهو يشهق أحياناً بالبكاء فأبكى معه دون أن أفهم سبب حزنه . . دلنى يا سيدى !

فخاطبتها القوة المطمئنة فى صوت المرعوش :

لو أن لعيسى حفيداً يضمه ويشمه لغلب ضحكه على بكائه ، فلماذا تؤخرون زواج نور من الولد محمد ؟

ــ والله يا سيدى أنا نفسى ومنى عينى يتم الزواج اليوم قبل بكره ! بالكلمة انتزعها من رؤى الدم وهول النبوءة ، ودفع بأمومتها فى سبيل أقرب وأيسر :

ــ وعيسى أيضاً قال لى : إنه يريد عقد القران فى الحال ، فما المانع ؟ جمعت محسنة ما نثرته فى يد الشيخ من أعواد الحشائش اليابسة :

ــ كلما كلمت أم محمد قالت إن ابنها لم يبلغ سنته الثامنة عشرة ، وأن لكل شيء أوانه . . قلت لها : يا فاطمة الولد يحب البنت والبنت مائلة للولد ونحن أهل ولا داعى لحمل هم النفقة والمهر ، لكنها لم تعطنى للآن كلمة نافعة . . .

ــ لكن زوجها غالب قال لى ــ لما كلمته فى الموضوع ــ إنه مستعد لكتب كتاب ابنه على بنتك فى الحال ، وأنه هو الآخر لا يفهم سبب تردد زوجته وأمها ست العيلة . . .

ــ البركة فيك يا سيدنا . . كلم لنا فاطمة وست العيلة واعط عيسى الفرح الذى تريده له . . أنا أخشى أن نصحو من نومنا يوماً أنا والبنية فلا نجده . . كثيراً ما يقول لى : إن شيئاً فى قلبه يدفعه إلى الهجرة . . لكن الرأس الكبير اهتز فى يقين حاسم :

ــ لا تخافى ولا تحزنى ، فإن لرجلك فى هذه الأرض وعداً ولن تفلته هذه الأرض حتى تحين ساعة الوعد !

ــ هل تكلم فاطمة وأمها يا سيدنا وتفرح البنت ويهدأ الولد وينشرح صدر عيسى ؟

تبسم المرعوش عائداً بنظرته من الأفق البعيد وقال لها فى صوت لين :

ــ انظرى ! هناك وراء حد الأرض البور !

جعلت المرأة من راحة يدها القريبة من جنبيها ستراً فوق عينيها وهى تتطلع إلى حيث أشار الشيخ ، فرأت فى ظلال السنط النائية شخصين متقاربين تجمعهما مشية بطيئة ، ولم يتبين بصرها الكليل إن كانا مقبلين أم مدبرين :

ــ شيء لا نعرفه فى ميت جهينة يا سيدنا . . امرأة ورجل يتسكعان بعيداً عن العيون فى ساعة الصبح ، بلا عمل !

ــ لا بصر لك ولا بصيرة يا امرأة عيسى ! . . هذا هو الحب طالعاً مع مشرق النهار . . الحب يا محسنة !

وفجأة اندفع القادمان فى اتجاهها فى عدو طروب . .

وأخذ حجمهما يكبر على صفحة الأفق ويملأها ، ونظرة المرعوش تبارك يديهما المشتبكتين . . .

وما أن توضحت حقيقتهما للمرأة حتى نفضها الغضب ونهضت للقائهما ناسية مكانها من الشيخ المبجل :

ــ والله عال يا بنت عيسى ! . . انفلت العيار ولم تعد تهمنا سمعة ولا يعنينا عمل على صباحة ربنا ! . .

ودقت بقبضتها صدر الولد العارى من خلال فتحة القميص الواسعة ، وهو يضحك :

ــ وأنت يا ابن فاطمة ! .. هل جننت ؟ .. أين عقلك ؟ .. وأين فأسك ؟

كانا يلهثان ، الصبية والصبى ، متقاربين فى العمر ، وفى خد كل منهما نغزة لطيفة تختفى وتلوح مع خفقات الصدر وانفعالات الوجه ، فاستحيت الصبية وانكمشت محتمية بالرأس الكبير الذى كانت تطالعها من عينيه بوارق من الرضا والانعطاف والحماية ، وأسرف الولد فى الضحك وهو يتلقى بصدره المنشرح لكمات المرأة الغاضبة ، الأم المقدسة . . .

ــ فأسى فى الدار يا خالة محسنة حتى تتفقى مع أمى على موعد كتب الكتاب ، أما عقلى فهو كما تعرفون كلكم مع نور .. والنجدة يا سيدنا . . .

تبسم المرعوش وهو يمسح بيده على ضفائر الصبية ، وأهاب بالمرأة :

ــ أكرمى هذا الحب يا محسنة ، فباسمه تحبل الأرض وتنضج الثمار ويولد من الخراب العمار . . .

توزعت نفس المرأة بين الغضب على الحبيبين والخشوع فى حضرة الشيخ المبارك :

ــ ما يروح يكلم أمه وجدته ؟

أقعى محمد أمام المرعوش وكلمته رجولته المبكرة :

ــ أنا واقع فى عرض سيدنا .. نور لمحمد ومحمد لنور ، فما الداعى لهذا العذاب كله ؟

ونطقت فى عينى الصبية كلمتها المؤيدة لحبيبها ، فأشارت رعشة اليد إلى

محسنة بالصمت ، وقال الشيخ للفتى بصوته اللين الذى يمسح على القلوب ببركته :

ــ اسأل عناد جدتك ورأس أمك الناشفة !

وعند كلمة الحق وجدت نور الجرأة على أن تهمس فى حياء :

ــ كلامك يا سيدنا إن شاء الله يكسر الناشف ويفلق الحجر !

شهقت أمها ونهرتها متظاهرة بالهجوم عليها :

ــ اخرسى يا باكسة ! .. لحقنا نطلع من البيضة ! ..

ضم المرعوش البنية فى حضنه المبارك وهو يتمايل مع ضحكاته المرحة ، وسأل العاشق الصغير الذى يصدم الكبار هناءه بلا رحمة :

ــ هل كلمت أباك يا محمد ؟

ــ وقال لى : إن مسألة المهر لن تكون مشكلتنا ولو شحذه لى من على الأبواب .. أما أمى وجدتى فليس على لسانها غير كلام النسوان الذى تعرفه ، ولا مؤاخذة يا خالة محسنة .. نحن فقراء .. وسننا صغيرة .. والأيام مقبلة والصبر طيب .. شىء يقطع العشم يا سيدنا ويسد النفس !

قال الشيخ وهو يضع يده على كتف العاشق الصغير :

ــ لى شرط يا فتى قبل أن أفلق الحجر وأخبط دماغ ست العيلة فى دماغ فاطمة ! . . .

نطقت فرحة مهموسة فى صوت نور الطرى الناعم :

ــ اقبل شرط سيدنا والنبى يا محمد !

وزامت أمها فسارع حبيبها إلى الكلام :

ـ شرط سيدنا على عينى ورأسى وأمره دائماً مطاع . .

قال الشيخ وهو يدفعها بيديه نحو الفضاء المترامى إلى الأفق :

ـ اذهب فى الحال إلى الدار والفع فأسك واخرج لرزقك واجعل من العمل عبادتك حتى يتهيأ لك الخير وتحل بيديك ضفائر الحلوة .

ـ فى الحال يا سيدنا . . يدك أبوسها . . .

ووثبت نور هى الأخرى خفيفة كجناح عصفور :

ـ يا امه افردى وشك خليها تفرج !

واشتبكت يدها بيد حبيبها قبل أن تفتح أمها فمها بكلمة واندفعها متشابكين نحو الأفق ، فاستغاثت محسنة بشيخها فى ضراعة :

ـ يا خوفى على البنت يا سيدنا ! . .

لكن المرعوش الذى كان يشيع الحب البكر بنظرته الحانية غام وجهه فجأة كأنما سطع فى قلبه مولد حقيقة كانت خافية عليه ، وخفقت يده المرتعشة أمام وجهه وهو يهمس متأملا المعنى الخطير الذى انكشف له عنه الحجاب فى تلك اللحظة وحدها :

ـ يا ولداه يا نور ! . . يا ولداه يا محمد ! . . يارب سترك ! . . يارب سترك ! . .

(٦)

خطف خالد نظرة إلى الشمس المائلة إلى الغروب وتوقف عن دهن حائط الطاحون بالطين ، عندما عرف من فلاحة عابرة بحمل من أعواد الحطب أن أم حسن المريضة قد ساء حالها ويئس منها عوادها ، وانصرف ابنها إلى تجهيز دفنتها ، فترك قصعة المونة فى مكانها ونفض عن صدر جلبابه الأسود لطخ

الطين المتناثرة ، وشطف يديه فى مجرى القناة القريبة ثم استهدف الناحية القبلية .

كانت العجوز المحتضرة قريبة إلى نفسه وكان منذ أيام يعرف أنها ذاهبة إلى ربها هى الأخرى كما ذهبت من عشر سنين ابنتها سكينة . . أين زمن جمعهما تحت سقف واحد ! . . لو أن سكينة التى لم يطل عمرها أعطته الولد الذى كانت نفسه عندما تزوجها تائقة إليه والابنة التى كان اسم عزة ينتظرها لوجدت أم حسن فى لحظة موتها أحفاداً يبكون عليها . . إرادة الله أن يعيش مستوحداً ولا يكون له أهل ولا ذرية ، وحتى فى عصر الخروب القديم فى الخيامية دخلت الإرادة الإلهية بيته وأخذت منه أخته عزة وألزمته العزله . . ستموتين يا أم حسن ، وستحملين غضبته المعمرة المتزايدة الضرام وعمرك الناقم الصبور وتتركين حسن والثأر والسكين دون أن تشربى من الدم الذى عشت ظامئة إليه ، وأنت ذاهبة إلى عزة فسلام على عزة ! . .

وفاضت أشجانه وهو يخترق الدرب القبلى الذى كان يتثاءب كله قبيل العتمة ، وانحنى ليجتاز باب الدار بعد أن انشق له جمع صغير وسواد من نساء الدرب كان محلقاً حول الباب فى وجوم أخرس ، وما أن اعتدل حتى رآها ممددة أمامه على الفرن وابنها واقف بين يديها ورأسه تكاد تلمس السقف الخفيض ، وبقايا الشعر الأبيض الأكرت نافرة فى رأسها ، والجلد على عظامها قاسى الغضون داكن السمرة ، لكن يدها البارزة العروق كانت تبدو متينة القبض على السكين . . .

ـ العوافى يا خالة أم حسن . . .

استجاب له كل ما تبقت له القدرة على الحركة فى كيانها الضئيل ، اليد العجفاء القابضة على السكين ، والعين القوية التى مالت نظرتها نحوه ، واللسان الذى وجد صعوبة موجعة فى تأدية الرسالة الأخيرة :

— الحمد لله . . جاء بك . . لتسمع كلمتى . .

— شدة وتزول ، شدى حيلك . . .

تحولت نظرة المرأة القوية إلى ابنها وتصافح الرجلان ، والكهل والشاب أمام الفرن الهامد لم يجدا حاجة إلى كلمة يقـولانها تحت السقف القريب ، والصلابة فى وجه الشاب كانت وحدها ناطقة بجلال اللحظة وعظم وقعها سمع القصة قدر ما سمع من آيات القرآن وحفرها صوت أمه الحازم الدءوب فى حبة قلبه . . وتبين خالد أنه يستروح منذ دخل عطناً بولى الرائحة ، ثم فتنه التماع النصل الطويل الرفيع البـراق إذ ترتفـع به يـد الأم فى جهد بـطولى بطىء ، فتقدم منها وانحنى على وجهها الصقرى الضامر ويده الحانية تحاول أن تفك قبضة أصابعها العظيمة على مقبض السكين :

— ليطمئن قلبك يا خالة أم حسن . . حسن رجل ولا كل الرجال . . والله منتقم جبار . . وحسن ليس وحده . . لسنا وحدنا . . تراخت قبضتها حتى انتقل السكين إلى يده ، فأشارت بعينها إلى ولدها تأمره :

— تقدم واملك السكين . .

تسلمه حسن من خالد أمام بصرها ، وعانى لسانها العجز الأليم قبل أن ينطق :

— ارفعه . . دعنى أراه فى يدك . . .

وفوق رأسها رفع السكين حتى خطف بريقه بصرها ، وقال لها بصوت مطمئن :

— استريحى يا امه ، سأشرب ما لم تشربى !

نطق فى مقلتيها فرح نارى قبل أن تسترهما بجفنيها وهى تحاول أن تفهمهما أن الموت بعد هذا العهد الأخير أهون :

— امنعا الدخول . . واجلسا . . لماذا لا تشعل الفتيلة يا حسن ؟

لم يتحرك من مكانه بل أقعى لصق الجدار كما فعل ضيفه وتنهد فى العتمة ثم لم يعد بين جدران الدار الضيقة غير الانتظار الساهم والحشرجة الخفيفة والعطن المعتق ، وكلما ثقل الصمت وجد حسن همسة ، لكن همساته الأخيرة تاه عنها سمع خالـد الذى كـان استبطانـه لنفسه فى حضـرة الموت قـد بلغ الانجذاب والانعزال . . .

أينما تولى وجهك فثم وجه عزة ، يداها فى البحر المالح وقدماها فى أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة . . ما أقدم الجرح الفاغر تحت الجـراح المتجددة ، وما أبعد عهد زليخة وزاويتها وكلماتها !

يا إرادة الله كونى مع سكين وأنفاس عزة ، فـإن ثأر حسن لابن عمـه بركات هو فى الحقيقة ثأرى أنا أيضاً وثأر البر كله . . وليكن هذا البريق فى نصل السكين من بعض نورك !

حبكت الظلمة فى ركن الفرن ، ومط الزمن زحفه البليد وخالد منعزل عن الهمس والحشرجة ومشدود إلى اليوم الأغبر من أيام الملتزم حمزة القديمة ، يوم الولد بركات وجده عبد اللطيف الأكتع ، يوم الثأر الذى عاشت هذه الأم على إيقاد جذوته بين هذه الجدران المتقاربة من قبل أن يولد لها حسن . . يوم فاحت الرائحة وسهرت مصاطب ميت جهينة لتحكى ما عرفه الشيخ المرعوش عندما لبد فى قمة الشجرة ، وحكاية الملتزم الذى أمر ابنه إدريس بالسكوت على خيانة زوجته له مع الولد الصغير حفيد حارس الصوامع ؟

يومات أسودان يوم خطف ابن الكلاب عزة الطاهرة ، ويوم بـركات عندما تفززت قيلولة ميت جهينة على جعير الأكتع الرهيب وهو يشق البلد فى

ركض مجنون من الصوامع إلى الأرض البور ، ضارباً كل من يحاول إيقافه وعاوياً فى وجهه عواء الأخرس الجارح ، هنا على خدى لطمنى ، لا قدر أحد أن يوقفه ، ولا وسعه هو أنّ يتكلم سائلية بكلام آدمى مفهوم . . رأيناه بأعيننا والمتاهات الرملية تلقفه وتغيب شخصه وتبتلع إلى الأبد صرخاته العاوية المخبولة . . وها هى من تحت الجلباب قنوات العرق الساخنة منسابة على ظهرى وفخذى ، وها هى ميت جهينة مثلى قد تركها عبور الجنون السريع مطحونة برعبها الجاهل . . آه ! . . . يا سيدى المرعوش نظرة ! . . دعاء حائر من قلب امرأة فى زحامنا المصدوم ، فاستجاب له الرأس الكبير الأصلع كأنه نبع فجأة هو الآخر من ضميرنا . . وأرى المرعوش يا أم حسن ينطلق من بيننا فجأة ، كما ظهر ، فتتبعه دقات قلوبنا فى اتجاه الصوامع منتظرة عودته بالنبأ ، ودون أن ندرى يا أم حسن كان ابن عم ولدك ابن أختك نفيسة ، هو ما رآه لنا المرعوش من الشجرة التى تطلع منها إلى حوش الصوامع البحرى ، كما يحب أن يعتلى الشجر ويرى منه كل ما هو كائن على الأرض . .

وأفاق خالد من ذهوله على يد حسن تهز ذراعه هزاً شديداً فالتفت إليه عائداً من حوش الصوامع البحرى بقلب موجع :

— خير . . خير . . حصل شىء ؟

— اسمعها . . أظن هذه هى النهاية . . يا أمى !

وانبعثا واقفين فى لحظة واحدة عند الشهقة القصيرة التى لوت عنق المرأة ؟ ووقف ابنها واجماً ، وردد خالد الشهادتين ثم انحنى على السكين الواقع من يد حسن وقال فى هدوء :

— أغمض جفنيها حتى ألف هذا السكين فى خرقة قبل دفنه ، هكذا أحفظ سكينى من الصدأ قدر المستطاع . . فأنا الآخر عندى سكين ! وأمعن التأمل فى وجه صديقه الشاب مستحضراً من مجموع ملامحه وجه بركات

الصبى ، نعم كانت لابن عمه نفس هذه الحواجب الثقيلة السوداء وعظمة الفك السفلى القوية البروز ، ولو أنه عاش لكانت له أيضاً هذه العروق النافرة فى المنحر يضرب فيها الدم ، لكنه لم يعش لأن الزوج المخدوع ابن الأكابر رأى أنه لا يحق له أنه يعيش ونفذ ما رآه أمام جده المسكين ، وعاد المرعوش من بعثته عاوياً كما كان يعوى منذ قليل شريد الأرض البور ، فلما سكن عنه الروع يا أم حسن علمنا ، وحق لك من ساعتها أن تشحذى سكينتك وتكونى أرض بذرة النقمة . . رأينا كلنا الفتى بركات مصلوباً على شجرة ، دامى الفخذين فاقد الرجولة . .

وكتم آهة حرقت صدره ، والتفت إلى الجثة الهامدة على الفرن :

— مع السلامة يا أم حسن !

(٧)

خرج عالمه كله يودعه وشيعته من الأبواب المتوالية الخفيضة حرقة البكاء والدعوات ، وتهادى النعش فى الدهليز الطويل المعتم إلى أن انحنت به أكتاف حامليه حتى خرجوا به من فتحة الحائط الحجرى فى نهاية عطفة النعناعة .

وقطعت الكلاب السائمة عند ناصية سوق الخيامية نباحها عندما هل الموكب الحزين وزنق المكاريون حميرهم فى الركن ليفسحوا له الطريق إلى المسجد ، لكن الجنازة الكبيرة لم تلبث أن احتوتها رائحة عفنة وغض المشيعون من أبصارهم عابرين بالرمة المصلوبة والرأس المقطوع المعروض فوقها فى قمة عصا مرشوقة فى سور السوق ، ودخل النقاش زكريا بكتفه فى مكان صديقه يوسف الذى ظهرت عليه الحاجة إلى راحة كتفه من ثقل خشبة النعش :

— من يومين وهذه الجثة معلقة ولا يفكر أحد فى رفعها !

دعك يوسف كتفه وهو يمشى عن شمال صاحبه ولم يرد ، ونفسه من

أعماقها خالصة للكلمات الأخيرة التى خرجت من بين شفتى عزيزة المحتضر ممتزجة بهديل الحمام فى السطح فملأت قلبه من ساعة الفجر : « عجل بدفنى . . وامنع مأتم الحزن وزيارة القرافة . . وخذ بالك من حماماتى وأكرمها . . لا تكون طعاماً لأحد ! . . » .

اقتربت الجنازة من المسجد الصغير فاعتدل مجذوب أسود اللحية متكوم عند عتبات المسجد المهشمة واستقبلها بصيحة عالية :

ــ نورت يا سيدى الشيخ عباس ! سلم لنا على كل الأحبة !

والهواء الذى خفق بصيحة المجذوب ملأه فجأة صهيل حصان أسود ظهر من وراء زاوية المسجد متفزز الحيوية تحت الفارس الأشقر الذى يعتليه فى كبرياء مطمئنة . . .

وواصلت الجنازة سيرها وقد ارتفعت الأصوات كلها فجأة فى توقيت دقيق مكررة عبارة واحدة ذات إيقاع سريع :

ــ هو الدائم هو الدائم ، ولا دائم غير الله . .

صوت واحد كبير تعالى مقبلا بهديره على عتبات المسجد فانتفض المجذوب واقفاً وتشنجت حركاته وهو يلحظ الجلب المتكبر الذى لا يريد أن يصبر حتى يفسح له فى الطريق أو يلوى عنان حصانه ، وأخذته جلالة انجذاب عصبى فى صيحته الثانية فلم يفهمه أحد :

ــ علقة مكتوبة لك يا سيدى . . تطلع منها لا لك ولا عليك !

وكاد بوز الحصان يلمس جانب الجنازة عندما جفل فجأة من الإيقاع المتعاظم ونطق الخوف فى جحوظ عينيه وشب على أماميتيه خارجاً عن طاعة الجلب الذى هوت به البغتة من سرجه وطرحته على الأرض ، فتطامن الهدير وتحطمت موجاته ، ووثب مجذوب العتبة وثبة خارقة جعلته أقرب الجميع إلى

الحصان المهتاج والجلب المتوجع فى نهوضه الأليم الناقم . .

وبلغ من عمق لحظة السكون أن سمع زكريا من تحت النعش همسة يوسف

ــ يا فتاح يا عليم ! . .

ودخل كتف آخر تحت الخشبة فى مكان كتف زكريا الذى شعر بضرورة التفرغ للمصيبة التى لم تكن على بال أحد ، وتقدم مع يوسف نحو ظهر المجذوب الذى كان يخاطب المملوك المتوحش مطالباً يده المرفوعة بالكرباج أن تجنح إلى العفو وتحترم الموت :

ــ نتقدم لك بالأسف ونمسح لك التراب عن هدومك معتذرين عن غلطة الحصان !

لكن الوحش هجم ، فى اتجاه النعش . .

مزق الجلود بلسعات كرباجه المحنقة الفظيعة ولم يهدأ غله إلا بعد أن أصاب النعش نفسه ، وعندها تكوم فجأة على الأرض تحت ثقل المجذوب الذى ركبه فى وثبة أخرى وقبض على معصميه وكتم أنفاسه فى التراب وهو يزعق فى أنين المجلودين من حوله :

ــ علقة ومكتوبة يا شيخ عباس ! . . علقة ومكتوبة ! . . لكن دبرونى يا خلق الله . . هل أظل إلى ما لانهاية راكباً ؟!

كان يوسف ممن أخذوا نصيبهم وفى ذراعه خط دام طويل هابط فى التفاف ثعبانى من استدارة الكتف إلى قرب الكوع ، فقال له صديقه الأحمدى وهو يتأمل مشاركاً فى الألم تلك اللسعة الخبيثة التى مزقت كم الثوب :

ــ بعد الدفنة تسقسقها لك مكاسب بالمية والملح . . .

لكن فكر يوسف كان مع المجذوب فى سؤاله الذى لا يحتمل الرد عليه مهلة ، بعد أن برزت حول المشهد كل تلك الوجوه المستطلعة :

ــ لنتصرف بسرعة . . حقاً ماذا نحن فاعلون بالجلب ؟

والنعش على الأرض تحت عتبات المسجد والمجذوب راكب والجلب تحته يـرفس جاهـداً أن يخلص ذراعيه الملويتـين وراء ظهره فى قبضـة الراكب ، والحصان يصهل فى رعب وهو يتواثب مجبراً عصابة من الصبيان والبنات على الفرار ، فارتفع من حلقة الفضوليين صوت هادىء يعرض فكرة :

ــ ليس لنا خيار ، فإن تركناه حياً عاد بالزملاء المسلحين ولم يتركـوا فى الخيامية حجراً على حجر . . ولنعجل حتى نلحق الدفنة قبل الصلاة ، ولا من شاف ولا من درى . .

صارت المهمة زمجرة ، وتشاور زكريا ويوسف وهما يحفان بالمجذوب :

ــ نعم ، يختفى ابن البهيمـة وننكر عنـد اللزوم أننا شفنـا سحنته . . نصيب ووعد يا شيخ عباس ! . .

ــ ليكن ما يكون . . هذا هو الحل الوحيد فعلا يا زكريا . .

الحل الوحيد ؟ . . لكأن الكلمة نابعة من عمره كله ، من جذور صباه الغضة فى بركة الحبشى ، نفس الحل القديم يوم ذبح الشيخ خليـل ــ الله يرحمه ــ المملوك ــ الله يجحمه ــ الذى أهان عمامته . . لكن صوت زكريا رده إلى اللحظة الراهنة وخطرها :

ــ سأقوم باللازم مع المجذوب حتى تصلوا على الميت ، لأن ابن اللئيمة يرفس مثل البغل المتعافى وأنت موجوع الذراع . . ولن نغيب ، فلا تبطئوا فى صلاتكم ! . .

وبكى يوسف فى دخول المسجد وهو يذكر حمائم الشيخ ونفسه متسائلة فى قلق إن كانت مكاسب فى حزنها قد نسيت أن تطمئن على وجود الحب والماء عندها فى غية السطح . . نصيبى معك هكذا يا شيخ عباس . . فى صباى تكسر لى ذراعى ، وفى جنازتك يتمزق جلد الذراع نفسها ! . . الله يرحمك يا رجل يا طيب ويرحم زليخة التى مسحت على قلبك بنورها وجعلتك منا . . الآن تذهب بلا ديون . . أنت الآن بعد أن أخذت آخر لسعة كرباج فى الدنيا عزيز مكرم . . وذكر الحمام الأبيض الذى جبرت كسره بمعجزة الحب يطير الآن يا عمى آمناً وداعياً لك مع سربه . . وما أن فرغت صلاة الميت وخرج النعش والمشيعون حتى عرض عليهم الشارع هدوءه الخالى إلا من غلام أعرج تقدم بطاقيته المزركشة بالفاسوخ وعكازه القمىء وقال لمقدمة الجنازة :

ــ البقية فى حياتكم !

ــ أين الناس ؟

ــ لم نر شيئاً ، فاطمئنوا ! . .

ــ وأين ابن الملسوعة وحصانه ؟

ــ الشيخ أبو ذقن سودة وصاحبكم الأحمدى غطسا بهما تحت الأرض وأنا وأهل الخط لا سمعنا ولا شفنا . .

قبله يـوسف فى خده القـذر ، وتحركت جنـازة الشيخ عبـاس فى اتجاه القرافة . وظهر زكريا بعد الدفنة وانشغل من جديد بجرح صديقه :

ــ مية وملح رشيدى . . علقة مقسومة يا يوسف كما قال أبو ذقن سوده !

كانا يمشيان وسط العائدين من القرافة وهمساتها مكتومة :

ــ أين الجلب ؟ . . والحصان ؟ طمئنى . .

ــ عند الذقن السوداء . . اطمئن . .

ــ لا خوف عليك ؟

ــ وراء المجذوب عزوة وعصبية وعهد منظم . .

جمع يوسف كمه الممزق حول ذراعه :

ـ طلع لنا من تحت الأرض بحصانه وكرباجه وشره !

ـ ونزل تحت الأرض بالكرباج . . أما الحصان فإن ثمنه فى سوق امبابة ينفع هؤلاء الناس . . أنا عدت من عندهم أثبت قلباً . .

ـ بعد أن تهدأ الحكاية ـ إن هدأت ـ نأخذ بعضنا ونزورهم . .

ـ إن شاء الله . .

وطال سكوتهما إلى أن ظهرت لهما حارة النعناعة فقال يوسف فجأة :

ـ زمان مكاسب أماتت نفسها من العياط !

تبسمت الأعماق الساكنة فى عينى زكريا عندما أحس السرعة المتزايدة فى خطوات صديقه التى ألهبت حماستهـا صورة امـرأته الغـريقة فى دمـوعها ، وأوصله إلى بابه وتركه عنده مع كلمة أخيرة طيبة :

ـ ترفق بحزنها رفقها بجرحك . . !

لم تتحرك عند دخوله ، فجلس أمامها وهى تستنفد فى الركن بكـاءها الصامت مسنده رأسها إلى الجدار ، وأخذ الوجه المحبوب بين يديه فى حنان :

ـ هونى عليكى فقد دخل الشيخ الجنة !

ـ تذكر الحمامة البيضاء ؟ . . رافضة الأكل ومنزوية فى ركن العشة ! . رفـرفت حول خـديها المتـوردين من أثر الانفعـال الحـزين روحـه المجنحة بالعشق ، وملس بيده على شعرها ، لكن حسه الباطنى بعدم ملاءمة اللحظة للقبلة دفعه إلى النهوض من أمامها ، وقصد المسمار الكبير فانتـزع جلباب البيت الممزق والطاقية من كومة الهدوم المعلقة عليه ، وحاول فى رفق أن يحرك جمودها :

ـ سمعت النســوان قبـل خــروج الجنـازة يتكلمن عن مشكلة البنت زينب . . هل تم جمع المبلغ ؟

تنهدت مكاسب وقسرت نفسها على الكلام مبدية فهمها لغرضه :

ـ تقول أمها إنه لم يبق غير ثمن المسندين واللحاف . .

رحب بخروجها من قاع الحزن المضنى وعاد إلى ركنها وهو يسوى طاقيته على رأسه وجلس بجانبها دون أن يلمسها :

ـ كنت أحسب أن ما أعطاه لها المرحوم الشيخ عباس سيكفى شوارها ، لكن الدنيا تزداد غلاء كل يوم . .

نهضت مكاسب وسحبت مشنه الخبز من تحت الدكة :

ـ لابد أن نعمل جمعية ونلم لها الباقى حتى يتم زواجها فى الميعـاد . . زينب بنت حلال ، وعليها خرطة جسم تجنن . . عوراء لكنها جـوهرة . . ويا بخت عريسها بها . .

قال لها قبل أن تكشف الخرقة عن وجه المشنة :

ـ لا نفس للأكل !

ردت المشنة إلى مخبئها وعادت إلى جانبه فى سكون قبل أن يسمع مـرة أخرى تنهدتها :

ـ الإحساس بوجوده الدائم فى أعلى البيت كان له طعم . . لا أصدق أن حياتنا خلت منه . . الله يرحم أيامه . .

امتدت يده مرة أخرى إلى شعرها فى لمسة رقيقة وهو يتشبث بجهاز الجارة العوراء البائسة التى وكلت إليه نفسه مهمة التسامى على الأحزان :

— كل هذه الهموم من أجل حصيرة ولحاف ومخدتين وحلتين وطبلية وأذرع من القماش . يا ولداه يا بنت رحيمة المغسلة ! . . هذا والبلد كله يتكلم عن الأمير الذى استصغر جهاز عروس ابنه بنت الأمير الآخر . . هل حكيت لك الحكاية أم نسيت ؟

— نسيت مثل عوائدك !

الآن تطوق ذراعه كتفها ، وهى أقل سهوماً ، وقد لحظت الارتياح الذى ظهر فى وجهه فأكدته بميل خفيف من خصرها نحوه :

— تقول إن والد العريس استصغر الجهاز ؟

— وحصل زعل جامد !

— لم يكن الجهاز من مقامه ؟

— لم يكن غير حمولة أربعمائة جمل وبغل وسبعة قناطير من الذهب فى الملابس والمصاغ ! . .

شهقت مكاسب وصارت نفسها متأهبة لحكاية طويلة ، ورضيت نفس يوسف وهو يدخر لوقت الحاجة حديث سقسقة الملح الرشيدى وجرحه الذى سيعتصر كل اهتمام الغالية . . .

(٨)

كانت الليلة من ربيع الثانى آخر ليالى مولد الحسين ، فتكفلت أرض القاهرة بحلقات الأذكار وأوكار المجون على حين تزاحمت الأشرعة البيضاء على صفحة النيل وعبقت المراكب بعناقيد الأزهار وتوقد النور فى آلاف الفتايل العائمة فى قشور البيض ، وصاد غلمان المراكبية الرقعاء فى خليج الزعفران قفشات المساطيل وضحكات المخمورين ، وباعوهم الأفيون والحشيش والجبن المقلى والحلوى الملونة والشذوذ . . .

وفى واحدة من المراكب الصغيرة جاوب الأرغول الدربكة وانسجم الطار مع الباز ونصبت صينية كبيرة لقلى الجبن وتجمعت عندها عصبة من الفتيان المرحين حول الولد الضحوك الذى ينادى على بضاعته كلما اقترب شراعه من إحدى المراكب الهائمة :

— المقلى ! . . المحمص ! . . ذق وتمتع ! . . مدد يا حسين مدد . . !

كانت سمنته المدملكة تترجرج فى ملابس أولاد البلد الجديدة الحسنة التفصيل على جسمه المتعافى ، ونظافته مشرقة وبشرته متوردة ، وكان رفاقه الشقر غلماناً فى مثل يفاعته لابسين لبسه ومقلدين فعاله ، وكان سعيداً بمشاركة المراكبى المسيطر على الدفة بيده السمراء الشابة فى النداء على بضاعة السفينة . .

— يا جوعان جرب بنفسك وادعى للمعلم محمد سيد المعلمين ! . .

قرب يا عاشق الجبن المقلى ! . . قرب يا جدع ! . .

فتن المعلم محمد الصغير بخفه المراكبى فترك الصينية لرفاقه يزفونها على وجه النيل بالباز والطار ودنا منه ، على حين كان الشراع نفسه يدنو من مركب تتوقد فى قلب حلقة راكبيه كله العبق المعهود فى ليالى المواسم ، فصاح المراكبى موجهاً نداءه إلى أهل الغيبوبة الصامتين صمت العبادة :

— الجبن المقلى أطعم من الضأن المحمر ، يا نائمين فى الليالى وحدوه ! . .

مرت سفينة الغيبوبة دون أن توحد الله ، والتفت بائع الجبن الوجيه فى غضب إلى أحد رفاقه عندما وجده لابداً فى كعبه فى غيره ظاهرة من استلطافه للمراكبى وانجذابه إلى روحه الخفيف وفتوته البارزة :

— طرخان ! . . الزم مكانك عند قروانة الزيت أو أخاصمك والنبى ولا أصحبك الغلام بعد الليلة فى سهرى !

خضع الغلام للأمر وتأود مغضبا شفته فى دلال وهو يخطو على حذر فى قلب المركب عائداً إلى ركن العزف والمناداة والصخب ، فاستقبله ضارب الدربكة الخليع بغمزة فى العظم :

ــ سلم أمرك لله يا طرخان ، فالليلة من نصيب الحرافيش ! . .

وانحشر بينهم معتما ومعرضاً عن المشاركة فى الضحك والتهام الجبن المقلى اللذيذ ، فطعنه عازف الأرغول بعد أن لعب له حواجبه ووسطه :

ــ الأيام مثل السلاطين دول ! . .

طفح الدم تحت بشرة الغلام الغيران وغلبه القلق فالتفت برأسه نحو الدقة ورأى المضاحكة المتبسطة واندلاق الأبيض على الأسمر وجرأة الأسمر على الأبيض فزفر من الغيظ واستدار لجماعته السكرى :

ــ زادها حبتين . . أول مرة قلنا نكتة وتفوت . . المسألة تكررت . . فى مرة أخذ واحداً من هؤلاء الزعر معه إلى القلعة . . وتضحكون يا أغبياء ! . . لابد له من واحد يحكمه ! . .

نقر ضارب الدربكة نقرتين مرحتين وأبى أن يجد فى الأمر ما يؤخذ مأخذ الجد أو ينزل بعد كل ما عب من الكؤوس من سماء المرح :

ــ أبوه نفسه يا سيدى أوصى قبل موته ألا يركبه غير فارس من فارسين ، أزبك الخبيث أو قانصوه الخسيس ، فدعنا فى حالنا . . هذا الحظ كفاية علينا . . مزاجه يعمل بائع سوق . . مزاجه يجانس المراكبية ، يجانس المراكبية . . أنا مالى . . أنا مبسوط . . انظروا ! . . ما أجمل هذه المستلقية فى هذا الزورق يا ست ! يا ست عندنا جبن مقلى يقول لفخذة الضأن قومى وأقعد مطرحك ! . . جربونا يا أهل الجمال !

وعند الدفة كان المعلم محمد يسأل المراكبى :

ــ وكيف عرفتنى ؟

ــ وهل يخفى القمر يا مولانا السلطان ؟ . . أبوك الله يرحمه كان شمس البر وأنت قمر الزمان !

اقترب محمد بن قايتباى بكتفه من صدر المراكبى :

ــ اسمع يا مصطفى . . الليلة بعد أن أزهق من لعبة البيع سآخذك معنا إلى القلعة !

ــ القلعة يا مولانا ؟ لماذا ؟

وشحب الوجه الأسمر وغاض منه الزهو والانشراح النفعى ، لكنه حاول أن يسترد خفته التى أسرت لب سيد البلاد :

ــ هل فى القلعة لا سمح الله مراكب وبحور ؟!

ضحك السلطان الصغير واعتمد عند ميل المركب على كتف مصطفى الخائف بيد ثقيلة ملحة :

ــ لا . . لا تخف . . لن تجد هناك دفة ولا مجاديف . . أنا أحب السرور وأنت أعجبتنى ونحن الآن صديقان . . أحب أن تتمتع معنا بليلة من ليالينا فى القصر . . واطلب من الآن ما تشتهى نفسك يكن طلبك مجاباً فى الحال . . خذ هذا الكيس ، تصبيرة ! . .

التقط مصطفى الكيس منتفخاً ومزروراً على ما فيه ، وحاول أن يشغل الغلام السلطانى عن فكرته :

ــ الحمد والشكر ، لكن هل يأذن لى مولانا بسؤال واحد ؟

جلس السلطان منحشراً مع المراكبى فى دكة الدفة وطوق كتفه بذراعه وفاحت من رائحة الخمر قريبة مغثّية :

ــ ألف سؤ ال إن شئت . . ألسنا صديقين ؟

ــ أية لذة تجدها يا مولانا فى بيع الجبن المقلى مثل سريحة الموالد والتعرض للمخاطر بلا حراس ؟ . . هذا شىء لم أفهمه . . هل لك فى هذا التخفى متعة ؟

لم يرد السلطان محمد على السؤ ال لأنه شغل بمكايدة طرخان الذى كان من طرف المركب الآخر يتقلى مثل الجبن فى الزيت ، لكنه التفت فجأة إلى حبيب الليلة ووضعه أمام مسألة جديدة :

ــ هل سمعت عن القانون الجديد الذى زادت بـه المكوس عـلى بيوت الدعارة أم لم تسمع ؟ . . وهل يسرك أن أعينك من صباح غد بين محصلى هذه الزيادة ، فتلهف نصفها على الأقل لنفسك وتخرج من عند صبايا لعند صبايا ، وتأخذ على هذه المتعة كلها جمكية شهرية . . فقط كن لطيفاً واقبل عزومتى الليلة . . سنـريك أعجب رقص وتـأخـذ حـظك من النعيم السلطانى وفى الصباح تستلم الشغل . . عندنا الجـوارى جميلات لا تصـدق عينيك أمـام جمالهن . . ستكون يا مصطفى ليلة العمر . .

ــ لكنى ــ وعفوك يا مولانا السلطان ــ نذرت أن أقصد على آخر الليل ضريح مولانا الإمام صاحب الليلة وأقرأ له الفاتحة !

ــ نقرأها معاً عندنا . . أريد أن يراك طرخان ذاهباً معنا فيطق من الكمد والحسرة ، فساعـدنى يا صـديقى أن أمزع قلبـه ! . . خلاص ؟ . . اتفقنـا يا حبوب ؟

كان الكيس قد دخل فى عب المراكبى ، لكن الرعب لم يخرج من قلبه . .

يا خبر أسود ! . . القلعة مع هؤلاء الـ . . . وفى الصباح أستلم الشغـل أم يستلمنى المشاعلى ؟! . . يارب دعه يعمى عنى . . دعه يزداد سكراً وعربدة حتى يحمله أصحابه من المركب بلا إرادة ولا تحكم . . وأنت أعلم يارب إن كان صحيحاً أن لذته العليا هى قطع الآذان والأيدى والألسنة بنفس اللذة التى كان يقطع بها منذ قليل شرائح الجبن السخنة ! . . ألهمه يارب أن يأخذ عياله وكيسه ويذهب إلى القلعة أو إلى جهنم . . مدد يا مولانـا الحسين ! . . كن معى يا ابن بنت رسول الله فى هذه الزنقة حتى تفوت على خير . .

(٩)

قال أتابك العسكر تمراز مداعباً صديقه صاحب القصر ، وفى الليل نسمة مائلة إلى البرودة من نسمات أكتوبر ، مفعمة بأريج الصفصاف المنحنى على ماء النيل فى ضوء القمر :

ــ سبحان من يرث الأرض ومن عليها ! . .

ابتسم الـدوادار طومـان باى ورد عـلى ضيفه وهـو يدخـل معـه خميلة الريحان :

ــ يا سيدى لا تعايرنى ولا أعايرك ! . . إن كنت استوليت على قصر خير بك فأنت تبلع كل يوم عتبة !

وفى ركن الخميلة كان ينتظرهما الأمير الذى تخفت الأصوات فى حضرته من هيبة حكمته ، فحياه أتابك العسكر بصوت خاشع :

ــ السلام على الأمير أزبك قاهر الأعداء وبطل الساعة !

كان أزبك يبدو فى قلب الخميلة صقراً عجـوزاً شيخته الأيـام وملأت بالغضون وجهه المهيب المشرب بحمرة دمويـة ، فنحى مبسم النرجيلة عن

شفتيه المدفونتين فى بياض شعرات الشارب المتفشية ورد التحية بصوته الهادىء الوقور :

— اسمع يا تمراز ! ما جئنا هنا ليمسح كل منا الجوخ للآخر ، أين خال الولد ؟

— هو فى الطريق إلينا يا سيدى الأمير . . وقد أجهزت على تردده فهو الآن جاهز للحركة ، وإن يكن يسأل عن نصيبه من الفطيرة بعد خبزها . . !

تفجر صدر طومان باى بالضحك عندما سمع كلمة الفطيرة ، أما أتابك العسكر فجلس فى الحال أمام الشارب الفضى وانهمك فى نفض الرماد عن الجمرات قبل أن يتوج بها هامة النرجيلة ، وعين الصقر الهرم ترمقه من فوق منقاره الذى يكاد طرفه المعقوف يغوص فى شعر الشارب الكث :

— لماذا لم تجىء به معك ؟

— يقول إنه جاء بأحد المشايخ ليعمل له استخارة وأن المعمم يكاد يفرغ من عمله . . النار الآن على ما يرام فشد النفس يا سيدى الأمير وتمتع ؟ غالب طومان باى الضحك وهو صامد فى وقفته عند مدخل الخميلة الفواح . . هذان هما منافساه . . تمراز الذى يخلص فى خدمة نرجيلة شيخ الأمراء ، وقانصوه خال محمد بن قايتباى الذى يعمل استخارة قبل أن تسمح نفسه بمشاركتهم فى القضاء على عهر ابن أخته وشذوذه ! . . أما الصقر فهو زاهد فى الحكم ، وكلما كلمه أحد عن كرسى السلطنة زام وأعرض بجانبه واهتز منقاره بالغضب وهدد بالسفر إلى مكة ! . . ما من ريب فى أن الفطيرة مخبوزة ولذيذة ، ستكون كلها فى النهاية من نصيبه . . وليست بعيدة ساعة المناداة به سلطاناً على البر ، طومان باى أعز الله مجده ونصر جنده وأطال عمره ! . . .

وكانت ضحكته قد تحولت إلى ابتسامة رصينة عندما لحظته فجأة عين الصقر :

— بقيت نقطة لم تبحثها يا طومان باى فما قولك فيها ؟

ولم يكن طومان باى يجهل هدف السؤال ، ولا كان ناسياً رده الجاهز المنتظر لساعته ، فاقترب من النرجيلة بخطوة متمهلة :

— الولد يتحول إلى وحش حقيقى ، ومن المصلحة إعدامه اليوم قبل بكرة !

أراد تمراز أن يتكلم فقاطعه أزبك بسؤال آخر موجه إلى طومان باى أيضاً

— لكن أليس من الطبيعى أن يعارض الخال فى آخر لحظة فى قتل ابن أخته ؟

— حتى إذا كان وقت ابن الأخت موزعاً بين سلخ جلود المسجونين وهم أحياء وإجلاس الضحايا على خازيق معدنية محماة بالنار واصطياد الفتيان من الحوارى ؟

نفث الشارب الفضى الدخان على مهل قبل أن يضع اللمسة الأخيرة فى سؤال الساعة :

— إنى أسألك سؤالا : إذا اعترض قانصوه على قتل محمد فماذا نحن فاعلون بقانصوه نفسه ؟

— إذن يلحق قانصوه الثانى بقانصوه الأول فى راحة الموت ؟

لكن الأمير أزبك أرهف السمع فجأة كاشفاً وقع خطى مقبلة فوق الحصى فى ممر الخميلة ، فاندفع الدوادار الثانى نحو المدخل وتريث عنده برهة قبل أن تأتيها همسته المطمئنة :

— هذا قانصوه وراء حاجبى ! اللهم اجعل نتيجة الاستخارة على ما نحب !

وفى الحال تحققت أمنيته ، واسترخت الأعصاب إذ كانت أولى كلمات الأمير المقبل عندما ضمه معهم شذا الخميلة :

ــ هلم بنا أيها السادة فالخيرة فيما اختاره الله !

لكنه لمح مبسم النرجيلة فى قبضة الأمير أزبك فارتجف صوته وهو يستدرك فى لعثمة مضطربة :

ــ بعد أن يفرغ الأمير من مزاجه بالهناء والعافية ! . .

وكان القمر يشحب مائلا نحو الأفق عندما تجهزت حاشيتهم الصغيرة المسلحة للحركة وجاءهم العبيد بالخيول الأربعة ، فقال أزبك بعد أن رفعه إلى السرج زنجيان فارعان :

ــ مسافة ما بين النيل والقلعة تكفى لطلوع الفجر ، فلنسرع قبل أن يتكشف الضوء وتعسر المهمة . . .

والقاهرة فى سباتها هادئة هدوء امرأة مفتوحة الذراعين والساقين مستلقية فى عز النوم على ظهرها ، وقباب القلعة ومآذنها مغلفة عند الأفق النائى بضباب البعد المبهم ، والدنيا خريف صامت . . .

انفتحت الأبواب لخال السلطان وعصبته الموقرة باباً باباً حتى أوقفتهم بباب الحريم طلعة القهرمانة الرصينة :

السلطان ؟ فى جناحه أيها السادة . . ومعذرة إن قلت إنكم ستقطعون عليه صفواً هنيئاً ، فإن البنية التى عنده تحفة من تحف الإبداع الإلهى . لكن الوجوه المتصلبة وغريزة الاستشعار الغامضة فى أعماق الأنثى أنبأتها بحدث جلل ، فدخلت عالمها المحجب وردت عليها بابه قانعة بالسلامة .

ولم يكن السلطان فى مخدعه ، لكن الأمراء الأربعة سمعوا صوته فجأة يأتيهم من شرفة المخدع المطلة على غابة الغزلان :

ــ فيم خوفك . . ؟ كل ما سأفعله هو أن أقطع لسانك الذى وشى بى وفضحنى . . لسانك فقط والله العظيم . .

وتقدموا إلى الستائر التى تفصل المخدع عن الشرفة فلمحوا صبية عارية خارقة الحسن تتوثب برعبها بين جدران الشرفة ، وكلما لطمها جدار ارتدت بعويلها حتى يصدها جدار آخر ، ورأوا معها المسخ المفزع على حقيقته ، شيطاناً مخموراً يتسلى برعبها ، وفى وجهه الذى يمسحه ضوء القمر التذاذ وحشى .

ودفعها جنون الخوف فى اتجاه سور الشرفة الخفيض حتى خشى الأمراء المختفون وراء الستار أن ينزع بها الرعب إلى الإلقاء بنفسها لتسقط صديقة وسط الغزلان التى تلتقط نظراتها صوراً زائغة لمرحها على الحشيش الأخضر ، لكنها جبنت وهى تسمع مئات الأصوات الصاعدة فى سكينة الفجر متجاوبة من مآذن القاهرة القريبة والبعيدة ، فأسندت ظهرها إلى السور مواجهة الخنجر :

ــ الرحمة ! . . . الرحمة يا حبيبى ! . . هذا غير معقول . . فى أول النهار فرحت بى عندما قالت لك القهرمانة إنها دفعت ثمنى لبدر الدين الياسرجى نصف ألف ، وقلت لى إنى فواحة الصبا . . أكاد أموت من الخوف ! . .

سخن قلب طومان باى بالعطف على الصبية الحسناء المسكينة التى كان يفهم رعبها . . كيف يكون هذا الوجه المفترس هو نفس الوجه العاشق الذى استقبلها فى أول النهار فملأت رقته قلبها بطمأنينة مستبشرة ، عندما وجدت سلطان البلاد الصغير فى مثل عمرها الغض ، وعاشقاً يبلغ من هيامه بها أن يفيض قلبها بأحلام كبيرة ، بأمانى عمر طويل وهناء وأمجاد ، برؤ يا مستقبل لابد أنها رأت نفسها فيه أكثر من سلطانة ، الكل فى الكل ، الشمس والقمر ، الحكم والسيادة ؟

ــ لكنك لن تموتى إذا تركتينى أقطع لسانك حتى لا يشى بى مرة أخرى . لسانك ترينه أمامك على الأرض بضربة واحدة من خنجرى . . قد علمنى المشاعلى كيف أفعل دون أن أقتل الشخص كله !

ــ أقسم ! . . أقسم ! . . لست أنا التى فضحتك عند القهرمانة والحريم . الكل عن شذوذك يتكلمون ! . . الجوارى والغلمان . . غلمانك الأصدقاء هم الذين فضحوك ! . . أنا لم أتركك طوال اليوم أكثر من ساعتين ! . .

ورأوه يقترب منها فامتدت أيديهم إلى مقابض السيوف دون أن يتحركوا ، كأنما سمرتهم فى أماكنهم تعويذة سحر نابع من فظاعة المشهد كله . . ورأوا الوحش يقترب من فريسته التى تلمع بشرتها الصدفية كلما عبرت المنطقة التى يغمرها نور القمر من أرض الشرفة ، كما يلمع فى يده الخنجر :

ــ لا تخافى على عمرك . . تعالى . . لسانك فقط والله العظيم . . تعالى يا حلوة تعالى . .

كانت تنوح وهى تتفادى يده الممسكة بالخنجر ، وكلما وسعها أن تتكلم سألته لماذا يكون فى أول النهار فى رقة النسيم وتكون له فى آخره كل هذه القسوة .

فهمس أزبك وهو يلمس بكوعه جنب قانصوه الذى صار وجهه من الروع فى بياض الشمع :

ــ ماذا تنتظر ؟ أليس معك سيفك ؟

لم يتحرك قانصوه . . وجاء من الشرفة صوت المسخ المخمور :

ــ أخرجى لسانك . . وسأعود بعدها رقيقاً وعاشقاً . . !

ــ مع خرساء ؟! أريد أن أفهمك ! . . أهى عقوبة أم لذة ؟!

أدرك طومان باى الخبير بالنساء أن الصغيرة المزنوقة عند سور الشرفة قد أدركت بغريزة الأنثى أن إرادة معذبها التى بلغت أقصى مداها قد أخذت فى الهبوط دون أن ترتوى ، فأشار إلى أصحابه بالانتظار وهم يرون الغلام المتوحش يكاد يسقط من طوله لولا أن يسنده ظهر الكرسى الخفيض فى ركن الشرفة :

ــ لننتظر برهة أخرى ، فما أعجب محاورة الطفلة الداهية لمعذبها وهى تجهده معتمدة على سكره البين ! . .

ووقعت لحظة سكون عندما انحط الحيوان السكران على الكرسى دون أن يقرأ ومضة الانتظار التى التمعت بين أجفان فريسته ، ولا تبين مثلها أن السماء امتصت كل روعة الأذان . .

ــ ماذا قلت ؟!

ــ سألتك : أهى عقوبة أم لذة ؟

ارتفعت حشرجة الأنفاس المخمورة فى صدر المسخ السلطانى ، والخنجر مايزال فى يده لكنه فى وضع مستعرض فوق فخذيه ، واليد مسترخية ، كما لو كانت علامة على هبوط قواه المغنوية فى تلك الساعة التى تطيب فيها لغزلان الغابة القريبة نشوة النشاط المرح ، وجاء صوته متكسراً يتحسس المعانى فى معاناة :

ــ اللذة ؟ . . هل بقيت فى هذه الدنيا لذة ؟!

واستهول الأمراء مع الجارية ما تكشف لهم عند ذلك فى ملامح وجهه من شبه عجيب بأقزام الملعب المشهور فى تربيعة سوق النخاسين ، لهم أجسام الصبية ووجوه الشيوخ وبرودة العدم . وهمت الجارية أن تروضه بأنوثتها لكنه بغتها بسقوطه من الكرسى إلى أرض الشرفة ، منهاراً فى نوبة بكاء . . انتهى

عصر الفرح ! . . عصرت كل اللذات وهمدت نزواتى ولم يعد ينفع لبعثها حتى الكرباج . . الآن أشرب الخمر بلا نشوة وأتعاطى الحشيش بلا غيبوبة . . لا طعم لشىء بعد اليوم . . كل شىء بلا طعم . . فى الشطرنج أنتصر فأقوم من أمام خصمى المهزوم كما لو كنت أنا الخاسر . . وهذا هو حالى فى كل شىء . . فى الصيد . . فى السباحة . . فى رمى القبق ولعب كرة الجوكان وفى سباق الخيول . . فى ملابس الحرافيش التى مكنتنى من الاندماج فى حياتهم . . ذات مرة جاءنى غلمانى بقرد مدرب وطار وهدوم ملاعب من ملاعبى القردة ، وجمعت من أهل الصنادقية والسكرية حفنة من الدراهم . . رقصت مع الحرافيش والمجاذيب فى حلقة ذكر عند سبيل ست الملك . . هللت لشاعر الربابة وأنا أدخن الحشيش فى غرز تحت الربع . . تفرجت على بهلوانات الحبل وخيال الظل وضحكت على نكت المشخصين وتعلمت ملاعيب الحواة . . والمشاعلى علمنى فوق هذا كله أن أوسط بالسيف وأعالج سأمى بتقطيع الأيدى والآذان وسلخ الجلد . . وقطع اللسان أيضاً ما أسهله ! . . ثقى أن من يقطع لسانه يشعر بألم ! . . تعالى . اقتربى منى . . هاتى قبلة ، لعل لها طعماً ! . .

وبالرغم من سقوط الخنجر من بين فخذيه أحست الجارية الصغيرة عودة الفكرة الخطرة ، فعالجته فى حذر دون أن تدنو منه أكثر من خطوة :

— فى كلامك كلمة لم أفهمها ، ماذا عنيت بقولك إنك لم يعد ينفع معك حتى الكرباج ؟!

لم يعد ينفع معه إلا هذا . . !

صوت كأنه النجدة السماوية ، ورأت الجارية السيوف الأربعة فسقطت على ركبتيها . . كأنما لم تكفها كل العجائب التى رأتها فى أربع وعشرين ساعة بين دكة المماليك وقلعة الجبل . .

وخرس لسانها بغير حاجة إلى قطعه وهى تشهد عمل السيوف السريع ،

وجمدت كأنها قطعة من السور وهى ترى الجثة الممزقة هاوية إلى الحشيش الأخضر الذى تواثبت فوقه الغزلان ممعنة فى الهروب . .

وبكت بلا صوت عندما اهتزت لحسنها الشوارب الفضية والأمير الشيخ يستر عريها بعباءته الدافئة . .

وهمس تمراز فى أذن طومان باى وهما يمسحان الدم عن سيفيهما :

— الفطيرة استوت ! . .

(١٠)

مدد يا ساكن الشجرة ! . . توقف العمل فى عصر ذلك اليوم الخريفى واجتمعت ميت جهينة كلها برجالها ونسائها وأطفالها فى زفة صاخبة عند جميزة الشيخ هريدى ، وفى خلال ساعات قلائل كانت قد زحفت إليهم فيوض من الغرباء والفقراء والدراويش لا يدرى أحد من أين أقبلت روافدها ولا كيف بلغها النبأ ، وبلغ كبرياء ميت جهينة حد الانفجار والهوس .

وكان اختفاء الشيخ المرعوش صاحب الكرامة قد استمر يومين وطال البحث عنه قبل أن يشير طفل إلى قمة الشجرة المعمرة ، وطلب غالب من ابنه محمد أن يتسلق الجميزة فوجد المرعوش جامداً فى ميتته عند ملتقى فرعين وقبضته على أحد الفرعين قوية كأنه لا يريد أن يفلت ذلك المثوى الأخير الذى اختاره لنهايته وعلى وجهه ابتسامة راضية .

وخلت الحقول والدور من الناس ، وفى ذروة الفرح العام بالكرامة التى رضى الله بها عن ميت جهينة عقد الفلاحون ونساؤهم وضيوفهم فى ظلال الجميزة الوارفة مؤتمراً طال فيه الأخذ والرد وكاد يتحول إلى معركة بالنبابيت قبل أن يستقر الرأى على دفن ولى الله فى بطن الجميزة داخل الفجوة التى تلتف حولها جذورها الهائلة ، وما أن أعلن خالد القرار حتى جاء تكبير الرجال

وزغاريد النساء بابن الملتزم من أقصى القرية راكضاً بحصانه ليستطلع الخبر . . .

ــ مدد يا ساكن الشجرة ! . . مدد يا ساكن الشجرة ! . .

أوقف حمزة ابن إدريس حصانه على بعد قليل من الجموع الهائجة وهو يغالب رجفة الخوف التى تمشت فى بدنه ، ورأى الثوب العتيق المنشور عند أصل الشجرة على ما يشبه جثة طفل صغير ، فأشار إلى فتى من الفلاحين فى مثل عمره مر بالقرب من حصانه :

ــ اسمع يا ولد !

توقف الفلاح الشاب وفى وجهه نفور وألقى عل ابن الملتزم نظرة خالية من الود دون أن يفتح فمه ، فأشار حمزة إلى قلب الحلقة الهائصة بمقبض كرباجه وسأل :

ــ ماذا حدث ؟ غريق ؟

ــ لا . . لم يغرق أحد . . هذا يوم عيد !

ــ عيد !؟ . . أليس هذا الراقد وسط الناس ميتاً إذن ؟

ــ مدد يا ساكن الشجرة ! . . .

لم يشأ الفلاح أن يطيل فى الكلام مع الفتى المتعاظم فوق سرجه المزركش ، وما أن استدار عائداً إلى جماعته حتى برزت له فلاحة ضامرة العود هضيمة الوجه نارية النظرة :

ــ حسن ! . . . ماذا كان يقول لك الضبع ابن الضبع ؟

ــ لا شىء يا خالة فاطمة . . لا شىء . . إنما يريد أن يعرف حقيقة هذه الجلبة التى أزعجت هضم والده . .

توقدت فى عينى المرأة الناحلة كراهية ساطعة وهى ترمى الحصان القريب وراكبة بنظرة ناقمة :

ــ أنا بريئة منك ومن ولدى محمد إن خاطب لسانكما بعد اليوم هؤلاء الأنجاس . . ملعون هو وأبوه إدريس وجده حمزة !

ــ كلامك يا خالة فاطمة يذكرنى بالمرحومة أمى . . وبوصيتها فى ساعة الموت . . تعالى لنحضر دفنة سيدنا . .

وكان حمزة قد لوى عنان حصانه وانصرف بعد أن تبين حقيقة الاجتماع وتمت الدفنة قبيل الغروب ، وقام حول الجميزة مولد عظيم ، أنشد فيه المجاذيب الأشعار ، وأكل بعضهم جمرات الفحم المتقدة ، وتجمعت النساء وراء حلقة الذكر ، وجاءت محسنة فمالت على أذن فاطمة :

ــ فاطمة يا اختى . . عندى لك كلمة . . لنبتعد إلى شط الترعة حتى نتكلم على راحتنا . . .

كانت فاطمة تعرف كلمة محسنة التى لا كلمة عندها غيرها فجمدت فى جلستها وأشاحت بوجهها مضطربة :

ــ هل هذا وقتها ؟

ــ وحياة بركة سيدنا المرعوش وليلته المفترجة يا فاطمة ! . .

ــ أريد أن أرى الرفاعى وهو يأكل الثعابين الحية . . .

وهمست محسنة أن تضغط على إرادة صديقتها عندما قامت ضجة عظيمة وأقبلت من مدق السواقى مواكب ضاربة بالباز والطار ، وظهر فى مقدمتها حصان أبيض :

ــ الشيخ الكبير وصل . . الشيخ الكبير وصل . .

هللت الأرض من حول جميزة المرعوش ، وجاوبت الزغاريد ضربات الدفوف ، وتهادى الحصان الأبيض براكبه الذى أشرقت أساريره ونور جبينه ، فألقت فاطمة فى سمع صديقتها بكلمة مستعطفة :

ـ أنا ذاهبة معك يا محسنة ، بعد دوسة الدراويش . . إنى لم أرها فى عمرى كله غير مرة واحدة فى صباى ! . . .

ـ آه يا اختى ! نريد أن نفرح بالبنت والولد ! . .

وعلى إيقاع كلمة « الله » أحاط بالجميزة المباركة رعد من ضربات الدفوف ، وتقدمت موكب الشيخ الكبير طليعة من أتباعه الذين أخذوا ينبطحون على الأرض متلاصقين فى شبه حصيرة مديدة الطول من اللحم الآدمى ، بطونهم إلى التراب وظهورهم إلى السماء ، وتقدم الحصان الأبيض فى أناة وخيلاء فشبت ميت جهينة على أطراف أقدامها وخفق قلبها خفقة واحدة ، وأشارت إصبع الشيخ إلى نهاية الحصيرة الآدمية الناطقة بلا انقطاع باسم الله فمر الحصان على مهل مرور نسمة ترد الروح ، وكلما عبر مسافة نهض الرجال من تحت سنابكه خفافا سالمين ، ورقصت خطاهم وراء شيخهم ، مشرقين منورين . . .

وترجل الشيخ وترك عنان حصانه لاثنين من أتباعه وركع عند أصل الشجرة وقبل الطينة الطرية التى دهكت بها الأيدى السعيدة سدة قبر المرعوش المختار ، ثم وقف واستدار مواجهاً ميت جهينة المجتمعة على نور الكرامة ، وتوزعت حالات الانجذاب متناثرة بتشنجاتها خلال الجمع الكبير كرذاذ من الندى ، وآمنوا تحت الشجرة بأن أرضهم بوركت وبشرت برحمة عاجلة وبورك فى من عليها . . .

وتمشت رعدة ذات رهبة فى أوصال من لم يبلغ مقام الانجذاب ، ونشجت نور بالبكاء وراء الخص القريب دافنة وجهها فى صدر محمد الذى

كانت عيناه تناجيان السماء وفيهما شرارات أمل وفرح :

ـ فك عقدتنا يا كريم ! . . يارب فك عقدتنا بحق هذا النور كله ! . .

وعرف غالب صوت امرأته عندما علت جميع الأصوات صرخة امرأة لم يسمع الناس مثلها من عهد الطاعون ، فوثب إلى مكانها ليجدها متشنجة فوق التراب ، كما رآها فى العهد الأخير أكثر من مرة . . ولمح فى الوجوه التى جاءت بها الصرخة لهفة إخوانه خالد وعيسى وحسن . . وأقبل محمد من وراء الخص وفى يده جرة الماء وفى نفسه خوف متجدد على أمه المسكينة :

ـ هاتوا لها خالتى محسنة . . هى التى تفيقها فى كل مرة . .

وظهر له وجه نور من وراء الخص وهى تدفع أمها بيدها ثم توارى الوجه الحبيب عن عين محمد ، وملأت محسنة المكان بصوتها الذى ينفث الطمأنينة ووجودها الهادئ النشيط ، وتناولت الجرة من يد محمد :

ـ صلوا على أبو فاطمة . . انقلوها لى فى الخص واتركوها لى . . . سليمة . . ليست أول مرة ، لكن هذه المرة شديدة . . حصل لها مس يا كبدى من دهسة الحصان وكرامة المرعوش . . انخطف قلبها . .

عاد الرجال من الخص إلى حلقة الذكر التى كان الشيخ قد بدأ فى الحال يذكى جذوتها عند مدفن المرعوش الخلوى ، وشخطت محسنة فى ابنتها عندما وجدتها معها عند رأس فاطمة المسجاة فى قبضة التشنج ، وطردتها من الخص بصرامة :

ـ غورى من وجهى ! وطمئنى قلبك يا أم عين مفنجلة فلن تموت أم محمد قبل أن تتنيلى وتأخذى منها ابنها ! . .

ـ تكلميها **الآن** يا أمه ؟

ـ عندما تفيق أكلمها ونتفق . . امشى من هنا يا بنت عيسى . . على الدار . . فاهمة ؟

— وحياة سيدى المرعوش يا أمه لا تتركيها إلا بعد ما تعطيكى كلمة !

— امشى يا باكسة على الدار . . امشى !! . .

وانحنت على عذابات صديقه العمر . . وفرت من عينها الدمعة عندما أفاقت فاطمه فى حنانها واستقبلها عند عودتها إلى الوعى هدير الذكر المتسامى نحو إيقاع خاطف جذاب ، ومسحت محسنة بلل الدموع عن وجه صديقتها وطمأنتها على نفسها :

— سلامتك من كل سوء يا فاطمة يا اختى . . أنت بخير . . .

لكن عينى أم محمد المليئتين بالدموع كانتا ناطقتين **بالإعياء** واليأس :

— ما أرجوه ليس السلامة بل الموت يا محسنة !

عالجتها محسنة بأناة رفيقة حتى اطمأنت عليها فى جلستها أمامها فى ستر الخص ، وانتظرت حتى هجع الذكر ليلتقط الرجال المتحلقون حول الشجرة المباركة أنفاسهم قبل أن يعاودهم الحنين إلى آفاق الكرامة التى أنبتتها أرضهم ، ثم تضاحكت ودفعت بيدها فى كتف صديقتها :

— يا نهار أبيض يا أم محمد ! . . هل تموتين قبل ما تزوجى الولد وتفرحى به ؟!

شحب وجه أم محمد مرة أخرى حتى أعاد إلى ذاكرة أم نور وجوه أموات الطاعون القدامى ، وظهر أن المس سيركبها مرة أخرى ويلوى أصابعها وفمها ولسانها ، ووثبت فجأة على ركبتيها أمام وجه صاحبتها الممتقع وصرخت فيه صرخة فظيعة رجت محسنة وأخافتها :

— يامغفلة ! . . يا مغفلة ! . . ألا تريدين أن تفهمى ! . . ألا تريدين أن تفهمى أن هذا الزواج . . مستحيل ! . . مستحيل ! . .

— لا سمح الله يا أم محمد . . الأهل حبايب وعيسى وغالب أخوان وأنت أكثر من أختى . . ونور بتحب محمد ومحمد بيحب نور . .

— أقول لك مستحيل ! . . مستحيل ! . .

خافت محسنة من عينى فاطمة عندما طق فيها شرر وهى تلطم وجهها لطماً عنيفاً ، وتوسلت إليها :

— بحق سيدنا المرعوش يا شيخة وافقينى على أن يقرأ الرجال الفاتحة الليلة . . فرحى محمد بنور ونور بمحمد . . .

واحتضنتها وقبلت كتفها وصدرها :

— والنبى يا أم محمد ما تكسرى نفس العيال بعد هذا اليوم المفترج أبداً . . حلفتك بغالب الغالى ! . . .

لسعت الكلمة فاطمة كما لو كانت عقرباً من العقارب الصفراء التى تشغى بها الرمال فى أرض ميت جهينة البائرة ، وبلغ من شراسة سخريتها فى الرد أن ارتد جسم محسنة إلى الوراء :

— وحلفتك بعيسى الغالى أن تتذكرى من هو والد نور ابنتك ! . . .

أهو عيسى زوجك أم الرجل الآخر ؟! . .

شهقت محسنة وتلفتت حولها خشية أن يكون وراء بوص الخص أذن متسمعة ، وتوسلت فى رعب ذليل :

— الرجل الآخر ؟! . . فاطمة ! . . . اهدئى يا اختى وصلى على أبو فاطمة ! . . ماذا جرى لعقلك ؟

— ألا تعرفين الرجل الآخر ؟! . . هل أصرخ باسمه الآن حتى يسمعه معك كل الرجال إلى ما وراء الجميزة ؟

ـ اسكتى يا أم محمد . . . اسكتى . . .

ـ أنت فتحت الكلام فافتحى لى قلبك إن شئت أن نصل إلى حل . أنا أعرف طوال هذا العمر أنك دخلت على عيسى وأنت حبلى ، وأن نور هى ابنتك من أدريس ! . . .

جاء دور محسنة فى الانهيار ، لكنها تحاملت على نفسها واختصرت الكلام فى اعتراف حاسم :

ـ لم تفتحى فمك طوال هذه السنين بكلمة ؟ . . كتمت على الجرح ولم تبخلى على بحبك ! . .

ـ ما الفائدة ! . . ما الفائدة ! . .

ـ وهذا هو سر اعتراضك على زواج ابنتى من ابنك ؟

ارتفع هدير الذكر وطغى من خلال البوص الهش وملأ الخص الضيق برعشات متطاولة ، ولطمت فاطمة وجهها آخذة بكفيها فى كل مرة من تراب الأرض :

ـ لا ! . . وحق سيدى المرعوش لا ! . . إن ما يجعل زواج نور من محمد مستحيلا هو أن الأخ لا يتزوج أخته !! . .

وبدا على محسنة أنها لم تفهم كلمة صاحبتها ، واختلط عويلها المكبوت بصيحات الذاكرين المتعالية :

ـ أقسم لك أن إدريس لم يلمسنى بعدها أبداً ، وأنى منذ أخذنى عيسى تحت جناحه الكريم طاهرة . . طاهرة . .

لكن فاطمة التى كانت على شفا الجنون عفرت وجهها بحفنات من التراب وصدمتها بالحقيقة الشرسة الخفية :

ـ أما أنا فلم يلمسنى إلا بعد زواجى بسنوات طويلة . . وكنت أظنه يئس من مطاردتى ومن قوله لى : إن غالب أبتر ولن يكون له ولد ولا بنت . . ثم كبسنى مرة فى عز الظهر فى الطاحون القديم ، ولم أحمل قبلها أو بعدها إلا تلك المرة . . ومحمد يا أم نور قد لا يكون ابن غالب المسكين بل ابن الكلب نفسه !! . .

(١١)

عرف عيسى وإخوانه آخر أخبار القاهرة من خالد الذى تلقى بلسان أحد دراويش الشيخ الكبير رسالة شفوية ، وعلموا أن السلطنة عرضت على بطل المعارك الأمير أزبك قاهر الجحافل العثمانية فحلف بالطلاق ثلاثاً أن يهاجر إلى مكة إن لم يرحموه من أثقالها ، وكان أول من قبل الأرض للأمير قانصوه خال السلطان القتيل ، مكتفياً بأتابكية العسكر التى يشغلها ، لكن الأمير طومان باى طلب لنفسه الدوادارية الكبرى والوزارة وكان له ما أراد ، وجاءهم الدرويش القاهرى مع هذا النبأ بأخبار عن صدام بين جند والى القاهرة والجياع فى الجمالية والخيامية وحى الأزهر ، وظل نبأ صعود قانصوة إلى قلعة الجبل يسرى فى ميت جهينة حتى اجتاز المعبر الخشبى القديم على الترعة فى ضحى الشمس ومر من خلال المشربية العريضة التى جددت مثل كل شىء فى بيت آل إدريس ، لكنه وجد دفتر الحسبة الكبير فى ركن قاعة الجلوس البحرية مفتوحاً بين فكين ممطوطين ونغزتين عميقتين فى خدين ، بين الملتزم إدريس وولده :

ـ هل انضبطت معك الحسبة ؟

هرش حمزة فى قفاه بالقلم ثم رفع يده فى حركة معبرة عن اليأس والحيرة :

ـ هناك سبعة وعشرون ديناراً تائهة أجىء لها من هنا فتجىء لى من هنا . . كأنما خطفها عفريت ! . .

ـ هذا هو ما حدث فعلا . . وأنا أعرف العفريت الذى خطفها !

انفجر الابن ضاحكاً دون أن يتحمل فى يد أبيه دعكة واحدة ، وتبسط إنقاذاً لموقفه فربت بكفه الكتف الأبوية :

ـ سامحه هذه المرة . . كان مذنوقاً والمبلغ فك زنقته ! . . . شارك الأب فى الضحك لكنه سارع إلى ضبط المعايير :

ـ سامحته يا سيدى على أن تكون آخر مرة !

ـ خلاص ! آخر مرة وحياتك ! . .

ـ عن جدك عن أبى جدك أنه قال : إن كل دينار يتفق فى تحقيق مطالب الزنى يظل يلعن منفقة إلى يوم القيامة !

انتهى الضحك فى بيت آل إدريس وامتنعت المباسطة وأثر حمزة السلامة :

ـ يعنى شايف الزنى على قفا من يشيل ؟

نطق الجد فى الوجه الأبوى وفى نبرة الصوت الخشن المروث :

ـ انقشها فى مخك . . اطلب بنت من تشاء أخطبها لك وأدفع مهرها من مئة لألف . . إنما حكاية الجرى فى الغيطان وراء البنات طالت فى العائلة وباخت . . حريم الرجل أولى بعافيته وفلوسه . . . أنا لم أجن من هذا الجرى إلا ما جناه جدك . . حسرة الندم . . وأحياناً العذاب الذى لا يخطر على بالك ولا أتمناه لك . . عمرك أربع وعشرون سنة ومثل الفحل فاخطب ولو بنت الوالى أو النجم العالى . . ماذا تنتظر بشوقك إلى الذرية ؟
ـ العروسة !

ـ عندى ! . .

وغمز الحاجب الأيمن قبل أن يستولى تماماً على لب حيوانه الشاب

ـ عندى التى يسهل لك نسبها كل صعب ، وتضمن لك حفاوة الكبار وتخلط عسلك بسمنهم ! . .

هاج فضْوْل حمزة وصار كما توقع إدريس فرجة وتسلية ، هو الآن يتصور امرأة واحدة خلابة تمحو محاسنها من دمه الحامى معاشق ميت جهينة وما حولها ، هو الآن ينتظر فى صمتة الملىء بخيالات شهوانية أن تزيده الإرادة الأبوية بياناً ، وتحدد الأسماء وتكشف عن وجه العروس خمارها . .

لكن الصوت الأبوى عالج المسألة من زاوية أخرى :

ـ أبوها ملتزم ابن ملتزمين مثلنا ، وكان خراج التزامه ألفاً ومائة فى السنة فشد إلى القاهرة رحالة المليئة بأزكى الهدايا ، وعاد بعد يوم وليلة وقد نقص الخراج المطلوب منه للخزانة السلطانية إلى سبعمائة دينار . . صهر يدخره الحصيف للملمات ويتشرف بطول باعه وحسن تصرفه . . زنها هذه يا حبيبى واشكر والدك ! . .

هرش حمزة فى قفاه وهو يطوى بيده الأخرى جلدة الدفتر السميكة ، ثم واتته الجرأة على أن ينظر فى عينى أبيه وهو يتكلم :

ـ المسألة عندك هى هذه : إن الذى استطاع أن يرفع ثلث خراجه قادر على أن ينقص لوالد عريس بنته ثلث خراجه هو الآخر ، فتصبح التسعمائة عندنا ستمائة ، ونضع نحن أيضاً أصابعنا فى عيون والى الجيزة ونائبه وجيشهما الذى لا يشبع ولا يملأ عينه إلا التراب ! . .

ـ هل للمسألة عندك أنت وجه آخر غاب عنى ؟

ـ هل البنت حلوة وأنثى ؟

ـ من أدرانى يا جدع أن معيارك فى حلاوة النسوان هو معيارى ؟

وجلجلت مرة أخرى الضحكات الإدريسية العالية ، وسأل الأب الابن :

ـ ما معنى أن تكون الحلوة فى رأيك أنثى ؟ هل معناه أن تكون من الأشكال التى تبعزق عليها مال العائلة وتزور من أجلها فى حساب الداخل والخارج ؟ أم تكون من شكل البنت نور بنت المرأة محسنة ؟

وتظاهر بالتطلع من المشربية عندما رأى اصفرار وجه ابنه ، عجيب أن يتكرر هذا الموقف على هذه الصورة ، ففى هذا المكان نفسه انزنق أمام أبيه مثل هذه الزنقة ، قسمة ونصيب يا عصب إدريس ، وانتظر حتى هدأت نفسه ووجد ابنه كلمتين يقولهما :

ـ كل هذا مسحته من دفترى .. خذها منى كلمة شرف .. من هى العروسة ومتى القران ؟

ـ أبوها لا ينتظر غير كلمة منا ..

ـ أبوها ؟ هل أعرف الرجل ؟

ـ خالك عثمان ! .. يعنى بنت أخت زوجتى .. هدية العمر !

ـ هل رأيتها بنفسك ؟

ـ تؤكل أكلا ولا يبقى منها العاقل عظمة واحدة ! ..

ـ وهل تعرف اسمها ؟

ـ فرط الرمان ! ..

ـ اسم سخيف ! .. ولا مؤاخذة !

ـ يعنى اسم زوجتى أنا على مزاجى ؟ حياة النفوس ! .. لكن ما قيمة الاسم يا مغفل ؟ يا ولد افتح عينك وافهم الدنيا ! ..

سكت حمزة .. إن كانت فرط الرمان تشبه عمتها حياة النفوس فهى إن شاء الله من الجميلات .. ومن العفيفات الصابرات أيضاً وقبل كل شىء لن تكون من صنف زوجة أبيه الأولى لايزال الناس يذكرون من قديم الأيام عشيقها الفلاح الصغير الذى انتهت علاقتها به يوم صلبه أبوه على شجرة فى حوش الأبعدية وخصاه .. آه يا أبى المسكين ! .. حسبت حسبتك من جميع الوجوه فاخترت لى ابنة أخ زوجتك التى لا ينسيك طهرها عهر الأولى .. أنت لا تنسى لأن الناس لم ينسوا .. لا يزالون بعد كل تلك السنين يتكلمون ، رغم موت الغلام وطلاق الفاجرة .. نتزوج .. ما المانع .. نسمع كلام الوالد ونرضيه .. وهل يمنع فرط الرمان من خبصة هنا وخبصة هناك كلما عرضت فرصة وسقطت أنثى ؟ ..

وصمته كان مفضوحاً فوق ما يتصور ، فارتجف عندما بغته الصوت الأبوى الذى يبطن نعومته دهاء حازم :

ـ هناك شرطان لهذا الزواج ، والشرط نور ..

ـ اشترطها خالى ؟

ـ الشرطان لى أنا ، وتمهل قبل أن تتعهد باحترامها طول عمرك .. أنا لا أضربك على يدك ، لكن الرجل يمسك من لسانه .. وكلمة الرجل هى الرجل .. أول الشرطين أن تصون لأهلك شبابك ووقتك ومركزك ، وكفى آل إدريس ما شربوه من الخبص طوال ستة أجيال .. الخسارة .. والعذاب .. ما قولك ؟

وغالب حمزة شعوره بالضيق لانكشاف سريرته دائماً أمام السلطة الأبوية الفاهمة :

ـ أنا نفسى زهقت من النسوان التى لا تستحم إلا من العيد للعيد ، فإذا

كان الشرط الثانى أيضاً من هـذا الصنف السهل فكن من الآن واثقـاً من كلمتى . . .

وأدهشـه وجه أبيـه فى تلك اللحظة وطغى عـلى مشاعـره المعقدة غيظ مفاجىء من عجزه عن كشف سريرة أبيه ولو فى موقف واحد ، وو د لو كان له نصيب أكبر من الفراسة الإدريسية ، وكان فى وسعه أن يعـرف سبب هذه الاختلاجات فى الوجه الأبوى ، أو سر ذلك الكمد الـذى لون الـوجه كله بخضرة زيتونية ، لكن الصوت الأبوى احتكر كل دهشة عندما خرج من بين شعرات الشارب المتهدل مضطرباً متكسراً وعاجزاً عن حمل الكلمات القليلة فى سياق ساطع الوضوح شأن الوصايا الإدريسية :

ـ الشـرط الثانى . . يـا حمزة يـا ابنى . . أين المصحف . . نعم يلزمنا مصحف . . شوف يا ابنى . . البنت نور . . دعها فى حالها . . من اليوم . . من هذه الساعة . . واحلف لى . . هات المصحف . . الله يهديك يا ابنى . .

وصارت دهشة حمزة ذهولا وهو يرى قطرات العرق الكبيرة متدحرجة من جبين أبيه وصدغيه إلى رقبته وصدره ، وقال له فى امتثال مشفق :

ـ والله العظيم ما لمستها يا أبى . . أما بعد اليوم فلن أشعر بوجودها . . وأنا مستعد للمصحف استعدادى للزواج من بنت خالى الآن ! . . . اطمئن من هذه الناحية . .

مسح إدريس عرقه وأشار إلى الدفتر الكبير :

ـ طيب يا حمزة . . ربنا يهديك يا ابنى . . اقفل عليه الخزنة واذهب الآن إلى الصـوامع وراقب إصـلاح السور الشـرقى بنفسك . . انخس البنـائين الكسالى لينتهوا من العمل كله قبل المغرب . . وقريباً إن شاء الله يتم الاتفاق على كل شىء بينى وبين خالك عثمان . .

نهض حمزة منطوياً فى الإرادة الأبوية :

ـ أنا من الساعة رجل جديد ، وسترى بنفسك . . .

وانتظر عليه أبوه حتى أقفل الخزنة ثم اعترض خروجه بالوصية الأخيرة وهو يحتوية بنظرته :

ـ هـل اكتفى بكلمتـك أم يلزم اليمـين ؟ . . لكن لا ! . . اذهب . . أفضل أن أرى فيك الرجل الجديد حقاً ، ولا يكون خوفك من اليمين الباطلة هو سبب احترامك لاتفاقنا . . مع السلامة يا ولدى . . اضرب شيخ البنائين إذا لم تنهض همته ! . . أريد السور كاملا قبل غروب الشمس . . .

خرج الابن فى دهشة ، وأمسك الأب بين يديه رأسـه الذى شـاع فيه الصلع . . وانتزع منه الصداع آهة طويلة شاكية . . .

وتناول حمزه كرباجه من فوق كنبـة فى الشرفـة قبل أن يهبط فى اتجاه الصوامع . . هل يكون معنى اهتمام الوالد الزائد بالبنت نور من دون بنات ميت جهينة اللاتى يكفى منظر الفطيرة لركوعهن هو رغبته الشخصية فيها ؟

وضرب حمزة فخذه بمقبض الكرباج . . وهل يكون هذا عدلا وهو داخل فى الشيخوخة وأنا شمورت العائلة الذى يصح له العشق ويليق عليه ؟ . . هل هـذا عدل يـا سيدى الـوالد ؟ . . أنـا أباشـر إصلاح السـور وأنت يا أهتم يا موجوع طالع نازل ؟ هل هذا يرضى ربنا يا عالم ؟ . .

ورأس إدريس ماتزال بين يديه فى سكون البيت الـواسع ، وشىء من الطمأنينة يرتد إلى قلبه . . الولد أغبى من أن يكون قد فهم شيئاً . . ولعله يعتقد أنى أصرفه إلى الزواج ليخلو لى الجو مع بنت محسنة ! . . آه يا ولدى المسكين ! . . بنت محسنة . . نور . . النغزة فى خد نور . . كيف يكون ولدى أنا من بلادة المخ بحيث لا يتنبه إلى الخدود المنغوزة ؟ . . ألا يرى وجهى ؟

ووجهه ؟ . . ووجه نور ؟ . . أحسن ! . أحسن ! . . ومن صباحة ربنا ندبر له الزفاف ونغرقه إلى ركبه فى العسل ! . . يارب اعم عينيه عنها . . عنها . . عن نور . . .

ورفع إدريس رأسه فدخل فى مجاله البصرى معبر الترعة واهتزاز خشبه العتيق تحت ثقل خطيب الجامع ، فتمطى الملتزم متثائباً واستقبل كرش الشيخ هريدى المقبل عند اقتراب موعد الغذاء بزراية هازئة . . حتى المرعوش لما مات دفنته يا شيخ هريدى فى بطنك ! . . ستبلع الولى كما بلعه بطن جميزتك . . صار لك النصيب الأوفى فى الولى وموالد الولى . . تعال . . تعال اطفح والتمس كيلة ذرة وادلق ما عندك . . هات ميت جهينة فى زكيبتك وادلقها على الأرض بين يدى . . يقولون . . يفعلون . . هاتها من جذورها . . هات السهرات والمصاطب والأسواق وصحن الجامع والطرح والشوارب والقيل والقال عن نور ومحمد ابن غالب . . ماذا تقول ميت جهينة الآن عن تباعدهما بعد طول الود وكأن شيئاً مجهولا ملأ قلب كل منهما فجأة بالخوف من قرب الآخر . . يقولون . . يقولون . .

وجاء من خارج باب القاعة صوت تابع :

ـ سيدنا وصل ! . .

فجاوبته كلمة الملتزم الذى تناول عمامته من فوق الكنبة وكبسها على رأسه ـ

أدخله ، وحضر له الكيلة إياها !

(١٢)

قرأ الصديقان الفاتحة لبطن الجميزة واستراحا إلى الظلمة التى تفرشها على جسر الترعة ، ثم قال حسن وهو يغالب الضحك :

ـ الشيخ هريدى كاد يضربنى أمس عندما سمعنى أسميها جميزة المرعوش . . ظل يصرخ وهو قابض على جلبابى . . جميزة الشيخ هريدى يا ولد . . اسمها من عهد الجدود جميزة الشيخ هريدى . . هى الأصول تاهت يا ولد ! . .

لم يرد محمد الذى كان ينكت الأرض بعود يابس فى يده وهو غائب الفكر ، فلمس حسن كتفه فى إشفاق وقد عز عليه جمود ذلك الانطفاء فى وجه الصديق :

ـ يا محمد ! الحمل يخف ثقله إذا رفعه اثنان معاً . .

فاضت أعماق محمد بزفرة شقت صدره إلى حنجرته فى معاناة موجعة ، وأخذ وقتاً حتى تكلم :

ـ حملى أثقل من الجبل ! . . .

حاول حسن أن يأخذ العود من يد صديقه :

ـ افتح لى قلبك . . جبال الكحل تفنيها المراود . .

وتأمل الخطوط التى نقشها صاحبه فى التراب ، شبه دائرة تتوسطها عينان ، ولا أنف ولا فم ، لا شىء إلا عينين واسعتين ونقطة كبيرة تحت إحداهما . . نقطة تزداد عمقاً وحجماً تحت رأس العود الضاغطة التى تحفرها بإصرار قانط . . .

ـ أراك على غير سنة الله فى أنوف العباد عوجت المنخار تحت العين اليمنى ! . . .

ليس هذا أنفاً . . هذه نغزة ! . .

ورفع محمد رأسه ورفت على ركن فمه ابتسامة ذليلة الشحوب .

أقول لك الحلم الذى رأيته الليلة ؟

ـ أنت أيضاً تحلم أحلاماً عجيبة ؟!

ـ رأيت سوق ميت جهينة بالناس والبهائم كأنه يوم الحشر ، والناس جميعاً فى خدودهم نغزة مثل هذه .. وتحول الحلم إلى كابوس عندما أخذت كل بهائم السوق ترفع من الأرض رءوسها فأرى لكل بهيمة نغزة أيضاً .. يا للكابوس !.. حتى عندما رفعت وجهى إلى السماء وجدت فى خد القمر نغزة !..

لم يفهم حسن من مرارة محمد إلا صدى حزن دفين يجهل هو جذوره ومداه ، لابد أنه يتكلم عن نغزة نور ، لابد أن أمه ماتزال فى عنادها ، أمه رأسها كالحجر ناشفة ، لكنه أحب لصديقه أن يستريح معه فى حلمه الخاص الذى يكاد يراه كل ليلة ...

وأفلح حتى ترك محمد العود من يده بعد أن طمس به معالم الوجه المنغوز وغيبها بقوة فى أديم الأرض ، ، ففى أحلام حسن رعب دموى وقسوة مريحة ، وهو فى كل ليلة ، إلا الليالى النادرة التى يهنأ فيها بنوم طيب ، يصلب حمزة ابن الملتزم على شجرة ويخصيه كما يخصى أبوه فى قديم الزمان بركات ابن عمه ، والناس شهود ، وكأن كل الغائبين عادوا ليشهدوا بما فيهم موتى الطاعون .. وعندما تؤدى البلطة عملها يزغرد صلبها بفرحة فولاذية ، ويخفت بعد قليل عويل حمزه المسفوح الرجولة وتشرب الأرض كل ما سال من دمه ، وإذا بالعيون كلها تتوجه نحو الأرض الرملية المترامية بقفرها الموحش وقد صدرت عن متاهتها فجأة أصداء متجاوبة لصرخات انتصار رهيبة تظل تتعاظم حتى يلفظ الأفق شبحاً مقبلا فى ركض خارق ، صارخاً فى البرية ، هذا جده عبد اللطيف الأكتع عائداً من العدم فى ساعة القصاص ، هذا هو ساجد فى النهاية على تراب الأرض الذى ارتوى بعد طول العطش من الدم الإدريسى ...

ـ آه !.. الدم الإدريسى !.. قلتها يا أبو على .. قلتها يا أخى !. الدم ... الدم ...

بهت حسن وتفجرت دموع محمد ولم يعد يبالى أن يرى صديقه بكاءه الرجولى الهائل ، وطوقت كتفه ذراع الصداقة الممدودة وانحنى على أحزانه المبهمة قلب حسن :

ـ يا محمد افتح قلبك .. تكلم .. لو فى يدنا كل واحد مرود لأفنينا جبال الكحل كما أفنى مثلها الذين قبلنا .. ما الذى يعذبك كل هذا العذاب ؟

نطق فى عينى محمد خزى عظيم .. معك حق يا أبو على !.. معك حق .. هذا الحمل كاد يهرسنى تحت ثقله .. لم أعد أحتمل السكوت .. لم أعد أحتمل .. أحسن من اليد الواحدة فى شيل الحمول الكبيرة يدان متعاونتان واحدة من هنا وواحدة من هنا .. لكن كيف أقولها ! كيف أقولها ...

ـ إن كان ما يحزنك قلة أدب ابن الملتزم مع نور فاعلم أن بينه وبينها بلطتى وآخرة صبرى .. ساعتها لن تفعل أنت شيئاً غير أن تباركنى عندما أريك بلطتى والدم منها يشلب ...

قهر محمد نشيجه لكن نفسه منكسرة بخزيها والكلمات على لسانه المر صعبة .. فى صباه ضرب ابن الجارة بعود من شجرة التوت حتى أدمى ظهره ، وجاءت الأمان تسألان عن السبب .. قلت لهما إنه غشنى فى لعب السيجة .. وضربتنى أمى إرضاء لجارتها فتحملت العقوبة بالرضى المذعن ، حتى تعبت هى من جهد الضرب ومن دهشتها أمام امتثالى الهادىء .. لم تكن السيجة هى السبب .. ضربته لأنه ردد على مسمعى ما يبلغه من حديث جدتى ست العيلة والملتزم القديم حمزة جد حمزتنا .. فى صباى !.. من صباى كان العار

داخل حائطنا . . ومن ذلك اليوم كم دفنت وجهى الباكى فى الأرض مسائلا نفسى إن كانت أمى هى حقاً أخت إدريس وإن كان إدريس إذن خالى ! . . .

ـ يا رجل ! . . لو صدقنا كل فرية دنيئة ! . . .

ـ فى خد أمى لم أر النغزة الإدريسية . . كان هذا هو ما يطمئننى أحياناً . شائعة وخبث جهينى . . لكن ذيل العقرب يعاود اللذع فى قلبى ، ويخايلنى وجه ابن الجارة ! . . اسكت ! . . اسكت ! . . وانهار محمد ونفضه البكاء فى حضن صديقه :

ـ العار عشش فى حائطى من قبل مولدى . . فى قلبى !!

ـ يا رجل ! . . أهذا كلام ! . . أهذا هو ما يعذبك ؟ . . والله إنى أنظر فى وجه جدتك ست العيلة فلا أرى امرأة بل وجه رجل شريف جاد عزيز النفس !

لكن الابتسامة المرة التى شاعت فى وجه صديقه أوجعت قلبه ، وسألته تلك الابتسامة الجارحة وكأنها تشفق عليه من هول الجواب :

ـ هل حدث لك ولو مرة واحدة أن تأملت وجه نور ممعناً فيه نظرك ؟

هل حدث لك هذا ؟ هل تعرف خد نور الأيمن ؟!

حار حسن فى مرمى السؤال لكن محمداً أراحه فى الحال وتدفق وجدانه كالسيل وانحسرت كل سدود الخزى التى كانت تشده إلى الصمت . . لكأنَّ حسن صديق العمر يرى النغزة فى خد صديقه لأول مرة . . وارتعد وظل يرتعد وهو يسمع ولا ينطق والوجوه تخايله كلما ظهر فى قعر الفظاعة اسم جديد . . يا ولداه يا عمى غالب يا طيب . . يا والداه يا عمى عيسى ! . . الخالتان الحبيبتان فاطمة ومحسنة ! . . من متاع الضباع الإدريسية جيلا بعد جيل ! . . حقيقة هذه أم كابوس خولط فيه عقل محمد ! . . نور بنت إدريس وأخت حمزة

وأخت محمد ! . . يا حسرة عليها ! . . يا ولداه يا ميت جهينة ! . . يا ولداه يا بركات يا ولد عمى ! . .

ـ ما هذه المناحة يا جدع أنت وهو ؟!

كانا صادقين فى انهيارهما ، فصرخا معاً من **الفزع** عندما انتزعتهما هذه الصيحة الحازمة من قاع الكابوس ، وعلى الخوف دخل فى مجال رؤيتهما فى الظلام قوام فارع منتصب أمامهما تماماً :

ـ هل هذه عملة رجال يا حسن ؟ وأنت يا محمد ؟

ـ عمى خالد ! . .

ـ عمى خالد ! . .

ونهض الفتيان على ركبهما ، كتفاً إلى كتف . . .

لا لا ! . . ليس عماً لمن يبكون بكاء النسوة وهم رجال بشوارب وفى حمى الطاهر ساكن الشجرة ! . . وهو يعرف كما تعرف الجيزة كلها ما يبكيك يا حسن . . ويعرف ما يبكيك يا محمد لأنه شأنه كما هو شأنك . . هو يعرف الدموع من قبلكما ، لكنه عرف أيضاً وهو يتعلم الصبر كيف يبكى بلا دموع . . وكيف يكز على أسنانه وهو ينتظر الساعة . . .

ـ هل لنا ساعة ؟

ـ نحن ؟ ساعتنا نحن ؟

اه ! وحق سيدى المرعوش الذى يسمعنا آه ! ساعتنا نحن ! ساعة تنتفض قلوبنا مثل قلب واحد ، وتزعق الدماء فى عروقنا وتكونين معنا يا ستى زليخة أنت وروح عزة السارى فى أرضنا ، أوله فى الصعيد وآخره فى البحر المالح ، وملء البر أنفاسه الطاهرة . .

ـ مدد يا ساكن الشجرة ! . . .

(١٣)

عند الظهر وفق محمد في السوق إلى فأس جديدة أعجبته فاشتراها وخرج بها راضياً عنها ، هذه تعيش على الأقل عشر سنين ، وإن يكن بائعها قد طمع في نصف درهم زائد عن الثمن المعقول لها ، فإن صنعتها محكمة ، وسنها البراق قاطع ، ويدها من الزان الصلب .

واقترب من ظلال التوتة المعوجة وهو يفسح في خطاه وعجيج السوق يتخلف متضائلا مع كل خطوة ، وظهر له خص المرأة ستيتة القرعة التي كانت مقعية أمام جحرها الطيني عند أعواد حطب لم يتم جفافها تحاول إيقاد نار ، فلما رأت الفأس الجديدة على كتفه نادته ووجهها الضفدعي غريق بسمرته الداكنة المجعدة في دموعها التي جبدها دخان النار الفاشلة من عينيها المكحلتين بالعماص :

ـ تعال يا ابن فاطمة شوف لي الراكية مالها !

زفر من الضيق ، وقته ضيق ، يعرف أنها من طول ما عاشرت الصمت في وحدتها لا تنقفل إذا انفتحت ، ورئيس أنفار الحوض الغربي لن يصبر طويلا على غيابه ، لكن المسكينة بجرمها الضئيل وجفنيها المجردين من الأهداب وقراعها المتكشف رغم مزق الخرقة الملفوفة حول رأسها هبطت به إلى بطن الترعة ، وهفت بقلبه شفقة على ساكنة الخلاء المستوحدة :

ـ يا خالة ستيتة العود الأخضر لا يشتعل .. أنا أجمع لك الحطب النافع .. النار تحب العود اليابس .. والراكية لها أصول ..

ـ نار في قلب كل من ينزع من قلبك الراحة يا ابن فاطمة الغلبانة ! ..

كل لحظة يتأخرها قد تؤثر عند المحاسبة الأسبوعية مع عربي رئيس الأنفار في حجم مشنته وفي حياة أمه وأبيه الذي لا يكاد ينهض بعمل منذ ضعف بصره

وانكسر في همته شيء خفي ، مدفون في الصمت لا يفهمه أحد .. الراحة يا خالة ستيتة ؟ .. هل تكلمت عن راحة القلب ؟ .. لو تعرفين ما في قلب أبي وأمي وما في قلبي ! .. لو تعرفين ! .. وعاد إليها بقبضة مليئة فنظف الراكية قبل أن يكسر الحطب ويرصه فيها ، وأخرج من جيب صدريته الزلطتين والفتيلة ودعا شرارة النار ألا تؤخره هي الأخرى بعنادها المألوف ، وخايله وهو ينحني على الراكية وجه عربي الذي لا يزال في شيخوخته رذلاً قاسي القلب .

وظهر لها وجهه من خلال سحابة الدخان المتصاعدة من جانب الراكية الآخذ في الاشتعال كما لو كان في وجه طفل يغالب دموعه ، فسألته :

ـ كيف حال أمك يا ضنايا ؟

لمح في صوتها النبرة التي مست قرار نفسه عندما تكلمت عن الذين ينزعون الراحة من القلب ، فسألها هو الآخر :

ـ كما تعرفينها قليلة الكلام أليفة الغم .. هل عندك لها كلام ؟

ـ نار في قلب كل من نزع من قلبك الراحة يا فاطمة يا بنت ست العيلة وسليمان أبو طاسة ! .. نار في قلبه !

لفع محمد فأسه على كتفه ؟ لا وقت عنده لما تريد القرعة أن تخرم عليه من المواجع ، وعندها الآن نارها ، وعليه أن يحث السير نحو الحوض الغربي قبل أن يفقد عربي كل صبره ويطول لسانه ...

ـ مع السلامة يا ابن الغلبان غالب ، فأسك الجديدة تنفع للعزق وللذبح ! ...

ـ فأسي القديمة انقطمت نصفين في الشغل ، والريس قال لي اخطف رجلك للسوق هات واحدة جديدة لأن المخزن فارغ .. أذبح أي شيء

يا خالة ولا فرخة عندنا ولا أرنب ؟ . . الفأس لأكل العيش وأنت ست العارفين . . تركتك بعافية !

انغرست أظافرها فى بور رأسها وهرشته بالتذاذ عنيف :

ـ مع السلامة يا ضنايا . . سلم لى على أمك . . لو صبرت قليلا لأخذت لها معك زر بطاطة مشوى مسروق من زراعة الملتزم وقد الرطل فى عين العدو !

اندفع محمد فى خطواته النشيطة وهو قابض على يد الفأس فلم يلبث أن جاوز السنطة القديمة وهبط فى مدق الطاحون ، وملأت سمعه جعجعة الرحى عندما رأى فجأة عند الجدار فرساً شهباء يلمع بريق النقوش الفضية فى سرجها وفى مقبض السوط المتدلى منه ، ووجد الملتزم مولياً ظهره فضاء الأرض البور ومتجهاً بوجهه نحو الحائط ، لكن الرجل اليقظ التفت على وقع الخطى الخفيفة المقبلة ، وسارع بربط تكة سرواله الطويلة ، وتكلم قبل أن يستدير ويواجه الفلاح الشاب حامل الفأس الجديدة :

ـ على مهلك يا محمد ، لى معك كلمتان !

جمد محمد فى مكانه ، وأوجعته سخونة قلبه التى سرت فى صدره حارقة ناهشة ، هل ينهار على الأرض معولا ببكاء طفل مصدوم أم يطيع الفأس فيرفعها ويظل يضرب بها حتى يمحو وجود هذا الرجل من أمامه ويستريح مرة واحدة ؟

كأن غيامه أمام عينيه تحجب عنه كل رؤية واضحة ، وقبضته على يد الفأس شاعرة بالرعدة التى نفضت كيانه كله ، دون أن يفهم فى جيشان أعماقه الهائل حقيقة مشاعره أو يجد ما يقوله والرجل يقترب منه على مهل . . وكأن حدة شره على غير العادة منكسرة !

تشنجت أصابع محمد على الفأس ، لكن الرجل حرص على ألا يمد يده ووقف أمامه يتأمله فى السكون الذى هبط فجأة عميقاً ومحتوياً اللحظة ومكانها

ومبتلعاً كل شىء ، حتى هدير الطاحون الذى كان منذ هنيهة يملأ الجو كأنه خوار بهيمة تشتكى من ألم مستمر . . لم يحدث من قبل أن اقترب كل منهما من الآخر إلى هذا الحد . . لم تعد بينهما إلا مسافة ما تمتد الأيدى للمصافحة . . ها هو أمام الفأس مباشرة . . قد زحفت الغضون إلى وجهه كما زحف بعض الشيب إلى ما بقى من شعره القليل ، والتجاعيد المنحفرة فى خده لم تدع فيه نغزة ظاهرة كما توقع محمد ، لكن فكه الممطوط يشبه الفك الذى يراه محمد كلما انحنى على ماء هادىء وتأمل صورة وجهه فى صفحته الصافية . .

ـ قل كلمتيك . . ماذا تريد منى ؟

وأدهشه صوته الأجش المرتجف الذى ألقى السؤال فجأة كأنه صوت إنسان آخر أكثر مما أدهشه الرجل الذى لايزال يبحث عن كلمتيه وفى وقفته حيرة وفى عينيه قلق ، وارتعدت الفأس على كتفه عندما لاح فى خياله على غير انتظار وجه طيب تعلن نظرته الفارغة عن اقترابه من العمى الكامل ، لكن ملامح ذلك الوجه ظلت تفقد طيبتها بنقمة هائلة تتوهج كالحمى فى دم محمد . . تكلم ! . . ماذا تريد ! . . ألا تخاف منى ونحن وحدنا وهذا عظم جبينك وذاك سن فأسى ؟

ـ أريد لك كل خير . . كل خير . .

ـ وأنا لا أريد منك شيئاً يا جدع انت ! . . .

صفعت الكلمة الوجه الإدريسى الهرم ، لكنه استقوى على انفعاله وملك زمامه :

ـ اسمعنى أولا يا محمد . . من مصلحتك أن تسمعنى . . ألا تحترم من هم أكبر منك سناً ؟

ـ عندى شغل فى الحوض الغربى ولا أريد أن يخاطب لسانك لسانى

أبداً .. غُور من هنا يا جدع انت أحسن لك ! ..

وانحرف بخطوته وهو فى ضيق من عجزه ، لكن الملتزم تحرك وفرد ذراعه :

ـ الحوض الغربى .. كلامى معك فعلا عن الحوض الغربى يا محمد .. عربى شاخ ولم يعد لى فيه نفع هناك .. أريد أن أريحه فى حراسة الصوامع .. وأنا محتاج فى رياسة الحوض الغربى إلى ولد سبع راضع من بز أمه ..

لسعته اللفظة الأفعوانية ، وانتفض فى وعيه صوت القرعة كأنه يسمعه لساعته ، الفأس للذبح كما هى للعزق ، للذبح ، لطحن العظام فى قلب اللحم بخرزة الفأس الصلبة قبل تقطيعه بسنها الحادة ، للعار ، للثأر ، للعرض المهتوك ألف مرة .. لكنه ظل جامداً يتلقى كلمات الرجل الناعمة :

ـ لماذا لا تكون لك حياة جديدة ويسر وراحة بال وعزة ؟ ... وتكون لك دار مبنية وعروسة مخبية بنت ناس طيبين لا تعرف سكة الغيط والجلة .. أدفع لك مهرها بنفسى .. أريد لك الخير يا محمد .. أنت شاب قوى وطيب وتستحق حياة أنعم ...

ـ طيب و ... ابن حلال ؟!

لفظتها كبرياء رجولته الدامية بمرارة بلغ من فظاعتها أن ظهر قائلها هادئاً وراء ابتسامته الزيانة المتلظية المقهورة ، فجمد الكهل وتحجر ..

وفى جموده العجيب ودع محمد آخر رجاء فى الشك فها هو اليقين ، أنا ابن هذا ، أنا أخو نور التى يريد بعروسه بنت الكرام المستورة أن يمنع زواجنا دون أن يكشف نفسه ، أنا ابن هذا .. أمى ! .. أمى ! .. أمى ! .. وهذا ! .. وكل ما رآه من ألوان الفعل الجنسى على الطبيعة فى إنسان ميت جهنية وحيوانها تشيطن ماثلا فى خياله بهيئة شخصين اثنين غائبين فى شبق ، هذا الكافر ابن الكافر و .. أمه فاطمة ! .. ورحى الطاحون شغال .. إلى هذا الحد إذن

كان منحصراً فى مغالبته لإرادة القتل .. ما الذى يشل يمينى ؟ لماذا لا أقتله وأستريح ؟ ...

فأسه فى بحور من الدم تطيح بعدد من الرؤوس الواحد بعد الآخر ، وأمه مع الجميع ، لكن قبضته على يد الفأس ميتة !

ـ هل انتهيت ؟

أفاق إدريس من جموده هو الآخر :

ـ رد على بعد يومين .. فكر فى الموضوع .. نلتقى هنا مساء الاثنين .. فكر فى مصلحتك وشاور يا محمد .. شاور .. أمك ... لئن لم يبطش الآن فمتى ؟ متى ؟

صهلت الفرس فى ملل وأتلعت عنقها فى اتجاه فارسها بنظرة فى عينيها سأمانة ، وقصدها الملتزم والفأس هامدة فى جمودها على كتف محمد ... ولون الدم يملأ الدنيا أرضها وسماءها !

ولوح الفارس بالسلام من فوق سرجه المفضض ، والسوط مطوى فى يمينه الملوحة ، ثم نخس المهماز جنب الفرس النشطة للانطلاق .. وسقطت الفأس إلى الأرض فلم يبال بها محمد !

كأنه يريد استبقاء الفرس بشدها من ذيلها ، وفجأة امتدت ذراعاه لولا أن اندفعت الفرس بفتوتها فى ركض موثب مرح .. ومرت برهة قبل أن يجد نفسه مندفعاً وهو يزأر وراء الفرس السريعة .. ملعون دمك ! .. ملعون دمك ! .. لا أريد منك شيئاً يانذل ! .. أنت غريب .. غريب .. أنا أكرهك .. أكرهك .. أبى غالب ! أبى غالب !

وسقط على وجهه فساخت روحه فى الأرض ، فلما رفع رأسه رأى الأفق محتضناً الشهباء وراكبها ، فدفس وجهه فى الطين .. كيف لم أقطعه يا أبى

غالب ؟ كيف لم أقطعه ؟ . . أرجال نحن أم نسوان يا أبى غالب ! . . يا أبى غالب ! . .

(١٤)

رجال الحوض الغربى لا يعودون إلى الدور إلا بعد الغروب ، فما أن رأى محمد من بعيد جدته أمام الدار متكومة فى الشمس حتى توقع أن يحاصره فضولها عند رؤيته عائداً فى ساعة الظهر ، وبحث فى الحال عن جواب مقنع يقذف به إليها فى طريقه إلى الداخل فيسكتها ، فلم يكن يجهل معنى أن تعصر ست العيلة من يقع فى يدها حتى تنتزع منه الحقائق كلها قبل أن تخلى سبيله ، ومتى حزمت أمرها معه كان يعود بين يديها الصبى المضطرب الذى لا تقوم له أكذوبة ولا تنفعه حيلة .

ــ إيش قطع شغلك من الظهر يا محمد ؟

تباطأت خطواته دون أن يتوقف :

ــ الفأس انكسرت والريس سمح لى بشراء واحدة جديدة ، قلت أمر أخطف رغيفاً من المشنة !

ومرق من الباب وهو يتحاشى النظر نحوها ، وحمد الله عندما دخل إلى صحن الدار المكشوف دون أن تحكم جدته رأيها على مزيد من الجدل ، وكان باب الزريبة موارباً يتسرب منه لهاث أمه القوى المنتظم مع كل ضربة من الفأس ، من صباحة ربنا قبل خروجه وهى تقطع أرض الزريبة ، تشتغل بعناد ، تميت نفسها فى الشغل . . .

وعند باب الزريبة تريث ثم رأى أن يسند فأسه إلى الحائط قبل أن تراه أمه التى شعرت به قبل أن يدخل عليها فاستقبله منها وجه شاحب مطرق وأجفان منكسرة :

ــ خيريا محمد ؟

ــ كنت فى السوق . . .

لم تكف فاطمة عن قطع الطينة العطنة المستعفية على فأسها الصغيرة ، والعروق النافرة فى قبضتها المتملكة من يد الفأس تزداد مع كل ضربة زرقة وبروزاً ، والفأس تضرب بإصرار ، ومع كل ضربة يرى حز السروال حول وسطها ظاهراً من تحت القميص الأسود البالى ، ويسمع زفرة أمه فى جهدها البدنى : « هوه . . هوه . . هوه . . » .

كانت عنده ألف كلمة يقولها ، لكنه سمع صوته يقول لها :

ــ كنت أشترى فأساً جديدة !

ــ على حساب الأبعدية ؟

ــ الريس عربى عارف أن المخزن فارغ .

ــ أبوك هناك . . هل قابلته ؟

ــ ماذا يفعل فى السوق ؟

ــ يبيع الجدى ويشترى الطحين . . ويلين رجليه !

كادت دمويته المحمومة التى استفزتها كلمة « أبوك » تدفعه إلى أن يقول لها فى غلظة « قابلت فى عودتى الملتزم إدريس ! » لكن نظرة الخوف الذليلة التى لحظها فى نظرتها الركنية أخضعته فجأة لدفعة غريزية جديدة رطبت صوته بعطف خشن مرتجف :

ــ لا نفع لنا فى الزريبة بعد بيع الجدى فارفعى وسطك يا امه وخذى نفسك !

لان جسمها وعدلت وسطها ساندة خاصرتها الموجوعة بقبضته ، وفى

وجهها الممصوص آهة خرساء ، لكأن كابوساً انزاح من قلبها وكشط معه من هواء الزريبة رائحته الزخمة :

ـ فداك الجدى يا ابنى ، ورغيف فى المشنة أحسن . .

ظهر فى فتحة الباب وجه ست العيلة مفعماً بالقلق :

ـ ما تلفع يا حبيبى فأسك وترجع لأكل عيشك !

مشنتهم الفارغة تخايلت له وهو يكز على أسنانه سامعاً وراء أذنيه ضرب الدم فى رأسه . . يا شيخة ! . . فمك الأهتم مزرور على ألف سر . . تريدين أن تأخذى بنتك فى حمايتك إذا كان وراء عودتى غير المتوقعة أذى ينالها منى . . والدم يضرب وراء أذنيه ضربات مدوخة : « جبان . . جبان . . جبان . . » . واختفى وجه الجدة فانحنى ظهر أمه وعاد لهاثها ينتظم مع ضربات الفأس : « هوه . . هوه . . هو . . » .

قبل غالب كان هناك جدى سليمان أبو طاسة ، فهل مات عارفاً ؟ . . ومن أيضاً من رجالك يا ميت جهينة ؟ . . رجال ؟ . . نحن ؟ . . وتفجر خزيه العظيم فجأة فى وجه الأم التى سقطت الفأس منها واعتدلت مرة أخرى بشهقة فظيعة عندما سمعت من ابنها ذلك الصوت المتغير المخيف :

ـ قابلت فى عودتى إدريس الملتزم ! . . .

حرام عليك يا ولدى . . لم ينطق لسانها لكن كلمته نظرتها الذليلة . . إن كنت عرفت فافعل ما تشاء لكن لا تسبنى ولا تجرحنى . . والله والله والله يا محمد ما كنت تنعم بهذه الصحة فى شبوبيتك لولا ما كان . . أمك مسكينة ! مسكينة ! . . . والله ما حملت امرأة من عذاب الدنيا مثل ما حملت أمك ، ولا عرفت أمك لشىء مما كان لذة . . حرام يا ولدى . .

ـ قال لى شاور أمك !! . . .

نفضها رعب فظيع عند صيحة ابنها القاسية ، وتلجلج لسانها وخانها النطق ، لكن وحيدها كان قد اندفع مع لذة التنفيس الشفوى الحريفة :

ـ يريد أن يمشيخنى على الحوض الغربى ويدفع لى مهر عروسة مخبيّة من بنات الأكابر ، وقال لى شاور أمك ! . .

استندت الأم على الحائط ثم خانها جلدها فجثت متهاوية فى وضع جامد متضائل ، لكنه سمع همستها المطموسة :

ـ يا ضنايا يا محمد . . يا ضنايا يا محمد . .

صوته الآن باتر مثل سن الفأس :

ـ ها أنا أشاور أمى ، ما قول أمى فى كلامه . كلام الـ . . ملتزم ؟ لكن قسوته الطافحة غاصت فى ندم لم تمتلىء نفسه بمثله طَول عمره ، ولم يعد فى نظرتها إليه غير حنان مشفق كبير . . مسكين يا ولدى مسكين . . ارحم نفسك وارحم العمى فى عينى غالب وارحمنا كلنا وافهم . . افهم يا محمد . . هل لنا حيلة ؟ . . ما كان لنا كلنا فى كل ما فعلنا فى دنيانا ، هم أكبر من هم اللقمة . . اللقمة يا ضنايا . . رغيف المشنة يا محمد يا ولدى . .

تحركت قدماه الثقيلتان نحو الباب وهو يتحاشى النظر نحو أمه :

ـ أنا راحل عن ميت جهينة بعد ما أسلم الفأس الجديدة للمخزن !

ـ راحل ؟ !

واطلقت المرأة المنسحقة صرخة فظيعة وهى تثب فى اتجاه الباب قاصدة أن تسده بجسمها ، وجاءت صرختها بأمها حاسبة أن الولد قد فلق بالفأس رأس أمه . . .

ـ ماذا فعلت يا ولد ؟ هل مددت يدك على أمك ؟

لم يعد يحتمل ، قبضت يمناه على طوق جلباب جدته ونفضها فى قبضته . . أنت الأخرى ! . . لا تنقصنا إلا ورثتك ! . . لم يقل لى شاور جدتك ، لكن لو كان أبوه حياً لقالها !! . .

ــ هل جنت يا محمد ؟

ــ أفتينى أنت يا أس الخنا أفتينى . . هل أهاجر يا ستى أم أتمشيخ وأخلف من بنت الأكابر صبياناً وبنات ؟!

ــ ماذا يقول ابنك يا فاطمة ! . .

لكن فاطمة تهاوت على طينة الزريبة غائبة عن الوعى ، وخلفتها فى قبضة حفيدها الذى لطمها فجأة على وجهها ولمعت فى عينيه نظرة مخبولة :

ــ هل أشرب من دمكم كلكم ولا أتوقف حتى يحملونى إلى المشنقة وأنا ألعن مشنتكم ورغيفكم أم أهج كما هج فى قديم الزمن عبد اللطيف الأكتع ! . . دبرينى يا رخيصة يا أم الرخيصة . . ملعونة مشنتكم ! ملعونة مشنتكم ! . .

ــ تضرب ستك يا محمد ؟

لفظها فوق ابنتها قبل أن يقفز إلى صحن الدار ؟ واختطف الفأس التى كان قد تركها عند الحائط ، وابتلعه الباب الخارجى وهو يزأر من باطن عروقه :

ــ أشرب أم لا أشرب ؟ أشرب أم لا أشرب ؟ . . أشرب أم لا أشرب ؟

(١٥)

الله جميل ، الله كبير ، الله جميل ، الله كبير ، والليل فى زقاق العميان ملىء بنبض الإيقاع الجماعى الصادر من حوش بيت الشيخ الدلاتونى ، والضوء الخافق فى فتيلة المسرجة المعلقة فى البوابة يحتوى العكاز القمىء المستند

إلى الجدار الخارجى والحجر الجرانيتى الكبير والأعرج الجالس فوقه فى نوبة حراسة يقظة ، والفاسوخة الكبيرة المتأرجحة فى مقدمة طاقيته تلمع كلما عكست شعاع نور ، والله جميل ، والله كبير . . .

وفرد الغلام ساقه العاجزة وهو يتشمم رائحة الهواء قبل أن يرى القصعة التى ظهرت فى البوابة محمولة بين يدى زكريا النقاش ، وظهرت لثته خالية من بعض الأسنان عندما تبسم للثريد :

ــ مرحباً بعيش الشيخ الدلاتونى وملحه !

وضع زكريا القصعة فى حجر الأعرج وهو يمسح بنظرته الزقاق الذى يبدو فى امتداده السردابى فى الظلام كما لو لم تكن له نهاية :

ــ يوسف لم يظهر ؟

اهتزت الفاسوخة على جبين الأعرج وهو يضرب بأصابعه الطويلة فى جنب القصعة :

ــ لا تقلق على يوسّف . . لن يتأخر حبيبك . . .

ــ إنه يكره الوثب فوق الأسطح للوصول إلينا ، ولابد أنه كالعادة اشتبك مع الطواف ! . . .

وهم زكريا أن يعود إلى الداخل عندما أحس خروج إيقاع الذكر من النغم البطىء المهد إلى فلك الدوران السريع الذى يجب أن تنخطف فيه روحه متقربة من المدد ، لكن سمع الغلام المرهف كان سجل بزوغ شخص من قلب الظلام :

ــ صدقتنى ؟ ها هو حبيبك فى الله !

وعندما كشفته مسرجة البوابة ظهر وجه يوسف كالعاده مبشراً بالمرح :

ـ قسمتى ونصيبى ! . . حكاياتى مع الطوافين بدأت من صغرى ولى معهم تاريخ ، لكن هذا الجلف هو أعجب من رأيت من هذه الطائفة ! . .

ـ ألم يقبض المعلوم ؟

ـ ابن المتختخة يريد أن يكون اللحم الذى نرسله له مع قصعته المعهودة من السمين الملبس وأن يحمر فى سمن بلدى ! . .

وتجلى فى الداخل صوت قوى على رقته بضبط الإيقاع ويبشر بانجذاب مطهر :

ـ مدد . . مدد . . مدد . . مدد . .

وزلط الأعرج كرة كبيرة من الثريد قبل أن يعبر عن افتتانه بشيخه فى انبهار طفولى :

ـ صوته يضىء زقاق العميان ! . .

ولقفت البوابة صديقيه النقاشين فمسح فتات القصعة قبل أن يريحها على الأرض بجانب كرسيه الجرانيتى ويعود إلى وظيفته الليلية التى يعيش فيها حياته كاملة ، فهو لا يخدم قضية يفهمها ويؤمن بها ولا يعرف معنى دروس الشيخ التى يفسر فيها لمريديه معانى الجهاد وهو يذاكرهم فى شئون معيشتهم ، بل يخدم شيخه المحبوب بولاء كامل سعيد ، ويحب ذلك النحيل الأسمر الصادق الذى يربى بالنظرة وبالكلمة أولاده زهرة شباب الخيامية . . الله جميل ، الله كبير ، والإيقاع يتماوج هابطاً من القمم الخاطفة إلى مدار الرتابة الهادئة ، والظلمة تلفظ فجأة هدير عاصفة هابطة من سقف البيت المجاور ، زاعقة فى ليل زقاق العميان :

ـ يا حى يا جبار ! غيرى يناجى جمالك أما عبدك الضعيف فينادى جبروتك !

وارتطمت بالأرض غير بعيد من الحجر قدمان حافيتان ، وظهرت اللحية السوداء فتلقاها الغلام بابتسامة حب ، هكذا يغلب أبو ذقن سودة فى كل الليالى باب الزقاق المقفول ويقظة الطواف عنده فى انتظار الرشاوى ، وهكذا علم مريدى الشيخ أن يفعلوا كلما وصلوا إلى الاجتماع بعد صلاة العشاء ، وجلجل صوت المجذوب عند المسرجة :

ـ اهدنا إلىّ النقمة يا حى يا جبار !

فظهر له فى البوابة مجذوب ثان خارج كالشعلة من رقصة الروح الشفافة وجاوبه بصيحة مثل صيحته مجلجلة :

ـ يارب ! بارك فى عيش الشيخ الدلاتونى وملحه !

وتلقاهما فى الداخل سكون يزداد فى كل لحظة عمقاً وخطراً ، فأرهف الأعرج سمعه وخفق قلبه فى انتظار صوت الشيخ الذى لا يملأ غيره كل هذا السكون الذى يجىء دائماً بعد كل دورة من دورات الذكر المتباعدة ، وطالت فترة السكون قبل أن يروى وجدانه الظمآن ذلك الصوت الرقيق الآسر :

ـ نتذاكر الآن يا أولاد الخيامية فى أحوال بلدنا مهتدين بنور القلب ، والله هو النور لمن يبصر بقلبه ، وفى معنى النور تتوحد كل صفات الله الحسنى ، والبشر خليقة نور ، وفى النور يريدهم ربهم ، فى نور الحق وكرامة الواجب وسواء السبيل ، فليكن النور رفيقنا وهادينا ، ولتكن صلاتنا ، أن اللهم هبنا القدرة على أن تشرق أنفسنا البشرية بحقيقتك النورانية ، واضرب بنا الظلمة ، واجعل الموت إن وجب حبيباً إلينا . . .

وتدفق من البوابة المفتوحة بحر كبير :

ـ آمين ! آمين ! آمين ! . . .

لم يعد ليل زقاق العميان كما كان ، لم يعد يطيق الجلوس على حجره ولم

يستعن على حركة الوقوف السريعة بالعكاز ، والصوت الخلاب عطر الوجود وملأه دون أن يقوى الأعرج على الغوص وراء معانى الكلمات التى كان بعضها يبدو له ثغراً رهيباً يشيع فى صدره كله سخونة انشراح ، ثم لم تعد المعانى تعنيه وهام قلبه وراء جلال الصوت ، لكأنه محمول على قمة موجات متلاحقة فى نشوة ، وفارت أعماقه سافلها وعاليها ولم يعد هناك وجود حقيقى للعكاز ولا للضياع . . وبوحى الصوت وحده تعملقت نفسه شاعرة بأن فى وسع أولاد الشيخ لو خرجوا من هذه البوابة أن يمحقوا الشقاء ويفتحوا الجنة . . وفى حبّ الشيخ لم يعد خائفاً ولا جباناً . . هناك لحظة لم يكن قبلها شيئاً وهو من بعدها شجاع وقوى إن رمى به الشيخ الدلاتونى الشمس ذاتها فهو قادر على أن يخرق عين الشمس . .

والصوت ينصب فى وجدانه بلا كلمات نغماً خالصاً إذ يعيش بالتذاذ نهم تلك اللحظة التى كلمه فيها الشيخ لأول مرة وشملته نظرته ، يوم جاء أبو ذقن سودة والنقاش الأحمدى إلى بيت الشيخ بالمملوك الأسير والحصان الأسود . . يا أعرج ! نحن فى **جهادنا** فى حاجة إلى ثمن هذا الحصان الأصيل وفى حاجة إلى من يبيعه لنا فى سوق امبابة ، وقد ندبتك لهذا العمل الصالح لأنى أرى فيك كفاءة له ! . . انتقاه وهو يرى عكازه والتواء ساقه واصطفاه على أشداء معافين من أولاده كانوا حوله فى هذا الحوش نفسه . . لم يكن رأى من قبل هذا الصنف من مشايخ الأزهر ، والذين عرفهم كانوا أهل دنيا مستخفين تحت العمائم ، لكنهم مفضوحون كاليأس وكالذنب . . يا أعرج ! هل جئتنا بثمن الحصان . . يا أعرج ! كان حدسى فيك صادقاً وأنت منذ الساعة موقد مسرجتنا وحامى بابنا وصاحب بيت معى فى بيتى ، يا أعرج ! ما أحلى الكلمة على لسان الشيخ ! لكأنه إذ يقولها فى كل مرة يعطينى ساقاً سليمة ونفساً راضية ! . . .

وفاسوخته الكبيرة لمعت عاكسة ومضات النور كأنها ماسة سوداء مشعة ،

وهو خفيف كما لو قد نبتت له أجنحة ، لكنه فى عز رضاه رآهم يتواثبون من أسقف البيوت الخفيضة ومن فوهة الزقاق فى أعداد كبيرة . . .

وانتفض قلبه عندما رأى البصاصين فى الطليعة والسيوف بارقة !

لكنه فى ذهوله استطاع قبل أن يتلقى على وجهه لطمة باغتة أن يزعق بالنذير :

ـ القصعة بردت ! القصعة بردت !

وتلوى على الأرض من الألم وهو يراهم مارقين من البوابة فى اندفاع شرس . . وسمع فى اللحظة نفسها ذلك الصوت القوى على ما به من رقة وهو يلقى فى الداخل المضطرب بكلمة الساعة ، حاسمة بليغة :

ـ الموت إن وجبت ساعته حبيب إلينا !

أكثر من عشرين مملوكاً مثل المملوك الذى شهد مصرعه بيد المجذوب والنقاش قبل أن يحفر معهما فى أرضية بيت الشيخ قبره المجهول ، وفى الحال وقع فى الداخل شىء بشع تتزايد فظاعته **بعجيجة** التلاطم وبخفائه غير المنظور . .

وهم الغلام الأعرج أن يعتدل مستنداً بيمناه إلى برودة الحجر عندما رأى فوق رأسه سيفاً وشوارب ورطانة مشئومة :

ـ أعرج لئيم أزعر ! . . شيخ دلاتونى مثير أحقاد ، شيخ دلاتونى إن شاء الله مذبوح !

ورفسه المملوك فى جنبه رفسة مدوخة ، لكنه قبل أن يغيب عن الدنيا لمح اثنين من رجال الشيخ يمرقان من البوابة وعرف أحدهما من طاقيته التى يشيع فيها لون الغزل الأخضر ، وتمنى النجاة لصديقه يوسف النقاش والرجل الآخر

عندما رأى فى كعبها أحد زبانية الوالى شاهرا سيفه ، والأمنية التى كانت آخر عهده بالوعى انطلقت هى الأخرى كالسهم العلوى وراء المطاردة الحامية التى اندفعت نحو الظلام ، وكأنها تلقى فى قلب يوسف قوة جديدة ، فما أن رأى باب الزقاق مواربا ورأس الطواف بارزاً حتى جمع عزيمته كلها وناوله فى بطنه رفسة أسقطته وفتحت الطريق إلى شارع الخيامية الكبير . .

وما يدرى يوسف أين غاب زميله الهارب معه ، لكن وقع خطى المملوك المسرعة وراءه كان يدوى فى أذنيه مثل قرع الطبول ، وكشفت له حركة عفوية من يده أنه فقد فى المطاردة طاقيته الجديدة . .

وعند ناصية حمام الخيامية توقف المملوك عن متابعته ورآه يوسف فى لفتة أخيرة يستند بكتفه العريضة إلى الحائط وهو فى لهاثه يكاد يقع من طوله ، لكن قلب يوسف الوثاب مع قفزاته الطائرة لم يطاوعه على الطمأنينة حتى أيقن بالنجاة ومرق من فتحة حائط العطفة وعندها حل عليه التعب مرة واحدة . يـاه ! كل هـذه المسافة من زقاق العميـان إلى عطفـة النعناعـة ، فى نفس واحد ! . . .

والتقط أنفـاسه فى شبـه حلم قبل أن يتحسس فى الظلام طريقـه إلى حجرته ، فى إعياء وذهول ، وخالط حزنه شعور بالراحة وهو يلوى الأكـرة الخشبية فى يده عالماً أن وجهاً ينتظره وراء الباب بساماً طيباً ، كأن لم يكن منذ قليل يرى الموت بين عينيه ويتلو الشهادتين فى قلب المعركة الطاحنة !

ــ حبيبى مالك ؟ وجهك مخطوف مثل الكركم ! . .

مسكينة يا أحب النساء ! صبرت طويلا على الحرمان من الذرّية محتفظة بأملك فى بقية العمر ، وها هو رجلك فى هذه الليلة السوداء قد قطع الخلف وضاع منه الأمل ! . . لم يتكلم فيه شىء غير الابتسامة المرة التى شاعت فى وجهه ، وشعر بيدها تمسك يده وبصوتها يرق له فى حنان :

ــ تعال يا يوسف . . اجلس . . ولا تتكلم حتى تأخـذ نفسك . . الله يلعن من عكر دمك !

وركعت أمام رجلها المنطرح على الحصيرة وأخذت بيدها رأسه التى كان يسندها على الحائط وسقته من كوز المـاء الذى جـاءت به عـلى عجل ، ثم وضعت الكوز على الأرض وطوقت عنق الرجل المحبوب بذراعها الدافئة وهى تدنى وجهها من وجهه الذى سكنته تلك الابتسامة المتقعة العجيبة ، طامعة فى قدرتها المألوفة على التسرية عنه وفك عقدة لسانه :

ــ طلع لك عفريت ؟

لا يتحرك لمزاحها بالاستجابة السريعة المعهودة لها ، وما وقع له أخطر إذن من أن ينفع معه مكرها البسيط !

لعل زكريا بطبعه الحامى وقع فى ورطة جـديدة مـع شيخ النقـاشين ، فمالت مكاسب على كتف يوسف بصدرها :

ــ هل حصل شىء لا سمح الله لزكريا ؟

لكأن الاسم وحده كان التعويـذة التى فتحت القمقم ، فجأة وجـدته مجهشاً بالبكاء فى حجرها ، لم تره باكياً بهذا الانهيار الطفولى فى كل عشرتها ، لابد أن زكريا يا حبة عينى وقع من فوق السقالة وانقطم وسطه ! . . وتكلم يوسف ووجهه مدفوس فى حجرها وشهقاته تنفض جسمه كله :

ــ زكريا ؟ . . زكريا ؟ . . لن نرى منذ الليلة زكريا ! . .

ــ يا مصيبتى ! . . ماذا جـرى للجدع ؟ . . قـل يا يـوسف ! . . غالب نشيجه وهو يرفع رأسه فرأت فى عينيه حزناً فظيعاً أخافها ، واستحثته عـلى الكلام فى جزع ملهوف :

ــ ماله زكريا ؟ مات يا يوسف ؟ مات ؟

فى البداية لم تفهم من كلامه المضطرب شيئاً ، ولزمها بعض الوقت قبل أن تدخل معه من بوابة الشيخ الدلاتونى وترى كارثة الحوش البشعة .. وكان يجهل الكثير مما حدث **ولا يعرف مصيرما حدث بغتة** . هناك من استطاع مثله ان يهرب ، ومن سقط من الضرب صاحبه على وجه التحديد .. ومصير الآخرين أيضا غامض .. كل شىء ، ومن وقع فى الأيدى الفظة التى ظهرت فجأة بالخناجر والدبابيس والسيوف .. لكنه قبل أن ينفد بجلده رأى زكريا متهاوياً تحت ضربة وحشية من دبوس غاشم ودمه يغطى وجهه ، وعندما هم أن يعود إلى زكريا دفعه الشيخ نفسه نحو طريق الخلاص قائلا له : إن من الغفلة أن يقع الكل ولا يبقى منهم أحد .. ورأى بعض رفاقه يتسلقون الحيطان إلى الأسطح والشيخ يتصدى للجند الذين كان سلاحهم يحيد عن طريقه فى شىء من رهبة .. ولعل الشيخ الآن فى قبضتهم إن لم يكن لقى حتفه وهو يدافع عن أولاده .. لا أدرى .. جريت وجرى ورائى كلب منهم كأن بيننا ثأراً .. لا أدرى .. كل ما أدريه أن الضربة ماحقة .. لا حول ولا قوة إلا بالله ! .. شىء فوق احتمالها ، كأن قلبها يغوص فى بحر من الدموع :

ـ هل يأتون وراءك إلى هنا ؟

ـ لا أدرى يا مكاسب .. كيف أعرف !

ـ نترك لهم الربع ونقضى الليل فى مكان آخر ؟

ـ أين ؟! .. الصباح رباح .. إن لم يأتوا قبل أذان الفجر دبرنا أمورنا على أن نختفى مع الصبح إلى أن تتجلى إرادة الله .. هاتى الكوز مرة ثانية .. يارب خذ الشيخ الدلاتونى فى حمايتك ! احفظه يارب من كل سوء ! .. آه يا أولاد الزنا ! .. آه ! ..

ولاحت لخاطره قمم النخيل فى ميت جهينة وهو يشرب من يدها ،

وخايلته صور الذين سبقوه إلى الهجرة :

ـ أرض الله واسعة ! .

ووسدته فخذها ومسحت بيدها على رأسه :

ـ له فى ذلك حكمة !

(١٦)

الطاووس الأسود الجليل شيخ طواويس البساتين المعلقة طوى ذيله الجميل فى انكسار ورعب ، والأزهار النادرة التى جاءت بذورها الغالية من بلاد بعيدة فسقاها ماء النيل روعة على فتنتها الأصيلة داستها مراكيب الجوارى الفزعات وأقدام العبيد الحافية ، لقد عاد الرعب ، لقد أقبلت الأنياب المفترسة مرة أخرى فى إعصار من صهيل الخيول تضرب حصارها حول دار الملك فى قلعة الجبل ، لقد بدأ طومان باى حركته الجديدة فى طريقه إلى السلطة !

وتهته كبير طراشية قانصوه وهو يدخل عليه بالنبأ القاصم مخدع عروسه الجديدة ، ورأت الجارية سيدها المهاب ذليلا فى حال الضآلة الباكية والخوف المهين :

ـ هذا غير معقول .. مستحيل . طومان باى ؟!

ـ بنفسه يا كوكب الشرق البهى !

ـ ماذا يريد أكثر مما عنده ؟

والمرأة ، على خوفها ، كانت فى الثلاثة أصفاهم فكراً :

ـ يا مولانا السلطان ! وهل فيما يريده موضع لسؤال ؟ يريد ما أراده كل من حاصر هذا المكان ، الصنجق والخاتم السلطانى والكرسى ! .. وهان عليها قدره عندما توسل إليها هى فى كلامه كما لوكانت هى الجلاد :

ـ ألم أترك له حكم البلد الفعلى يمرح فيه على هواه ؟ . . الكلمة كلمته والمشورة مشورته . . هو فى عهدى أكبر مما كان الـدوادار خير بـك فى عهد بلباى . . أليس كذلك يا أغا ؟

والتفت إلى الطواشى وأطبقت يداه على صدر عباءته الصفراء المدندشة بالأحمر والأسود :

ـ هل أنت واثق أنه طومان باى ؟ . . لعله جانبلاط أتابك العساكر أو أى ابن لئيمة آخر ؟ . . لماذا لم ترسل على الأسوار بصاصين يتقصون أخبار الحصار وزعيمه ؟

ـ الحرس رأوه بأنفسهم . . هو طومان باى يا مولاى السلطان . . الله يلعنه ! . . لكن . . ماذا نحن فاعلون ياكوكب الشرق البهى ؟

ـ جئنى فى الحال بناظر بيت المال !!

انتظرت المرأة حتى ترجرج الأغا مزايلا القاعة ونهضت أمام سلطان مصر الذى كانت منذ اشتراها تتأمله بمكرها الصامت وتنفذ إلى مكامن الرخاوة فى شخصه ، وسألته وهى لا ترى من وجهه المدفون بدموعه ومخاطه فى المنديل الموصلى غير أذنه وصدغه ولحيته التى لايزال السواد فيها يغلب البياض :

ـ عفوك إن تكلمت بغير إذنـك السلطانى . . ما نفـع ناظـر بيت المال الآن ؟ ... أين وزيرك يا مولاى ؟

ـ وزيرى ؟! . . أنا منذ جلوسى على الكرسى لم أر أى وزير . . فقط ومهرت به كل ما طلبوا منى أن أوافقهم عليه . . أصابعى ورمت . . أصابعى يمناى ورمت من كثرة ما دفعت الخاتكم السلطانى بالحبر المملوكى انظرى . . هل هذه أصابع سلطان . . حديث العهد بالسلطنة ؟

تقدمت الجارية منه خطوة وهى فى عجب شديد يكاد ينسيها خوفها من

المصير المجهول إذا اقتحم الأمير القوى القلعة وملكها :

ـ أجلسوك ؟! . . توافقهم ؟ . . توافق من يا مولاى السلطان ؟

ـ كلهم . . من طومان باى فوق لأصغر أمير ! . . كل هذا الزحام يجب أن يرضى . . هل كنت تحسبينها حكاية سهلة ؟

كادت تهز كتفيه فى غضب ، وعنف له صوتها :

ـ هل الحرس كاف للدخول فى قتال ساعات ؟

ـ لم يقبضوا جمكياتهم من اشهر الماضى وأظنهم عاتبين ! لفـظت المرأة احتقارها فى وجهه :

ـ وأين كبير الحراس ؟ اطلبه فى الحال وحاسبه . . .

ـ فى آخره مرة رفض الامتثال للأمر وقال : إنه لن يقابلنى إلا يوم يكون معى متجمد الجمكيات المتأخرة وترضية كافية لجبر انكسار خاطر الجنود وأمراء المئات والعشراوات والطبلخاناه !

ـ اجبر بخاطره وأعطه من الوعود ما يشاء ... وأظهر لطومان باى أنك ستقاتل . . أعتقد أن فى وسعك الحصول بعد ساعات فقط على هدنة وتفاهم على شركة معقولة !

تأملها قانصوه فى ذهول ، لكن سحرها العابر تبخر بغير إبطاء ، والرجاء الذى بثته كلماتها لم يعش صداه فى قلبه غير هنيهة ثم أطبقت من جديد غيامة اليأس المنهزم . . لا لا . . أنت لا تعرفين طـومان بـاى مثلى . . مـا دامت عزيمته قد صحت آخر الأمر على أن يأخذ الزمام فى يده فلن يقف فى طريقه أى شىء . . كل القوى الآن تحت إبطه . . عندى من أخبـاره الأخيرة شىء كثير . . ووالى القاهرة صديقه فتك له فى هذه الأيام بكل من توسم فيه قدرة على الحركة ، لم يرحم ممـاليك ولا أبنـاء بلد . . خيولهم أول أمس فعصت

الخارجين من الصلاة فى الأزهر ، ولا يـزالون ينشـرون الفزع فى الأحيـاء المجاورة للمسجد . . طومان بـاى دك الأرض جيداً قبـل أن يأتى فى طلب عنقى .

ــ وكنت تعرف كل هذا ؟ وأنت ساكت ؟!

ــ لا تتكلمى فيما لا علم لك به !. . ويح هـذا الطواشى اللعـين ، لم يجئنى إلى الآن بناظر بيت المال . . لكن لعل طومان باى وضع يده عليه أول ما وضع !! . . لم يعد هناك أمل . . لم يعد هناك أمل . .

ــ هناك أمل إذا قاتلت . . .

ــ هل جننت ؟ أقاتل طومان باى ؟!

ــ قاتل يا مولانا فالقتال الذى يحتمل الهزيمة يحتمل النصر . .

ــ اسمعى أنت ! . . . فى الأمـور أسرار لا تعـرفينها . . هـاتى لى من ملبسك أوسعه وأخفاه لجسم لابسه ، والحقى بى فى الحمام تجدينى حليقاً وجاهزاً . . .

خيل إليها أن الجبان فى فزعه قد بلغ الهذيان ، وسألته فى قلق :

ــ جاهز ؟ . . للقتال يا مولاى . . فى ملابس النساء ؟! . .

ــ أسرعى يا ثرثارة فكل دقيقة الآن لها ثمن ! . .

فهمت مراده وفاض صوتها بمرارة أسيفة :

ــ وتأخذنى معك ؟

ــ لم يهتز لسؤالها البارد كنصل الخنجر :

ــ إلى أين ؟ . . اتركينى لمصيرى . . ما عليك إلا أن تستقبلى طومان باى

وتقعى فى عرصه ، والقلعة على كل حال هى القلعة . . . زعق الاحتقار فى سؤالها المتهكم :

ــ وإذا سألنى عنك ؟ هل أقول له إنك حلقت شاربك ولحيتك وعملت امرأة ؟

لم يعبأ بسخريتها الجارحة واندفع نحو الحمام فى ركن المخدع وهو يشير إلى خزانة ثيابها :

ــ هاتى كل ما يلزم من الرأس إلى القدم ، وليكن الخمار أثقل ما عندك ! وجاءت بما طلب وقذفت إليه بالكومة الكبيرة من وراء الستار المضروب على مدخل الحمام دون أن تلفظ كلمة ، ثم قصدت نافذة وأطلت فى فتور مستسلم على البستان فرأت المآزر الصفراء حول خصور العبيد السود تخفق كأجنحة كبيرة وهم يتدافعون فى كل اتجاه فى فوضى مخبولة ، ورأت طومان باى ذائع الصيت مقبلا فى أناة وسط كوكبه من رجاله الشاخين ، يحف به استقبال مُودى طروب من حرس الرجل الذى يشد الحزام النسوى المزركش فى تلك اللحظة حول خصره ، بعد أن حلق شاربه . وفى هدوء بليد عادت إلى ركن المرآة الكبيرة وأسقطت عنها عباءتها وسوت أطراف شعرها على كتفيها وتأكدت من شفافية غلالتها الداخلية من الأمام ومن الخلف ، وصلت أمام المرآة صلاة جركسية قصيرة :

ــ ليعشقنى الجـديد من النـظرة الأولى ، وليكن أعلى همة وأذكى أمام الجمال قلباً وإرادة ، آمين !

ورأت ــ فى المرآة ــ ستار الحمام وهو يتكشف عن شكل امرأة عجيبة تسألها بصوت ملهوف رجولى : .

ــ للآن لم يظهر الكلب ناظر بيت المال ؟!

قبل أن تطاوع نفسها على الضحك وقعت عند البـاب رجة عن كبـير الطواشية وهو يفسح الطريق بتحايا ذليلة يبدو فيها كأنه يجىء بالتـراب من الأرض فى كل مرة ويضعه على رأسه ، فطوحت بطرف الغلالة الحمراء عن فخذها الشاهق البياض قبل أن تركع على إحدى ركبتيها :

ــ مرحباً بسيد البلاد الأعظم !

تأملها طومان باى كما جحظت لمرآها عيون أصحابه ، ثم مد بصره فى هدوء هازىء نحو تلك المرأة الأخرى العجيبة الهيئة التى تنتفض عند ستـر الحمام ، فقالت له الجارية دون أن تنهض من ركوعها الخادم لجمال منظرها :

ــ إليك الرجل المطلوب وإن يكن فى زى امرأة ، فهذه القبيحة المضحكة يا مولاى هى عبدك الباسل قانصوه ؟

ووقعت فى المخدع العبق بشذا البخور السودانى لحظة من صمت خارق كان فى الإمكان أن يحدث فيها أى شىء حتى مشهد الدم ، ثم رج المكان من عنف الضحك زلزال ، كأن لمسة من جنون هبطت فجأة على الجميع ، وكانت عينـا طومـان بـاى فى عينى الجميلة وبينهـما لغـة الضحـك . . هـذا رجـل حقيقى . . وسبحان الله ما أحلاها ! . . ومـا أذكاهـا ! باعت واشتـرت فى اللحظة نفسها ! . . وعنف الزلزال عندما وثب قانصوه فجـأة ومرق بهيئتـه الغريبة وهو يتعثر فى ذيوله فأفسح له الجميع وهم يمسكون بطونهم التى أوجعها الضحك بأيديهم ، وسرعان ما علت صرخاته فى البهو عندما سقط فى أحضان سيوف عابثة تريد هى الأخرى حظها من المرح فى ساعة النصر . .

لم يخب إذن حدسها الغريزى وها هو السيد الجديد يتقدم منها وعلى شفتيه ابتسامة طيبة :

ــ لست سيد البلاد كما تقولين ، إنما أعزل باسم أمراء البر سلطاناً خائباً لنولى السلطان القادر الذى يختارونه ، وقد أخطرتهم جميعاً قبل الحركـة أنى

أنتخب أتابك العسكر . . أنا رجل بلا غرض شخصى ، والله شاهد ! . .

صوته رخيم وفيه عندما يشاء رقه رجولية نادرة ، فمست كلمته قلبها فى صميمه :

ــ ما اسم الحلوة . . ؟

نفضت شعرها وهى واقفة أمامه وقالت له فى نعومة :

ــ قبل اليوم لم يكن لى اسم ولا حياة ،فهبنى الحياة وأعطنى اسما يكون هو اسمى مدى العمر !

ضمنها وضمنته فالتفت إلى رجاله بصدر منشرح :

ــ هاتوا السلطان الجـديد وإمسحـوا له التـراب عن الكرسى قبـل أن تجلسوه . . !

ومرة أخرى زلزلت ضحكاً واستراحت يد الجارية فى يـد طومـان باى الدافئة ، قبل أن يقول لها مغرقاً نظرته فى نظرتها :

ــ لنـا عودة فى آخـر الليل إلى هـذا البخور الجميـل الذى تحـرقينـه فى مباخرك ، وسيكون معى الاسم وما للاسم من كرامة ومحبة !

(١٧)

انـظر ! انظر يـا يـوسف ! سقيـاطـة هـذا البـاب « بسم الله الـرحمن الرحيم » ، بهيئة شيطان . . كانا قد خلفا العمار وراءهمـا ودخلا فى رمـال معادى الخبيرى وصارت كل حياتها فى ربع الخيامية ماضياً نائياً فى البعد كأنه مر عليه أربع وعشرون سنة لا أربع وعشرون ساعة ، فالتفت إليها فى هدوء وطمأنها :

ــ ما أدرانا ! أهل الفضل لم يخلصـوا من الدنيـا ولعلنا نجـد وراء هذا الشيطان راحة عابرة وشربة ماء !

لكنها أمام الوجه الملتحي المنحوت فى حديد السقاطة ظلت خائفة من فشخة حنكه وجحوظ عينيه وخبث ابتسامته ، فمد يوسف يده نحو السقاطة وهو يلمس بيده الأخرى كتفها :

ــ ما أشد خوفك من قطعة حديد ! . . كنت أقل خوفاً عندما كاد أعراب المقطم يسلبوننا حياتنا لما لم يجدوا معنا غيرها ! . .

وأدهشه أن رآها تنتفض دون مبرر ظاهر ، كما لو كانت قد مستها من الإرهاق حمى :

ــ طاوعنى يا يوسف !

ــ أنا عطشان ، ولن نتوقف بعدها حتى نعبر الليلة إلى بر الجيزة . . .

ــ لنطرق أى باب غير هذا . . قلبى غير مرتاح له ! . . طاوعنى يا يوسف . . طاوعنى . .

ضحك من خوفها ورده إلى ما صارت إليه من تعب :

ــ إن أعطونا أو لم يعطونا فلن نخسر شيئاً . . واطمئنى فلن تفتح لنا أمنا الغولة ! . .

نظرت إليه عاطفة على طيبة نفسه وآسفة لشحوب وجهه :

ــ ألا زلت بعد كل هذا تؤمن بوجود ناس طيبين ؟!

كل هذا ؟ رأى فى كلمتها حصاد يوم وليلة من الخيامية إلى الجبل والصحراء ، والخوف من العيون واستغفال البصاصين ، وجثة الرجل العجوز المطروحة جلداً على عظم عند عتبة حمام الخيامية ، والسلاح فى صدور أولاد البلد ، ومماليك السلطان الجديد يستبيحون المدينة كالعادة احتفالا بالنصر ، واللصوص الضاحكين خارجين من الحوانيت المنهوبة ، وأولاد

الشيخ الدلاتونى معلقين على الأسوار والأسبلة ، والجياع اليائسين هاجمين فى أفواه المخابز ثم هاربين أمام النصالِ الباطشة ، والحرس السكارى على بوابات القاهرة ، وضراوة أعراب الأطراف وأفاعى الرمال التى انتزعت من صدر مكاسب أعلى صرخاتها التى ينخلع لها قلبه ، فأطبقت أصابعه على السقاطة وطرق بها الباب فى قوة واصرار . . نشرب ونشكر ونواصل فى الحال مسيرتنا إلى النيل ، إذ ينبغى أن نكون فى ميت جهينة قبل الفجر ! . .

صوت امرأة من وراء الباب يسأل الطارق عن غرضه ، ورنين سلاسل تحك فى ظهر الباب قبل أن تسقط إلى الأرض

وظهرت لهما امرأة شقراء ثلاثينية ، وبياض صدرها شاهق فى فتحة الرداء الواسعة :

ــ ماء ؟ أمن أجل الماء تزعجان البيوت ؟

يهودية غنة هذا الصوت وسحنة هذه المرأة ، فما أسرع ما شد يوسف كم صاحبته وهو يرفع صوته كما فعلت المرأة بجفاء لا يقل عن جفائها :

ــ سامحينا ! لم يعد بنا عطش ! . .

لكن عباءة سوداء يعلوها شعر أحمر غزير ظهرت فى اللحظة نفسها فى آخر الطرقة الحجرية التى كشف عنها الباب المفتوح ، وسمع يوسف ومكاسب صوتاً عجيب النعومة :

ــ راشيل ! توبى عن اللكاعة عند الباب يا راشيل . . من تكلمين ؟

همت أن ترد الباب دون أن تتكلم ، لكن الرجل ذا الصوت الناعم كان قد تقدم ونحاها بيده ووقف يتأمل الغريبين الواقفين ببابه فى دهشة لا تقل عن دهشتها من خلو فمه من الأسنان رغم أنه لم يبلغ آخر الكهولة ، وظهر فى وجنتيه وتحت عينيه نمش غامق :

- ماذا تريدان من راشيل ؟

فى هذه المرة سبقت المرأة إلى الكلام وهى تزفر من نفاد الصبر :

- لا نريد شيئاً منها أو منك ! . . كنا نريد شربة ماء لا داعى لأن تنزل لنا بالسم الهارى ! . .

كأنه لا يعرف الغضب ، وفي عينيه الصفراوين ابتسامة باردة :

- الطيبات لله ، هاتى لهما يا راشيل القلة الحمراء ! . .

وضحك نثار فى وجهه وهو يلاطف مكاسب التى بدت له أصعب مراسا من رجلها :

السم غال يا شاطرة والماءأرخص !

« سم يلهفك » زفرتها مكتومة ، على حين كان الرجل الذى كرهته من أول لمحة يتحول إلى زوجها بنظرته الصفراوية ويتأمل ساعده القوى البارز من كم الجلباب وهو يشير إلى داخل البيت :

- لا بد أن تأكلا لقمة ! . .

- نريد أن نشرب فقط . . أين قلتكم الحمرا ءالتى سمعنا عنها؟

- أكلنا بسيط لكنه نظيف . . تفضلا . . الناس لبعضها يا ابن بلدى ! .

فى هذه المرة كانت مكاسب هى التى شدت كم يوسف وهى تضرب الأرض بقدمها فى قلق . . أنا لا جائعة ولا عطشانة ! . . وما يزال يوسف يبلع ريقه منذ سمع كلمة الأكل ، وهو يعرف أنها أجوع منه ولا يرى لانكماشها أمام الرجل الودود معنى :

نشكرك . . الماء يكفينا . . وراءنا مشوار طويل قبل اشتداد الظلام .

لكن الرجل شد يوسف من ساعده فى إصرار جاهدا أن تكون ابتسامته فى وجه المرأة جاذبة مطمئنة :

- أنت ابن بلد . . لا تكسف خاطرى . . رجلٌ مثلى لا يكاد يرى أحدا غير صاحبته المولعة بفتح الباب كلما شمت رائحة رجل يعبر الطريق إلى بحر النيل . . الأكل مع مثل هذا الرجل يعتبر إحسانا من الآكلين ادخلى يا بنت الناس مع زوجك . . الناس لبعضها والدار أمان . .

انصاعت مكاسب لضغط زوجها على ذراعها دون أن يزايلها توجسها حتى دخلت فى أقصى الطرقة على أعجب ما رأت فى حياتها ، أكوام من السلال والصناديق والأحقاق والقنانى من كل الأحجام والألوان ، ورائحة فاغمة تتقبلها الرئتان بمعاناة متضررة ، ونادى الرجل الناعم زوجته التى لم تظهر ، أو لعلها ليست زوجته :

- هاتى يا راشيل العيش والغموس ، لأن ضيوفنا أيضا سيأكلون ! . .

غمت نفس مكاسب ، طالما سمعت عن هؤلا الذين يلاعبون العقارب وينامون مع خنافس وعناكب فى حجم الديكة ، وسمومهم عزيزة إلا على القادرين على دفع ثمنها ، ونزعت نفسها إلى الخروج بانبعاث باطنى حاد ، ناقمة بعض النقمة على رجلها الذى لا يصبر على جوع يوم واحد . . وفجأة دنت من الرجل تحت المسرجة المدلاة من السقف الخفيض وسألته فى جرأة دهش لها زوجها :

- ماذا تفعل بكل هذا ؟ !

- أقول لك إذا قلت لى أنت الأخرى شيئا !

- أنا ؟ !

– آخذة رجلك إلى أين فى هذا الليل ومعكما كل هذا الخوف فى عينيك ؟

هل وراءكما مطارد ؟

– لماذا تريد أن تعرف ؟

– ولماذا تريدين أنت أن تعرفى أسرار هذا المكان ؟

اندفعت مكاسب فى الكلام متجاهلة إشارات زوجها :

– سر هذا المكان مفضوح فهذه كلها سموم والعياذ بالله ! . . هل تنكر ؟

ضحك وهز كتفه وهو يمد يده إلى أحد الأرفف ، وتناول من مقدمته قنينة صغيرة من زجاج أصفر مطموس وتأملها فى راحة يدة دون أن تزايله سكينته التى تنطبع على الجدران وما بينها :

– هل تعرفين ما هذه ؟ هذه آخر وصفة ! . . لم أجد حيوانا واحدا أجربها فيه . . يبدو أن الناس من جوعهم أكلوا القطط والكلاب ، وحتى السحالى اختفت وكانت تملأ هذه الرمال . . لا بد من تجربة الطبخة الجديدة قبل الاطمئنان إلى قوتها الرهيبة . . لا بد من التجربة . . .

وفى هذه المرة أحس يوسف مع مكاسب وقع النظرة الصفراء على جسمه القوى ، لكن الرجل طوى يده فى هدوء وهو يستدير متجها نحو ستار داخلى :

– لحظة واحدة من فضلكم . . أرى ماذا تصنع راشيل البليدة طوال هذا الوقت وأحضر لكما الموجود عندنا . . البيت بيتكما . . لحظة واحدة . إحساس المرأة أنه مختبىء وراء الستار ومرهف سمعه ، فجعلت كلامها فى أذن يوسف همسا :

– يارجل قم بنا قبل أن يعمل فينا عملة سوداء !

لم يكتم عنها أنه يتسلى بخوفها من المكان وأهله :

– يعنى نقع من الجوع فى بقية المشوار أم نبلع هنا لقمتين تصلبان طولنا لحد بر السلامة !

– سيضع لنا فى الأكل سما . . لقد أخذ الزجاجة معه ! . .

– هل يبدو عليه أننا من كبار الوجهاء ؟ . . لماذا تتكلم النسوان كلاما غير معقول دائما ؟

– فى عرضك يايوسف ! . . يريح الله قلبك طول العمر إذا أرحتنى الآن وقمت معى . . قلبى مقبوض ، وقلبى لايكذبنى أبدا . .

– ياولية اعقلى ' هذا رجل يقع من زقة إصبعى ! . .

– قم بنا . . فى عرضك . . شد الحزام على بطنك ! . . هانت ! . . فات الكثير وما بقى إلا القليل !

ولاأثر لراشيل ، والذى ظهر بعد قليل يحمل الصينية هو الوجه المعدس ، فوضعها بينهما فى تواضع :

– عفوا لحقارة ما فى بيتى من مأكول !

بلع يوسف ريقه لرؤية الخيار والجبن والخبز الأبيض ، ونطقت نظرته إلى امرأته بتوسل ، لكنها أغمضت عينيها فجأة وتقلصت عضلات وجهها كما لو كانت تعانى وجعا داخليا مبرحا ، ثم هبت ضاربة الصينية بما فوقها فى اتجاه الشعر الأحمر . . .

وملئت نفس يوسف إحساسا بأنه يجب أن يخرج معها فى الحال قبل أن يفيق الرجل من ذهوله ، فوثب كما وثبت ، وبوثبات مشتركة خاطفة تلقاهما الدرب الرملى مرة أخرى وأباح لهما امتداده الأفعوانى نحو الغرب . . .

لكن ما من أحد جرى وراءهما فى الظلام ، ولا ظهر على مدى الشوف شبح إنسان آخر . . ولم يقل أحدهما كلمة . . لا وقت للكلام ولا قدرة

عليه . . فى صمت صار الرجل والمرأة إرادة واحدة شاعرة بالنجاة من شر مجهول وساعية نحو شط النيل . . آه يامعداوى ! . . كن على البر الشرقى وخذنا للبر الثانى ! . . وهما يجريان لمست يده ردفها فابتعثت اللمسة غير المقصودة لفتة من عنقها كشفت له ومضة حب برقت فى ركن العين الباسمة فنورت قلبه . . والبر بعيد يا معداوى ! . . البر بعيد ! . .

(١٨)

مع أهل البيت العتيق الذى لايزال يحمل اسم سليمان أبو طاسة جلس حسن بعد الصلاة يستمع للمرة الثالثة أو الرابعة إلى حديث يوسف عن المنسر الذى وقع مع امرأته فى كمينه عند حدود الأرض البور ، فقالت امرأته لأولاد الليل فى وجوههم : ما صدقنا خلصنا من الحرامية حتى نقع فى منسر ؟ . . وفى هدوئها المألوف تنهدت ست العيلة :

ـ ومع ذلك تركو كما تدخلان البلد بسلام . . رجال الليل فى هذه الأيام ما أكثرهم ، لكن إيش تأخذ الريح من البلاط ! . .

حاول حسن أن يكون صوته طبيعيا وهو يتكلم :

ـ لابد أن الفجر رآهم راحلين عن ميت جهينة إلى لقمة أطرى . . الحمد لله على سلامتك يا معلم يوسف ، نورت ميت جهينة يابنت مصر يا جريئة ! . .

يعنى يا ربى نقوم من حفرة نقع فى نقرة ، ونخلص من حرامية نقع فى منسر ! . . قلتها بالصوت الحيانى . . وإذا بثلاثة آخرين يطلون علينا من كتف سور الجبانة القبلى ، بالسراويل والسكاكين هم أيضاً وأحكموا الحلقة . . خرجتها من مصر بكسرة خبز يابسة ؟ ماذا كنتما تفعلان هناك ؟ . . تتسولان على الأبواب ؟ تنقر لها وهى ترقص وتلم النقطة ؟! . . لا ياسيد الناس ! . . أبواب مصر الآن لا تفتح للسائلين وليس وراءها صدقة . . هناك يأكلون لحوم القطط والكلاب الميتة ، ومن هناك خرجنا بالهدمة والستر ، لا يفضح الله لك

ولية ! . . لمس حسن ذراع الضيف ، وهمس فى أذنه عندما التفت إليه :

ـ تعالى نترك قعدة النسوان ونتمشى لحد الطاحون ، لى معك كلمة !

ـ الطاحون ؟ . . آه ! . . هل أجد هناك عمى عيسى ؟

ـ وتجد خالدا ومحمدا وأصدقاء آخرين كثيرين ، وأقول لك فى الطريق كلمتى !

ضاق الأعمى بالهمس الخافت القريب من أذنه ، وتحسست يده مكان القلة شاكراً :

ـ يا عم ما أعظم هدوءك وأنت تسمع عن وجود أولاد الليل حول البلد ! شاعت فى وجه غالب الطيب المعتم ابتسامة باهتة ، وانكمش عنقه بين كتفيه :

ـ يا بنتى ! قالوا للعريان البلد فيها هوجة قال على الله يقع على فى الزحمة قميص !!

وقف حسن مستأذناً فى الانصراف فنهض يوسف وهو يقول لمكاسب فى رقة :

ـ أنت الآن من أهل البيت . . أبو على يأخذنى معه لنسلم على حبايبنا وأحكى لهم ما جرى لنا مع أولاد الليل . . وندبر أمر معاشنا ! انتظر عليه حسن حتى بلغا باب الدار فأوقفه وقال له فى هدوء وعلى وجهه ابتسامة مطمئنة :

هل فيك من كتم السر ؟ . . اسمع ! . . هؤلاء الذين رأيتهم عند الجبانة ليسوا لصوصاً ، بل هم من أخوالى فى جرجا ، ولهم هنا شأن ينبغى لك أن تعرفه قبل أن تتوهم أنهم من رجال الليل ! . .

هس ! . . اسكت . . لا تتكلم قبل أن نبلغ الطاحون ! . . .

(١٩)

جبان ! جبان . . لفظتها كبرياء محمد الطعينة وهو يرى القلة الباقية من كلاب ميت جهينة تذرع السكك والمسارب وفى عيونها وقدة مسعورة جبان ! . . جبان ! . . ما لذى أمسكه فى البور الشرقى عندما احتواه العار وبعد ما صحت نيته على الهجرة ؟ . . . وسد محمد أذنيه بيديه وهو يجرى فى الخلاء فى اتجاه الطاحون والشجر حوله مهزول ورمق الحياة فيه شاحب ، والدواجن القليلة منكمشة عند كل سقيفة أو حجر خوفاً من الجوارح المحومة دانية من الأرض ، وفى عيون الحمير والجمال أحزان عجيبة وهى ترفع رءوسها عن الأرض المتشققة فى يأس ضامر مثلها . . وفعص بشقوق قدمه كتلة هائجة من ثعابين صغيرة حمراء مثل دود الطين كانت تتلوى فى بطن الأرض العطشى . . .

ونبض فى قلبه إحساس مبهم بالخوف من الأرض التى صورت له شقوق طينتها اليابسة فرحة الجدب والإمحال بأن النيل لم يوف أذرعه ، وما أن بلغ الترعة حتى توقف عند شطها ، وعاين وهو يلتقط أنفاسه المبهورة منسوب الماء فيها ووجد انخفاضه زائداً عن اليوم السابق ، حتى لقد وسعه فى بعض المناطق أن يرى قاع الترعة من خلال شبر الماء الضنين السارى بحمولته الهزيلة من أوراق النبات اليابسة وقطعان أبى ذنيبة الضئيلة ، الحى منها والميت . . واندحت فى أعماقه موجة من رهبة عندما رأى فوق حائط الطاحون بومة ، بارزة فى ضوء الصبح بمنقارها الشرس وعينيها المرعبتين ، على غير عادة بوم ميت جهينة ، لكنه ما لبث أن سمع من داخل الطاحون صوتاً لا يعرفه يقول :

ـ الأهالى فى منفلوط وغيرها قطعوا الطريق وذبحوا الملتزمين ودحروا تجريدة الوالى ، ونعم الرجال ! . .

رجال يتكلمون عن الرجال ، كيف يظهر بينهم بكل أحماله من العار هو

العاجز عن الثأر ؟ . . إن عبد اللطيف الأكتع الذى تنعقد الأسمار حول هجرته القديمة كان أشجع قلباً عندما مضى بلا عودة وخطفه الزمن وطواه . . لكن خطاه سعت بالرغم منه إلى باب الطاحون ، فنهض حسن فى الحال من بين الرجال المتحلقين حول الرحى الجامدة واندفع إليه فى شوق واحتواه فى صدره فى عتاب يهزه الفرح :

ـ يا رجل ! . . أربعة أيام بلياليها ولا حس ولا خبر . . شغلتنا عليك !

قاوم محمد نهاية الخزى التى همت بها أعماقه الممزقة ، أن يبكى الرجل وسط الرجال ، وجاء رده همسة خائرة فى سمع صاحبه الذى يشد بذراعه حول كتفيه :

ـ جدك عبد اللطيف يا حسن كان أقوى منى . . هو مضى فى البرية على وجهه إلى الأبد ، وأنا لبدت فى بور الشرق دون أن أقوى على مبارحه حدود الجيزة . . نفسى خذلتنى . . وأنا خزيان ! . . .

ـ هون عليك يا محمد ! هون عليك ! لله فى عودتك حكمة ، فادخل وخذ مجلسك وسط الرجال . .

ورحب به يوسف فى مبالغة تريد أن تنفخ فى خوره الظاهر من روح المكان نسمة منعشة :

ـ أهلا بالرجل الذى كان ينقصنا !

جلس متهيباً فى طرف الحلقة ، خمسة رجال لا يعرفهم ، هل يعرفون حكايته ؟ هل يعرفون ؟

وهمس حسن من وراء كتفه :

ـ أخوالى . . فى زيارتنا !

وقال أطولهم قامة مستأنفاً الكلام الذى قطعه وصول محمد :

ــ وهل يكون مسلماً من يصبر على الضنك والمظالم وصوامع ملتزمه المليئة بالغلال أعلى صوامع رأيناها من جرجا إلى الجيزة ؟

كان المتكلم كهلا نحيلا حاد النظرة ، ولشخصه مهابة طبيعية لا تفارقه فى حالتى الكلام والسكوت ، وتأمل محمد وجهه الأسمر وصرامة ملامحه الدقيقة ، وسحرته قوة نظرته الفذة ، والأربعة الآخرون حافين به كالصخور السمراء ، منتظرين كلماته فى صمت مفعم بالإكبار :

ــ أليس كذلك يا محمد يا ولدى ؟ أين القمح والفول والشعير ؟ وأموالنا وأعراضنا أين هى ؟

احتبس صوت محمد فى حلقه فتولى يوسف الرد فى تهيب :

نحن هنا عصبة من رجال أشداء لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون ، فماذا نفعل يا سيدنا ؟

وقعت لحظة صمت جلجل فيها الرد فى باطن يوسف قبل أن يعلو فى المكان أى صوت . . . يا يوسف لا تنس أنى زليختك ! . . صوت الشيخة ، من أعماق الصبا ، غضا كأنه يسمعه لساعته . . وتمثلت له صورتها بين عينيه كما رآها فى طفولته يوم ضربت عيسى بمقرعتها على مؤخرته طالبة منه أن يكون وجع هذه الضربة معه يوم ينصب قامته فى وجه الباطل . .

وسأل الرجل الطويل الأسمر بصوته النافذ إلى القلوب :

ــ أين بقيتكم ؟

فقال حسن بصوت ينضح بالثقة :

ــ نحن كثيرون ، وعندنا حد الكفاية من البلط والفؤوس والمناجل والنبابيت والسكاكين أيضاً وأول جرأة تكفى لتوليد ألف جرأة . . وفينا خالد

وحده بألف رجل . . لكن الطاحون ضيق والبصاصين أكثر من البراغيث . . .

وأرهف محمد سمعه لجواب الرجل المهاب :

ــ أعرف يا ولدى . . أعرف . . لأنك لم تكتم عنى شيئاً من كل ما عند ميت جهينه من ثارات ، وأعجب لسكوتكم إلى اليوم . . أتسألنى ماذا أنتم فاعلون ؟ . . رأيى أن الإنسان ليس من حقه أن يخذل إرادة الله فيه . . رأيى أن يرفع البر عينيه للسماء وأن تقولوا يا إرادة الله كونى مع شرف النساء وعزة الرجال . . إرادة الله فيكم !

وصخرة من الصخور الأربعة تكلمت بعد السكون الذى هبط على حجر الرحى والذين من حوله :

ــ وكرمنا بنى آدم . . فليكونوا كراماً ! . .

وأحس محمد بنظرة الرجل الطويل تنفذ إلى حبة قلبه وهو يخصه بالكلام فجأة :

ــ يا محمد ! لا عار على السبع إن نهش اللحم الحى ، لكن العار للمنهوش لو لم يهجم هو الآخر على السبع بعد أن تزايله الرهبة من بطشه وفتكه ، ويهجم قاتلا أو مقتولا . . هل ترى غير هذا حلا يا من اختارك ربك لبلوى لم أسمع بمثلها أبداً ؟

أحس محمد أنه ما من كلمة يسعها أن تخرج من حلقه المتصلب ، فابتسم له الرجل :

ــ من أجل أنك مختار لهذا الامتحان فإنى أكبرك وأرى لك شأناً ! وصوت فى باب الطاحون دهمهم على غير انتظار :

ــ من أنتم وماذا تفعلون هنا ؟

سكتوا لظهور صاحب السؤال ، ثم كان الرجل الطويل أول من قطع لحظة السكوت الحرجة ، وكان كلامه هو الآخر سؤالا وقوراً موجهاً بلفتة الوجه وإيماءه اللحظ إلى رجال ميت جهينة الثلاثة :

ــ من الفتى وما معنى سؤاله ؟

فتى متعاظم يلتف حول وسطه حزام جلدى تلمع فيه نقوش فضية ، وفى يده سوط مطوى ، ورأى يوسف وجه محمد الذى فر منه لون الحياة ، وشعر وهو ينهض أن أى شىء يمكن أن يحدث فجأة ، الآن ، فى رجع البصر :

ــ هذا ابن ملتزمنا ، وكبسته لنا الآن ذكرتنى بجده حمزة الكبير الذى سمعنا أنه كبس الطاحون هو الآخر فى يوم قديم على خالد وعيسى وصاحبهما المرحوم خليل . . جيل ورا جيل والهم يا ولداه ثقيل ! . . وعادت نظرته القلقة تحتوى محمد ، لكنه لحظ الرجل الطويل الهادىء وهو الآخر صاح للجحيم المتفجر فى عيون محمد وحسن ومستشف لخطورة اللحظة ، قبل أن يقول فى هدوئه العظيم :

ــ هذا هو عرفناه ، فما معنى سؤاله ؟ هل من حق أولاد الملتزمين فى الجيزة أن يسألوا الناس ماذا يفعلون دون أن يلقوا عليهم أولا بالسلام ؟

ضرب الشاب فخذه بمقبض السوط وقال فى وقاحة :

ــ عجباً لطاحوننا لا ينزل به إلا كل غريب مريب !

هل تطق الشرارة ؟

تصفح الرجل الهادىء الوجوه قارئاً علامات المصير ، لم يكن يجهل القتلة البشعة التى لقيها ابن عم حسن على يد السفاح والد هذا الولد الذى يسد مدخل الطاحون بجسمه الفارع ، ويعرف أن سكين حسن لاتزال منذ وفاة أمه تنتظر الساعة الموعودة ، وفى قلبه كانت تعيش كل مواجع محمد . .

يا ولداه ! . . منذ ظهر ابن الملتزم ، وهو فى جمود كامل ، ونظرته ثابتة على الفتى لا تتحول . . . كل ما وراء الجمود . . كل العذاب فى حكاية محمد ونور التى طار ذكرها فى الصعيد إلى آخره . . ما أبشع هذا الشىء القليل من الشبه بين استدارة الفكين ونغزتى الخدين . . وإنه لدم واحد ذلك الذى يجرى الآن فى شرايين محمد ضارباً طبول النقمة ، وفى شرايين هذا الولد الذى جاءت به إرادة المصير لتجرب ميت جهينة هى الأخرى الوقوف على أقدامها والتحديق فى عين الشمس ، ولتطق من خلاله الشرارة . .

هل تطق الشرارة ؟ هل يطاوع المسكين محمد صاحبه حسن فيعود ابن الملتزم إلى أسوار أهله وهو مقلوب بالعرض فوق سرجه ، ودم رجولته نازف كما نزف فى الزمان القديم دم بركات الزكى ؟ وتزغرد اللهاليب ؟ ويرى الباطل هنا أيضاً وجه الحق ؟

وقال الرجل وهو يتجه إلى الخارج فى وقار جعل حمزة يفسح له الطريق فى رجفة :

ــ ها هم الغرباء يخرجون فلا يبقى معك غير حسن الأكتع ويوسف الجهينى ومحمد أبو غالب أولاد بلدك ، وإن حجر الرحى ليصلح نطعاً للسيف قبل السكين !

طقت الشرارة ، وزعقت فى الطاحون الدماء الهائجة ، والرجال الخمسة يخرجون على مهل . . ولم يبعدوا بل أجالوا أبصارهم فى الحصان المنتظر قبل أن تستقر نظراتهم آخر المطاف على ظلال بستان الملتزم التى تتراءى على مدى الشوف ، وفوقها شموخ قمم الصوامع فى زرقة السماء الصافية . .

ولا صوت فى داخل الطاحون . . لا صوت بعد تلك الصرخة المنكرة الواحدة . . . لا صوت !

(٢٠)

أصوات ، أصوات ترج الأرض من كل صوب ، راعدة . . لم ينتظروا حتى يرد على إعلان الحرب الذى جاءه مضرجاً بدم ابنه . . أعادوه إليه جثة مقلوبة على الحصان ، كما لو كانوا واثقين من انشغال القاهرة بهرب السلطان قانصوه متخفياً فى زى النساء ، ويسطو المماليك على البيوت والأسواق إشهاراً لسخطهم على تأخر جمكياتهم . . ولن ينتظروا وقد زاد عددهم بورود الغرباء الذين جاءته عيونه بأخبارهم . . زادوا الضعف أو ضعفاً ونصف فى تقدير بصاص آخر من عيونه المفتوحة على ضمير ميت جهينة وأحشائها . . ولابد أنهم يعرفون أيضاً أن الحمار والى الجيزة يغط فى النوم . . كلما اقتربوا ظهر تحت الشمس سلاحهم . . معه سلاح ، على آخر الزمن ، فلاح ميت جهينة ! . .

من فوق الأسوار تطلع سليل آل إدريس وغيظه يغلى ، ورجاله رابضون بسلاحهم وراء البوابتين القبلية والشرقية ، ومن وراء كتفيه سيف حارسه وعمامة الشيخ هريدى . . ورسوله إلى والى الجيزة لابد أن يكون الآن فى حضرة الوالى يطالبه بالنجدة العاجلة . . رجاله ما أكثرهم والسلاح ما أوفره ، فليأت فلاح ميت جهينة بنبابيته وفؤوسه ، ولتصل فى الوقت نفسه نجدة الوالى ، وأنا وأنتم والزمن طويل يا أولاد ميت جهينة ! . . سيجىء العسكر وتنسحقون وساعتها أعلمكم كيف تخضون الذكور . . وتمدون أيديكم الوسخة على الغالى وحيدى . . .

وهبطت نظرته إلى سرة الحوش الواسع حيث أرقد الرجال حمزة وغطوه بملاءة بيضاء مضرجة بدمه فى منتصفها ، لا أدفنك يا حمزة حتى أشفى غليلى ، ثم تعيشين يا ميت جهينة فى مأتمه أربعين ليلة أو لا أكون إدريس ابن حمزة الكبير ! . . .

والرعد يقترب ، من أين جاء كل هؤلاء فى ساعتين ؟

والأرض على مدى الأفق تشغى تحت شمس سبتمبر بناس كالنمل يا شيخ هريدى ، فلا تقف ورائى كالصنم وادع لنا ربك أن ينفخ فى صورة الحمار والى الجيزة ، لكنه لم يسمع الرد ، لأن طلائع الجموع صارت من الدنو بحيث هددت الأسوار ، فالتفت إلى حارسه :

– لو دخل علينا هذا النمل لأكل طوب الصوامع قبل خزينها وأكلنا نحن أيضاً . . سنحارب يا عبد الجبار وننتصر . . أنا أعرف كيف أكسرهم . . .

غطى الهدير الزاحف على الهمهمات المتهدجة ، والكفان ضارعتان إلى السماء ، لكن المعنى الناطق فى وجه الشيخ هريدى هو الخوف ، فالتفت إليه الملتزم رافعاً صوته ليعلو على الأصوات الهادرة المتدفقة من حول الأسوار وقطع ضراعته فى استخفاف :

– أهل بلدك الذين تؤدبهم حضرتك فى الجامع ! . . . تفضل ! . .

– ياسيدى الملتزم نفخة من حضرتكم تطيرهم بإذن الله ! . . .

– انتظر وسأفرجك عليهم . . انزل أنت يا عبد الجبار للرجال وحمسهم وقل لهم : إن التجريدة فى الطريق . . والموقف فى يدنا . . وبعد ساعات أدفن حمزة وألبسك الطرح يا ميت جهينة . . .

وهبط الحارس فى السلم القصير ، لكن زعقة إدريس أوقفته عند نهايته :

– لينقل ولدى إلى الداخل ، ولينبه على الحريم ألا تعلو أصواتهم فى هذه الساعة . . قل لهن بنفسك وعد إلى فى الحال . .

واستطاع الشيخ هريدى أن يبلغ مسامع الملتزم بصيحته الذليلة المرتعشة :

– فرقعة كرباج حضرتكم تنفخهم يا سيدى الملتزم ! . . .

أخفى إدريس رأسه التى كانت ظاهرة فوق السور من ناحيته الشرقية وتطلع من إحدى طاقاته المربعة الصغيرة فخيل إليه أنه يحلم . .

هذه الفأس التى تنعكس الشمس على سنها الجديدة فى ومضات براقة ، ترتفع بها يد محمد ابن فاطمة ! . . محمد ! محمد ! وفاطمة نفسها فى يدها منجل أبتر وكتفها فى كتف ابنها ! . . ومد وجزر من رجال ونساء من كل الأعمار . . والسكين الطويلة فى يد الولد حسن الأكتع . . الآن أعرف أنك فاعل هذا يا بنى . . الآن فهمت . . تعال تعال . . تعال حياً . . أريدك لى وحدى أياماً وليالى . . وحدنا . . أكويك وأشويك . . ومقاطف مليئة بالحجارة ومناجل وفؤوس . . وسكاكين وبلط . . وفؤوس وفؤوس ، وفؤوس . . وعدد كبير من النساء . . عجيب هذا يا بلد ! . . عجيب . . والآن ها هم أربعة منهم يرفعون جذع شجرة مقروط ويقتربون به من البوابة الشرقية ، يا والى الجيزة ! . . إنى ساع فى عزلك يا والى الجيزة بعد انتهاء هذه الغمة . . البليد . . النائم . . لكن الباب خشبة مثل الحجر الأسوانى والجنزير الذى يمسكه حمولة سبعة رجال لا أربعة ! . . لن يدخلوا هنا أبدا وستصل التجريدة قبل أن تلين لهم خشبة واحدة فى البوابة . . وما أن يؤذن الشيخ هريدى لصلاة المغرب فى الجامع حتى أكون داهساً فى فرشتهم فلا يقيم أحد فى عينيه . . التجريدة الآن ينبغى لها أن تصل . . الآن . .

وعاد وجه محمد فى الزحام ويختفى تحت بريق فأسه المرفوعة وهو يطلق صيحات ضائعة فى هزيم المجموع . . ما أكثر الغرباء فى هؤلاء المجانين . . حتى المجذبون ظهروا والعميان جاءوا . . ووجه محمد مرة أخرى قريباً كل القرب من كتف أمه . . وجذع الشجرة يدق الباب الشرقى فى إصرار ، فجازف إدريس بسلامته وأطل من فوق السور فى استطلاع تحتى خاطف فرأى قطاعاً من وجه أحد حاملى الشجرة المقتحمين ، وشهق من دهشته لما عرف فيه وجه غالب الأعمى زوج فاطمة . . .

ـ طيب يا والى الكلب ، إن ما جعلتك عبرة !

وعبد الجبار بالسيف ورجاله على أهبة ، لكن همة الوالى وجبت ! واستدار إدريس فى درء السور حتى واجه الغرب فى قلق ، وتطلع مستروحاً عبير العسكر على مدى الشوف . . وصار الزئير يزلزل نفسه وإن ظهر لرجاله آية فى ضبط النفس ، ودعا على الوالى النائم أن يقع فى يد أمير يقظ . . وفى انحناءة راكضة عاد فى درء السور إلى مرصده الأول ، بعد أن اطمأن بنظرة ألقاها فى داخل الحوش إلى أن جثة ولده قد أدخلت إلى البيت ، وأن البوابة المتينة هازئة بدقات الشجرة المقهورة . . وإن عشت يا والى لا تهنأ ولا تسعد . . أين التجريدة . . الآن وقتها . . من يدرى إلى متى تصمد البوابة . . . يا شيخ هريدى . . يا هريدى ! . . أين اختفى آكل العصيدة ؟ . . أنت يا شيخ النوائب ؟

هل عجيج الخارج آخذ فى الخفوت أم هو واهم ؟

من الطاقة ظهرت له وجوه أخرى كأنما يحملها مد وجزر . . يا بنت القرعة ! . . حتى أنت يا ستيتة . . والمرأة محسنة أيضاً . . أم نور . . وزمانك يا عبد اللطيف يا أكتع عدت أنت الآخر من البور لتصرخ عند سورى معهم . . طيب ! . . نعيش ونشوف يا ميت جهينة . . الأيام بيننا والليالى . . دقوا الباب دقوا ، دقوا حتى تتعبوا . . لا أكون ابن حمزة الكبير إن لم أفك حصرى فى مراقدكم . . ومن مرصده لا يرى الآن غير طرف قميص أزرق وحركة كتف قوية عنيدة . . عاجزون وشجرتهم عاجزة ، ودليلهم المغفل الأعمى . . .

ورجاله رابضون بسلاحهم حسب إشارته ، والعواء الخارجى الذى انتهى إليه الرعد الأول آخذ فى الذبول والانحسار ، والبوابة صامدة . .

ولا غبار ولا عسكر فى الأفق الغربى ، لكن كأن الضاربين بالشجرة هالهم

هذا الانكسار فضاعفوا من عزيمتهم حتى وضحت فى سمعه أصداء ضرباتهم فى صلب الباب ، وانخلع قلبه فى فجأة قاسية عندما إنخلع الباب وارتطمت مصاريعه بالجدران ، وظهر فى فتحته عملاق يرفع فى يمناه سكيناً هائلة وتطق من عينيه شرارات خارقة ، وسمع إدريس كل كلمة فى الصيحة المتهللة التى انبثقت مدوية من قلب خالد :

ـ خشى يا ميت جهينة سلمى على الملتزم وصوامعه !!

التحم عبد الجبار بخالد عند مدخل البوابة ، لكن الطوفان فى الحال غمر التحامهما وطواه فى القتال الكلى ، فوثب إدريس وهو يستل سيفه من حزامه إلى طرف الجانب الغربى من السور العلوى ورمى الأفق بنظرة لائمة . .

وفى حركة يائسة رد السيف إلى غمده وانحنى فى عودته إلى مرصده الذى يطل منه على جزء كبير من الحوش دون أن يظهر منه شىء ، وسابت مفاصله فى ركوعه عند الطاقة ، وشعر أن احتماله للضجة الشنيعة لن يطول . . فى الحوش دماء وصرعى وأكثر من ثلاثمائة حنجرة . . اضرب فى المخ يا ولد ! . . سد سكة الصوامع ! . . مدد يا ساكن الجميزة . . إرادة الله فيكم ! . . مدد يا شيخة زليخة ! . . الضبع الكبير مختبىء مع النسوان يا جدعان ! . . مدد يا روح عزة مدد ! . . اضرب يا عبد الجبار . . سكة الصوامع مفتوحة ! مدد يا أم بركات ! مدد يا أم حسن ! فى المخ يا ولد ، فى المخ ! . . الصوامع ! . . الصوامع . . إرادة الله فيكم ! . . لا . . لن يحتمل . الآن يعرف أن المعركة خاسرة إلى حين ، ولعل التجريدة لن تصل قبل الغد إن وصلت . . وأهم ما ينبغى عليه فى هذه اللحظات البشعة هو أن يحفظ حياته بأى ثمن ، للانتقام الكبير بعد وصول النجدة . . يجب أن يعيش هو . . يعيش ويعيدها أرانب فى الجحور ، هذه الذئاب التى تسمى آل إدريس ضباعاً . .

حتى ستيتة العجوز سمع صوتها المشروخ وهى تصرخ من قبة الفرن التى اعتلتها فى الركن القريب من مكمنة :

ـ يا مرعوش هد لنا جدار الصومعة !!

وهذا الصوت الذى جاوبها من أقصى الحوش بزئيره العالى يعرفه إدريس فهو صوت محمد :

ـ حلال علينا : حلال يا ميت جهينة !

لا يعرفون ، المناكيد ، لا يعرفون أن فى أعماق بيتى مخبأ جاهزاً نأمن فيه على أعناقنا أنا والنساء ، حتى نسمع منه عجيج سلاح التجريدة ونخرج لاستقبال الرايات الصفراء الخفاقة على أسنة الحراب . . عندما تصل التجريدة بعد قليل . . فى الحال . . لا يمكنهم أن يتأخروا أكثر من هذا ويتركوا البر يفلت من أيدينا . . وأمام المد العظيم رأى رجاله يتقهقرون ، ولحظ فى بعضهم عند استشعار الانكسار لمحات من الحرص على الحياة . . هذه هى كل حدود بسالة رجاله والمصير ناطق فى الحوش وسينطق بعد قليل عند الصوامع . والمقاطف التى أفرغت فى الأيدى الضاربة كل حمولتها من الحجارة المشطوفة ستعود مليئة بقمح الأدارسة وعدسهم وفولهم وكنوزهم إلى جحور ميت جهينة ، وتصدق نبوءة مرعوشهم . . البصاص قال له : إن البلد تتكلم عن رؤيا ظهر فيها المرعوش للبنت نور وبشرها بأن يوم الخميس الأول من رجب سنة ٩٠٥ هجرية سيشهد بيوت ميت جهينة فائضة بالغلال . . وتخبز ست العيلة العيش الأبيض ، وتخرج صوانى العشاء لكل الناجين من المقتلة . . وبالزغاريد تفقعها معها النساء ، وفاطمة فى النساء ، تحيى ميت جهينة ليلة نصرها اليتيمة قبل أن تلبس الحداد عمرها كله .

حتى إناث الفلاحين يقاتلن أحسن من رجاله الجبناء الخونة فى عز الظهر . . وسدد من فرجة الطاقة نظرة جانبية فلمح غالب يخنق واحداً من

حرس صوامعه أوقعته حركة المد والجزر فى متناول قبضتى الأعمى . . والمرأة الشابه الغريبة التى كان قد لمحها منذ برهة وهى تناول يوسف نذير الشؤم قطع الحجارة تثب الآن من وراء كتف يوسف فى جرأة وتصرخ عند مكان خالد صرخات مبهمة وهى تشير إلى السور العلوى ، وخالد يتوقف عند صرختها عن القتال ويستشرف المكان الذى تشير إليه المرأة ، وصدره المشعر يخفق كالمنفاخ ، ويده الممسكة بالبلطة تشلب دماً .

لك يوم يا والى الجيزة نقف فيه أنا وأنت أمام الأمير المقطع ونتحاسب .

وساخ قلبه بسخونة مرهقة وهو يزحف فى رعب على يديه وركبتيه فى اتجاه السلم الداخلى . . وآخر ما رآه من الحوش لون الدم طاغياً على الأرض الإدريسية التى وطئت حرمتها الأقدام المتشققة . . انزل يا إدريس ، انزل يا إدريس ، صوت زوجته من أسفل تناديه فى جنون ، وعويل تحتى منسحق ، تطغى عليه فجأة صيحات من الحوش مجلجلة متعانقة :

ــ فتحناها فتحناها ! . .

ــ صوامعنا ! . .

ــ فتحناها ! . .

ــ كله من فضله خيركم ! . .

ــ إرادة الله فيكم ! . .

ــ أبشر يا ساكن الجميزة ! . .

ــ يا محمد أين أنت ؟

عند مسقط السلم رفع إدريس صلعته التى سقطت عنها العمامة فى زحفه الأرضى المذعور فرأى على الدرجة الرخامية العليا ستة أقدام حافية مطينة تسد السبيل ، وشعر وعرق فى أربعة سيقان وفى أقصى اليمين كشكشة سروال امرأة . . .

راكع بارز البطن مثل صوامعه وهو يخطف نظرة عبر الأبدان الثلاثة إلى الوجوه . . بلطتان وفأس ، بائع الخروب ابن مصر والبنت والولد !!

عيون فيها هول ، البنت والولد ، بلطة وفأس !

وخرس لسانه عندما أراد أن يتكلم ، أن يقول لهما إن كل ما هنا ملك لهما وأنه أبوهما ، لكن نظرة قلق فى عينى صاحبهما اللتين تكشفان الغرب جعلته يرهف مسامعه ، فيسمع وقع سنابك الخيل المقبلة . . ومن تحت ، من قاع البيت حيث جثة ابنه مسجاة وسط النساء ، تعالت فجأة زغرودة . .

ثم نبع سفلى من الزغاريد . . لقد جاء العسكر !

صرخة عاتية ، وبالبلطة المرفوعة فى يديها تقدمت نور وثبتت قدميها ونصبت طولها :

ــ لكن قبل أن يدهمونا تقبل يا أبتاه التحية !!

وأخذت نفساً كبيراً فى شهقة عالية ، وضربت ضربتها .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٠٥ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5240 - 4

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ سعد مكاوى

كتب القصة والرواية يرتبط بالتاريخ والأرض بروح العاشق ويمزج فى سبائك من ذهب خالص أرواحًا ونفوسًا ببصيرة مبدع وبصر مفكر، ويمزج الباطن بالظاهر والوهم بالحلم والأسطورة بالتاريخ ليكشف الأرواح وصراع الإنسان وتناقضه الصارخ.

وفى تحفته الأدبية «السائرون نيامًا» تتكشف لدى القارئ التناقضات الحادة بين عالم المماليك بصراعاتهم على كرسى السلطة وبين عالم الحرافيش، عالم الزعر وعشاق النكتة والفكاهة رغم قساوة المأساة.

هذا الاستلهام البديع المتفرد، يجعل القارئ لأعماله دومًا يردد معه :

«لا تحزن إن الحقيقة معنا.. وما أجمل أن تجدنى وأجدك...».